

الحُجَّة

المؤتاه في الرد على صاحب كتاب

إلى التصوف يا عباد الله

تأليف

أحمد القطعاني

يطلب من

مكتبة الجندي

ميدان سيدنا الحسين - القاهرة

تليفون: ٥٩٠١٥١٨

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع : ١٨٦٤ / ٢٠٠٦

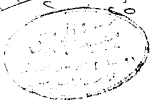
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله

انه بموجب هذا الاتفاق يكونه ما حقته المستاذ جمال الدين
محمد بن الحسين طاب الله اى در كتاب الحق المؤلفه الشيخ
الحمد القفطانى من نفقته وبيعته وتوزيعه .
على انه يكونه مسؤولاً مباشرة مسئولة كاحلة ما توثيقه وحلته ما
يخدم هدفه او المحافظة ولعمري واحد للكتاب عدا اضافة اسم
مكتبة من الى ان لا يراه مناسباً ان الكتاب في حالة مذكورة
اى اضافة او حذف يكونه ما حقته الكاتب الحمد القفطانى اتحاد ما يراه
مناسباً ما اراه ما توثيقه .
كذلك بموجب هذا الاتفاق سوليتم المستاذ جمال الدين الحسين بدفع
اى مبلغ مالي المؤلف
مع بموافقة جالين :
1- انه هذا الاتفاق بعد ساراً ما لم يوقفه باقائه اخر يعلم به المستاذ
جمال الحسين من حينه للتعديل او ازاله .
2- يبين من حق المؤلف من حق الطبع والانتشر من اراد ما مكتبة ان يريد
درايستر هذا الاتفاق ملزم له بشئ من جسر حرية تصرفه في مؤلفاته
على الاطلاق

والله به ما يقول شهيد

محمد تاج
جمال الحسين
مكتبة الحسين
١٤٠٩

توقيع احمد بن الحسين
الحمد القفطانى
المستاذ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ
عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

الحمد لله خالق العباد خلقاً من بعد خلق، ولي كل نعمة ورزق، أهل الحمد والتقدير والتمجد، المتعالي عن الحد والتحديد، الموجود في علل الحدود، الباطن في وجوده، الظاهر في مبدعاته، الدال على تفرد بالوحدانية والأزلية، الذي احتجبت عنه العين القاصرة وبطن بخفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور، فرأته العين الباصرة، علا فلم ينأ عنه شيء، ودنا فلم ينأ عنه موجود، وتقدس فلم يتساو به مخلوق، فتفرد بالعلو والقرب بلا كيف ولا مثال، أعجز العقول عن تحديده وحصره، وفطر القلوب على الإقرار بسطوته وقهره، فإن جحد الجاحد فجحوده عين الإقرار، وإن أنكره المنكر فنكرانه على الإقرار بإصرار، الذي رضي الحمد شكراً لجزيل نعمه وعظيم كرمه، حمداً دائماً متصلاً لا ينغد كما يستحق أن يحمد .

وصلى الله على سيدنا محمد عبده وخليله ونبيه ورسوله مبين البيان، الإنسان الكامل على مر الزمان، هادي الأمة وكاشف الغمة، السراج المنير الوهاج، انخصوص برؤية ما رأى في المعراج وعلى آل بيته الطيبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وعلى صحابته أهل المجد والثناء، والعلو والبهاء، والإخلاص والوفاء، وعلى التابعين بإحسان، وتابع التابعين إلى يوم الدين .

وبعد . . . فعلم التصوف من أشرف العلوم الشريفة وأنفع المعارف السامية المنيفة، رفيع القدر، حميد الأثر، يزكي النفوس ويصقل القلوب، ويهذب الطباع، يسير بالروح إلى بارئها ويحدو بها إلى خالقها، يستبدل الخبيث بالطيب والسيئ بالحسن .

وأهله هم أهل الله وخاصته، الدالون عليه تعالى، الواقفون بالإخلاص بين يديه في الفرق والجمع والعطاء والمنع، أهل الأدب الرفيع الراقى والسمو الأخلاقي، طريقهم أصوب الطرق ومنهجهم الإخلاص والصدق، ولو جمع عقل كل ذي

عقل، وحكمة كل ذي حكمة ليحسنوا ما هم عليه ما وجدوا إلى ذلك طريقاً، فقد تشبعت بواطنهم وظواهرهم بنور الهداية المحمدي، وما بعده نور ولاهدى.

والتصوف هو لب الإخلاص في العبودية، وهو التطبيق العملي للكتاب والسنة، وقد كان فعلاً ومعنى عند من صحب النبي ﷺ وليس هناك أفضل من شرف صحبته ﷺ فتسموا بالصحابة، ثم جاء بعدهم التابعون، وكان هذا الاسم علماً ودليلاً على شرف من صاحب وشافه أصحاب رسول الله ﷺ من المسلمين.

ثم ظهرت الفرق والشييع والأحزاب في الإسلام، فاخص أهل الورع والزهد والعبادة والإخلاص والصدق، ثم المراقبة والمجاهدة باسم الصوفية، لاشتغال أهل الفضل بهذا الاسم حتى قبل الإسلام وكما يحدث في كل العلوم والميادين والمجالات، دخل هذا الوسط النقي الطاهر من هم ليسوا بأهله جهلاً أو طمعاً ورياء، وكما حمل المشعوذ اسم الطبيب، والدجال اسم الصالح، والجاهل اسم العالم حمل هؤلاء اسم الصوفية ليسخروه لآربهم الخاصة، ولكنهم كانوا من الوضوح والظهور بحيث لم يخفوا على أحد، وقد قام السادة الصوفية بتنقية وسطهم من هذه الشوائب التافهة، وكما يرفض جسم الحي الجسم الغريب رفض الجسد الصوفي هذه الشوائب وقومها بالقدوة الحسنة والكلمة الطيبة.

واستمرت مسيرة الأمة هادئة عموماً ومضطربة أحياناً ما يزيد على ستة قرون، حتى جاءت الساعة التي اعترضها فيها أخطر ما واجهها من محن حتى ذلك الوقت، وهو الغزو المغولي الذي ابتدأ بخوارزم والأطراف الشرقية من إيران، ثم وصل إلى بغداد نفسها وذلك بعد أن وحد المغول جيوشهم وقيادتهم تحت أحد زعمائهم وهو المسمى «جينكز خان» واستطاعوا قتل الخليفة العباسي والقضاء على الخلافة العباسية (656هـ) (1258م)، وقد رد المسلمون هذا الغزو المتوحش تحت إمرة أهل العلم والعمل وعلى رأسهم السادة الصوفية، فحملوا السيف والقلم ليوافقوا الموقف وينتصروا على المغول في عين جالوت في (محرم 658هـ - 1260م) ويقتلوا «بغا» قائد الجيش المغولي، بل وينجحوا في قلب النتائج، إذ

اعتنقت بعض القبائل المغولية الإسلام، وأصبح المغول الذين ما عرفوا طوال حياتهم غير السلب والقتل والنهب يؤدون الصلوات في المسجد ويقرأون القرآن الكريم ويصومون شهر رمضان، وكان من بين هؤلاء العلماء العاملين الشيخ أحمد بن تيمية الحراني الذي حارب بسيفه وقلمه، وكان له أسلوبه في الدعوة إلى الجهاد، فحمل على بعض شباب الأمة الذين كانوا أكمل ما يكونون شباباً وصحة، ويتركون جبهة القتال وهي موقعهم الصحيح إلى أضرحة الصالحين ليستغيثوا ويتوسلوا بهم لينصروا على عدوهم، ونسي هؤلاء أن الرسول ﷺ كان يدعو ربه في المعارك حتى يسقط رداؤه عن كتفيه الشريرين، وجيش الصحابة مشتبك في قتال مع العدو.

فالتوسل الصحيح مكمل للجهاد، ولو كان التوسل يغني عن السيف لما انكسرت رباعيتا الرسول ﷺ وشج رأسه وغاصت حلقات المغفر المعدنية بوجنتيه الشريرتين، ولما قاسى في سبيل جعل كلمة الله هي العليا وهو أكرم وأفضل عند الله من الأمة جميعاً.

فما كان من الشيخ ابن تيمية إلا أن نقل التوسل من مسألة فقهية إلى مسألة أساسية في منهجه وأسلوبه، ثم ثنى بمحاربة خصومه في معظم المجالات والاتجاهات، ولكنه كان شديد التطرف في خصومته، ففي رده على الشيعة مثلاً في كتاب منهاج السنة سلب كل ما لسيدنا علي بن أبي طالب من خصائص ومزايا، واستدل في هذا بما يصح وما لا يصح، وكان للتصوف حظ منه، فكان كحاطب ليل، جمع ما وجد فخرج عن الجادة في أحيان كثيرة، ولكن حسن نيته وسلامة مقصده كانا يشفعان له، لا سيما وأنه كان يعرف فضل السادة الصوفية الأكابر ويثني عليهم بما هم أهل له، والرجل عموماً كان يحاول أن يكون موضوعياً وهو ليس معصوماً، وإذا ما نظرنا إلى جهاده العلمي وأثره عذرناه، وإن كان ينحرف بتعسف أحياناً فقد أدى مشكوراً رسالته.

وجاء من بعده تلميذه القيم ابن قيم الجوزية الذي استفاد من أخطاء شيخه،

وأيضاً فقد كان ذا اطلاع وفهم ثاقب لماح وحسن دراية بالعلم، وأهم من كل هذه فإنه كان أيضاً ذا روحانية ملأته شفاقة، درج مدارج السالكين، وخبر طرق الواصلين فكان بحق التلميذ الذي فاق معلمه .

واستمر الأمر لعدة قرون أخرى خبت خلالها شعلة البحث والعلم في المشرق الإسلامي، وإن حافظت على نورها في المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن الحادي عشر الهجري، إذ بدأت العقلية الإسلامية عمومًا في التراجع، وذهب العلم والبحث ليحل محلها الجهل والغفلة، وانتشر الفساد في المجتمعات الإسلامية عمومًا، ولم يستمر هذا التخلف، إذ ما أتى القرن الثاني عشر الهجري حتى عادت الصحوة، وقام العديد من العلماء في مختلف أرجاء العالم الإسلامي ليوقظوا المسلمين من سباتهم، ويبصروهم بأمر دينهم ودنياهم .

وكان من بين هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي المضري الذي عاش في نجد، ورأى ما آل إليه حال المسلمين في تلك المنطقة، إذ كان أهل نجد ينقسمون إلى قسمين رئيسيين، حضر وبدو، فالحضر يشتغلون بالتجارة، والبدو من الرحل الذين يُكثرون التقاتل والشجار في طلب المراعي لشدة ظروف البيئة وقلة المياه، مما أثر في الحضر أيضاً إذ فقدت التجارة أهميتها، لفقدان الأمن وعدم الاستقرار وانتشار الفوضى، وأصبح الغزو والسلب والنهب مصدر العيش في الصحراء - ويلاحظ أن إقليم نجد لم يكن يخضع للحكم العثماني مثل بقية المناطق العربية الأخرى - ومن ثم تقاسمت القبائل فيما بينها، حيث سادت علاقات الجفاء ونشوب الحرب لاتفه الأسباب، وكذلك فإن الناس انغمسوا في البدع والخرافات والأساطير التي تمثلت في الحج إلى القبور سنوياً، وإلى شجرة ضخمة في نجد تسمى شجرة الذيب وغار في أسفل منطقة الدرعية، وانتشر المشعوذون والدجالون والجهلة، الذين وجدوا في هذا المجتمع الذي يخيم عليه الفقر والجهل سوقاً رائجة لبضاعته، وأصبحت الأشجار والكهوف والمغاور موضع قداسة وعبادة .

ويلاحظ أن كل هذه الأمور وربما ما هو أدهى منها وأمر كان منتشرًا في معظم أرجاء العالم الإسلامي، إذ وصل الأمر إلى بناء بيت ليحج الناس إليه بدلاً من بيت الله الحرام في إحدى الدول العربية، هذا إن لم يغيب الإسلام نهائياً في بعض المناطق، وأن العلماء قاوموها بأسلوب سليم حكيم ونجحوا في ذلك، ويلاحظ بعناية أنها اختفت كلياً تقريباً بانتشار العلم والوعي بين المسلمين.

والخلاصة أن كل هذه العوامل مجتمعة حلت محل الإسلام ومبادئه، وأدت بمحمد بن عبد الوهاب إلى القيام بدعوته التي تتلخص في:

الدعوة إلى التوحيد، والعودة بالناس إلى ما كان عليه السلف ومحاربة طلب الشفاعة والتوسل بالأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم، والتماس البركة بزيارة قبور الصالحين الأموات، والتقرب إليهم بالنذور، وبناء القباب على قبورهم وإسراجها، والصلاة عندها وبنائها، والكتابة عليها، وفتح باب الاجتهاد في الدين، وأخيراً محاربة من خالف رأيه وقتاله بالسيف وجعل داره دار حرب، وعلى هذا الأساس خرج محمد بن عبد الوهاب أو أتباعه إلى غزو المسلمين في الجزيرة العربية والعراق وسوريا.

ولا شك أن بعض مبادئ الدعوة سليم من الناحية العلمية والبعض الآخر مقبول والآخر مرفوض وبشدة، هذا من الناحية النظرية، وأما من الناحية العملية وأسلوب الدعوة في التطبيق فالأمر مختلف خصوصاً بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في (1206هـ)، فإن العلماء الذين اعتنقوا الدعوة الوهابية كان الدين يعني عندهم الجمود والركود ورفض كل ما هو جديد ومفيد، وقد وصل أذى هؤلاء إلى الدولة السعودية نفسها، فقد رفض هؤلاء مظاهر الحياة الحضارية الجديدة بآلاتها ومعدات وأبتكاراتها بحجة أنها ليست من الدين، وقد بذلت حكومة الملك عبد العزيز آل سعود جهوداً كبيرة لإقناعهم حتى أمكن استعمال الآلات والمخترعات الحديثة في المملكة⁽¹⁾، وكان الدين الإسلامي يوجب على الجندي

(1) تاريخ العرب الحديث - د/ رافت الشيخ ص (259).

المسلم التسليح بالسيف والرمح وامتطاء الجمال ليحارب عدوه المتسلح بالديابات والطائرات والزوارق الحربية المجهزة .

وللاسف الشديد فإن علماء الوهابية المعاصرة ساروا بتحجر وسذاجة هينقية على نفس الأسلوب الذي سار عليه أسلافهم حتى اليوم، والذي يقوم على التمسك بالقشور دون اللب، وبالقوالب دون القالب .

فأصبح خلق اللحية فسقاً وأحياناً شركاً، وتشمير السراويل فرضاً، والتوسل والاستغاثة من أكفر الكفر، واعتقاد أن لله قدماً ويداً وجنباً وعيناً ورجلاً، ونزوله سبحانه وتعالى وصعوده إلى السماء ومجيئه من الواجبات، وما طولب مخلوق بهذا الاعتقاد أو الخوض في ما هو فوق مستوى البشر أصلاً .

وإلى آخر ما هو معلوم اليوم عند الطاعن والمقيم، وغابت الحكمة ومبادئ وأسس الإسلام الصالحة لكل زمان ومكان تحت ستار كثيف من الجمود والتحجر .

نعم، للدعوة الوهابية المعاصرة مزايا مثل: حض الناس على الالتزام بالصلوات الخمس، والترغيب في القيام بشعائر الدين والتمسك بالسنة، ونحن نحب ذلك منها، ولكنها أصبحت على يد علمائها المعاصرين كمرحلة رياض الأطفال لا تُفنع إلا من هم في سن ما دون الدراسة، وإذا ما زاد إدراك وفهم المسلم لدينه رأى سذاجة وبساطة تفكير هؤلاء المعاصرين، ولهذا لم تنتشر الوهابية إلا في الهند في مقاطعة البنجاب عام (1822) لفترة قصيرة ثم انتهت لعجزها عن الإقناع، ولفساد الأسلوب الذي تنبعه والذي يقوم على عداوة ومقاومة رأي الغير، ومحاربهه بالسيف باسم السلفية أو الشيخ أحمد بن تيمية، بدون أن يقرأوا أو حتى يطلعوا على فكر ومؤلفات ابن تيمية كما سنرى في هذا الكتاب، أو على الأقل يوضحوا ويبينوا ما هي هذه السلفية المزعومة في ضوء الكتاب والسنة، فياليتهم يعاودون النظر في هذه العيوب ويسارعون بعلاجها، وليس في هذا ما يعيب، إذ أن تصويب الأخطاء من علامات الصحة ودلالة واضحة على النجاح .

ونحن على كل حال نرى فيها رافداً مهماً وعوناً صالحاً في الدعوة إلى الله، ولكن بعض علمائها وأشباههم من المتسلفين على جهل دأبوا في الفترة الأخيرة

إمعاناً في تأكيد الانتماء المذهبي الضيق على نشر أفكارهم الفاسدة المفروضة دون الصالحة بين بسطاء المسلمين، بالأسطرة المسموعة والمرئية والكتب وإلقاء المحاضرات والدروس، فيرجع هؤلاء إلى بلادهم ليثيروا فيها الفرقة والشقاق، فصلّي الوقت الواحد مرتين في المسجد الواحد ولا زال بحجة أن الإمام غير ملتصق، أو أنه فاسق لأنه يتوسل بالميت، وثار المشاكل بين المسلمين، وغرست الإحن بحجة السلفية والسنة والبدعة وألفاظ أخرى استعملت - وبالأسف - لغير ما هي له أصلاً.

ثم وصل الجمود والتحجر والتقوقع هؤلاء إلى محاولة سلخ جسد الإسلام عن روحه، فأصبح لا شغل لهم ولا شاغل إلا إلقاء المحاضرات والدروس، وتسويد الصحف ونشر الكتب وإلقاء الخطب الطنانة الرنانة لمدة الساعات والساعات للقذح في السادة الصوفية، أو لإثبات أن الحلاج كان كافراً، أو أن ابن عربي كان مشركاً، أو أن ابن الفارض يدين بالحللول، أو أن البدوي على خطأ، أو أن الجليلاني مشكوك في أمره.

وكان المنظر غريباً وعجيباً في آن معاً، فما هذا الارتجاج العقلي الذي يدفع أصحابه لعقد الندوات باسم الدين والعلم، لشغل المسلمين بأمر لا ينفعهم من قريب أو بعيد؟ ما الذي يستفيدة المسلم من إيمان أو كفر ابن عربي وقد مضى على موته سبعمائة واثنان وسبعون عاماً؟ وما فائدة كفر أو إيمان الحلاج وقد مضى على استشهاد ألف ومائة وسبع سنين؟، ولولا حسن الظن هؤلاء السذج البلهاء لقلنا: إنها محاولة مشبوهة لشغل المسلمين عما بين أيديهم، وللفت نظرهم إلى القذى حتى لا يروا الصباري الذي تجري الاستعدادات على قدم وساق لغرسه في عيونهم.

وكان الأولى بهذه الخشب المسندة استغلال هذه الإمكانيات والجهد والمال لخدمة الإسلام والمسلمين فعلاً، لا الزج بهم في معارك وهمية لا طائل من ورائها، وهب أن كل المسلمين الأحياء وحتى الأموات في جميع أقطار المعمورة وقعوا وختموا وبصموا بأصابعهم العشرة على كفر ابن سبعين أو التلمساني، فما الفائدة من ذلك وما نفعه، وهب أنهم شهدوا جميعاً بإيمانهما فما الذي يجتنونه.

ولا يخفى أن الإسلام اليوم يواجه أشد الهجمات شراسة فالنصرانية واليهودية والملاحدة، اتفقوا على اختلافهم على الكيد للإسلام والمسلمين.

ومن المعلوم أن ثقل الإسلام وكثافته يقع في قارتي أفريقيا وآسيا، ولهذا فإنه تجري حالياً بدهاء وصمت محاولة للالتفاف حوله وتقليصه شيئاً فشيئاً تمهيداً للقضاء عليه بزعمهم، ناهيك عما يجري من محاولات لاحتواء المسلمين المهاجرين أو الوطنيين في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

ففي أفريقيا يصل عدد المتفرغين للنشاط التنصيري في القارة إلى أكثر من مائة ألف منصر، يتعاون معهم ستة ملايين مساعد، ويبلغ عدد المدارس اللاهوتية لتخريج القساوسة والمنصرين المحليين أكثر من خمسمائة مدرسة، بالإضافة إلى عدد كبير من المعاهد التعليمية يصل إلى عدة آلاف في مختلف التخصصات تابعة للكنيسة، وقد أقامت الإرساليات التنصيرية أكثر من خمسمائة مستشفى، وأبناء المسلمين الذين يشرف المنصرون على تعليمهم أكثر من خمسة ملايين طالب، وتبني منصر بلجيكي واحد عدة آلاف من الأطفال المسلمين في الصومال، وانخفضت نسبة المسلمين في «كملاوي» من 70٪ إلى 30٪ في فترة زمنية قصيرة، وترفع الكنيسة في أفريقيا شعار (اخلع عنك الإسلام نخلع عنك الفقر)، وقد حدد عام 2000 لتصبح غالبية سكان أفريقيا من المسيحيين، وخلال جولة بابا الفاتيكان التي زار فيها بعض الدول الأفريقية أدلى نهاراً جهازاً بتصريح للصحف يطلب فيه من العالم المسيحي أن يتعاون لوقف المد الإسلامي.

وفي زامبيا تلعب المؤسسات التنصيرية الدولية دوراً كبيراً في احتواء اللاجئين الأنجليين البالغ عددهم ثمانين ألفاً في لوجوالا على الحدود الزامبية التنزانية ولوساكا، ويلاحظ أن عدد اللاجئين في مختلف دول العالم بلغ 13 مليون لاجئ 70٪ منهم مسلمون.

وفي عام 1978 عقد في ولاية كلورادو مؤتمر ضم 150 من قادة التبشير النصراني وكان موضوعه (تنصير المسلمين في العالم) قدمت فيه 40 دراسة عن

أحوال المسلمين في العالم مقارنةً بالأوضاع النصرانية، ولم تعلن نتائج المؤتمر باستثناء الإعلان عن إنشاء معهد يسمى « زويمر » للتبشير بين المسلمين في العالم ورصد لهذا الشأن ألف مليون دولار .

وفي نيجيريا أكبر بلد مسلم في أفريقيا، إذ يبلغ تعداد المسلمين فيه 120 مليون نسمة، والذي يتعرض لتركيز مكثف، قامت منظمة (كريستيان أسوسييشن أوف نيجيريا) بتوحيد الهيئات والتجمعات المسيحية في إطار واحد، ولتعمل بأسلوب جديد يتلخص في نشر كتب ونسخ محرفة عن القرآن الكريم وجعلها تخدم ما يروجون له، وركزوا بالذات على الشمال النيجيري مثل برنوا، وكانو، وسكتو، وتعرف قوة هذه المنظمة إذا علمت أنها بعثت مجاناً بعدد خمسة عشر مليون نسخة من أحد هذه الكتب إلى منطقة بوتجي فقط، وتطبع هذه الكتب باللغة العربية والإنجليزية والهوسا والفولاني والكولاني، وللمنظمة إذاعة مسموعة خاصة بها، ونصف ساعة في الإذاعة المرئية الرسمية يومياً وكذلك تقوم بإنشاء الملاجئ واحتضان أبناء الفقراء وأيتام المسلمين .

وفي كمبالا عاصمة أوغندا افتتح مركز للتنصير بإشراف منظمة تنصيرية كاثوليكية تأسست في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1967م، ويقع بالقرب من المكان الذي بني عليه المسجد الكبير بالعاصمة القديمة .

ويجوب المنصرون الغابات والسهول الواسعة لبحث شركهم وضلالهم، ويصطنعون أسماء أفريقية وآسيوية كما حدث في السنغال، إذ وجدت منصرات أوروبيات المنشأ والجنسية يحملن أسماء مثل فاطمة النجاني، ومريم فال، وعائشة جغت، ويذهبن مع النساء المسلمات إلى الآبار البعيدة لجلب الماء، ويخرجن معهن للاحتطاب وينشرن بينهن المسيحية المشتركة الضالة .

وفي غويانا يتعرض المسلمون لأشد أنواع التفرقة الدينية والاضغوطات الإنسانية لفتنتهم عن دينهم، وأصدر وزير المالية في فيجي قراراً لإطلاق يد منظمة الراهبات الكاثوليكية، ومنظمة أنسبا الكاثوليكية، وهيئة لويغا

البروتستانتية، والهيئة العامة للكنيسة الأوغندية في فيجي لتحقيق برامجها التنصيرية في مسلمي فيجي.

وتنفق منظمة لوتران للإغاثة الدولية سبعة ملايين دولار سنوياً على مشاريع مشبوهة في أفريقيا، وقد أكد «توماس رونش» المدير الفرعي للمنظمة أن 87٪ من ذلك المبلغ يأتي عن طريق الكنائس في أمريكا، ينفق منها ثلاثة ملايين دولار علناً والباقي يخصص للأعمال السرية.

وقد تمت ورقة عمل في المؤتمر القومي للتجديد المسيحي في الكنيسة الكاثوليكية، ومقر أمانته الدائمة في نوتردام بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو من أخطر المؤسسات التنصيرية في العالم التي أصبحت من الكثرة والانتشار بحيث يصعب حصرها، سافرة الهوية حيناً، ومتسترة بأسماء وهمية حيناً آخر، تحت عنوان التنصير في نيجيريا، وضع فيها رغبة المؤسسات التنصيرية بالانفراد بالقارة الأفريقية وتنصيرها بالكامل.

وتقوم الكنيسة العالمية المدعومة من أوروبا الغربية وأمريكا بوضع الخطط وتنفيذها لتنصير المسلمين والوثنيين، والدخول عبر باب المجاعات وقلة الأمطار والامية والمساعدات وحركات السلام.

ناهيك عن الإذاعة المسموعة والمرئية التنصيرية، التي تكاد تغطي معظم أرجاء العالم غير المسيحي، وبالإضافة إليها فقد قرر الفاتكان بناء محطة كبيرة للبت في كافة أنحاء العالم للتبشير بتعاليم الإنجيل، الأول من نوعه بواسطة ثلاثة أقمار صناعية في مشروع متكامل أطلق عليه «اسم لوميت 2000»، لبت خطابات البابا والتبشير النصراني، وبالمقابل فإن شركة «لبات» الصهيونية تحركت ضد مشروع تقدم به عدد من الدول العربية بعد اتصالات مكثفة مع دولة سيراليون، من أجل الحصول على الموافقة لإقامة محطة إذاعية بها، بأن قدمت عرضاً مناقضاً لصالح جمعية إنجليزية بمقابل مادي مغر.

ويشهد جنوب السودان تدفقاً كبيراً من أعداد المنصرين القادمين من أنحاء

العالم مثل السويد والنرويج وألمانيا الاتحادية، وللكنيسة الكاثوليكية به عدد ست مطرانيات وستين مركزاً تنصيرياً ومائتي كنيسة، إلى جانب واحد وعشرين مركزاً للوعظ والإرشاد، وأشيع مؤخراً أن الكنيسة في الجنوب منعت إطلاق الأسماء الإسلامية على الأطفال، وتتشدّد في محارب اللغة العربية. ويرصد عموماً مبلغ عشرة بلايين دولار للتنصير الصليبي سنوياً.

ويتعرض المسلمون في سيريلانكا لحملة شرسة لفتنتهم عن دينهم، وفي قطناني التي كانت دولة مسلمة بالكامل حكماً وشعباً في القرن الحادي عشر الهجري وحتى عام 1700م، عندما احتلتها تايلاند يتعرض المسلمون لحملة إبادة في المجتمع التايلاندي البوذي، ويفرض عليهم الكتابة باللغة التايلاندية عوضاً عن اللغة الملاوية التي تكتب بالحروف العربية، وبها الآلاف من الألفاظ العربية، ويشتمون في مختلف أرجاء تايلاند لينصهروا في المجتمع البوذي الوثني، وفي أندونيسيا وضع مخطط لجعل عام 2000 عام القضاء على الإسلام فيها، وفي الفلبين قتل حوالي مائة ألف مسلم في جنوب الفلبين في عهد الرئيس السابق ماركوس أقماه الله خلال خمسة عشر عاماً، والرئيسة الجديدة كورازون أكيينو لا زالت تماطل في منح المسلمين الحكم الذاتي رغم قرارات مؤتمر القمة الإسلامي، ولا زال الوثنيون المتطرفون في الفلبين يقومون بهجمات مسلحة على المسلمين، والحكومة لا تحرك ساكناً.

وفي كمبوتشيا قامت السلطات الرسمية بإغلاق المساجد في عدة قرى، من بينها قرية أيدونجصا وأنجويات وهدمتها وحولتها إلى حظائر للخنازير، كما منعت إقامة صلاة الجمعة في باقي القرى الإسلامية، وتسعى جاهدة لإغراء الفتيات المسلمات بالزواج من البوذيين والملحدين، كما حظرت استعمال اللغة العربية وصادرت الكتب الإسلامية من المكتبات، وأيضاً أجبرت المسلمين على ترك قراهم إلى الغابات والجبال.

ناهيك عن مشاكل المسلمين في أفغانستان وفلسطين ثم لبنان حيث يقتل

المسلم المسلم، ويهمل أعداء الإسلام لكل قطرة دم تراق في غير موضعها الصحيح، ويؤججون نار المذهبية والشعارات الزائفة.

هذا خلاف محاربة الإسلام في أمريكا وأوروبا، وقد أصدر (جون هارمان) رئيس المجلس البلدي في مدينة ويست بورتشاير في بريطانيا قراراً برفض دعم المدرسة الإسلامية هناك، مخالفاً بذلك قانون التعليم البريطاني الصادر في 1944م، والذي ينص على دفع قيمة 85% من المصروفات السنوية لمدارس تعليم الديانات، وسانده في ذلك مديرو المدارس في المدينة تنفيذاً لأوامر نصرانية وقحة.

وفوق كل هذا هناك النشاط المكثف المدعوم للحركات الهدامة المدسوسة على الإسلام، إذ توجد في سيراليون وحدها 210 مدرسة قاديانية تتكلم باسم الإسلام والمسلمين، واستطاعت البهائية أن تبني لها - ولأول مرة - مركزاً في مدينة سبته العربية المحتلة بمساعدة البعثات الأجنبية الفرنسية والأسبانية والأمريكية، وبالإضافة إلى هاتين الفرقتين الكافرتين ظهرت في مدينة سويديرو في غانا بدعة جديدة تتمثل في رجل مخبول يدعى «جليل» كون جماعة أطلق عليها «جماعة بشرى المسلمة»، افتتحت لها فروعاً في منطقة أبيكا ومنطقة نيمبا، يصلون ثلاثة أوقات، وينادون في الصلاة باسم مافونهم «جليل» بدلاً من رسول الله ﷺ، ويطوفون في المساء حول منضدة موضوعة بينهم، ولهم العديد من الطقوس الضالة الممزوجة بالعبادات الإسلامية، وقد تردد أن لهذه الحركة الكافرة جذوراً في الباكستان.

وهذه الحركات الهدامة أخطر من ألف كنيسة ومنظمة إذ إنها تتكلم باسم الإسلام، وتخيل للمسلمين البسطاء أنها من الإسلام في شيء، أشبه ما تكون بالورم الخبيث يحسبه الرائي العادي شحماً فيقتله من حيث لا يشعر ولا يدري.

وبعد كل ما علمنا، وما لا نعلم أكثر، يأتي شيخ وقور يتكلم باسم الإسلام ليخوض معركة ضارية مستعملاً فيها لكافة أسلحته النقلية والعقلية، ليثبت بالدليل القاطع أن أبا يزيد البسطامي المتوفى في 210هـ، والذي مضى على وفاته

ألف ومائتا سنة كان مشركاً لتفوهه بألفاظ قد توجي بذلك، أو على أحسن الأحوال هو حلولي .

نعم، لقد كان موقف ما يسمى بالعلماء من هؤلاء الوهابيين المعاصرين تافها وفارغا وأجوفاً، أجسادهم في القرن الخامس عشر الهجري وعقولهم في القرن الخامس عشر الميلادي، وامتلات المكتبة العربية بالكتب والرسائل التي يسهرون على تسطيحها، وحشيت بالأراجيف والكذب على السادة الصوفية، ومشككة في منهجهم الذي هو منهج الصحابة والسلف الصالح .

وكانت نكسة لكل مؤمن غيور على دينة أن يشاهد الوقت والجهد والمال ينفق في ما لا فائدة فيه، في الوقت الذي تواجه فيه الأمة التحديات من الشرق والغرب، وهي أشد ما تكون اليوم حاجة إلى كل عرق ينبض وجهه ببذل ودرهم ينفق وعقل ينظم وساعد ينفذ، ولكننا لم نفقد الأمل في أن يتيقظ هؤلاء إلى الهاوية التي يدفعون بمن يرى رأيهم إليها، وأي هاوية أكبر وأعظم من بذل الرخيص والغالي في سبيل إثبات أن لله تعالى قدماً والعدو ينقل قدمه كل يوم إلى أرض جديدة، وإلقاء الخطب وتسويد الصحف لإثبات أن الذكر باسم الله بدعة، والكنيسة تطبق خطة مدروسة بعناية للقضاء على الإسلام في المناطق البعيدة لتضييق الدائرة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى النهاية التي ترجوها .

حتى كانت الفترة الأخيرة، إذ رأينا حتى من كنا نظن فيه الخير منهم ينحرف إلى الهرطقة والهراء، فرأينا أنه قد يكون من المفيد تنبيه هؤلاء إلى خطورة ما هم عليه، وإرشادهم إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين .



موضوع الكتاب

هذا الكتاب الذي بين يديك هو ردّ على كتاب للشيخ أبي بكر جابر الجزائري أسماه «إلى التصوف يا عباد الله»، فإن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ما ترك شاردة ولا واردة تقدح في التصوف إلا ذكرها فيه، وطبع في 1408هـ - 1987م بمطبعة المدني بالقاهرة شارع العباسية، ولم يقع في يدي إلا مؤخرا في سنة 1409هـ أوائل مارس 1989م.

وطريقتنا في الرد عليه، هو ذكر كلامه بدون حذف لحرف واحد منه ثم نتبعه بردنا عليه، حتى لا نتهم بأننا ندعي عليه ما لم يقل، أو نفهم ما لا يقصد، أو أن نذهب إلى غير ما يريد.

وقد رافقنا مؤلف كتاب «إلى التصوف يا عباد الله» من أول صفحة في كتابه المذكور إلى آخر الفصل الذي وضع له عنوان «مخات من الوجه المظلم للتصوف» سطرا سطرا وكلمة كلمة، أما ما بعد فلم نرد عليه، إذ لم يذكر فيه المصنف إلا بعض الماثورات عن النبي ﷺ والأذكار تحت عنوان «الإسلام نعم البديل»، ونحن نشجع كل من اهتم بها وواظب عليها.

وللشيخ أبي بكر الجزائري كتاب أسماه «منهاج المسلم» جمع ولخص فيه العديد من المسائل الفقهية التي لا غنى للمسلم عنها من صلاة وصوم وزكاة وغيرها، واستدل فيه بأقوال بعض السادة الصوفية في بعض المواقع، وهو كتاب مفيد في معظمه، وكتاب أسماه «عقيدة المؤمن»، ثم ختم بكتابه الذي بين أيدينا وهو «إلى التصوف يا عباد الله» ولا أعلم إن كان له غيرها.

وقد يسأل سائل عن سبب ردنا على هذا الكتاب بالذات دون كل الكتب والمؤلفات المشابهة له في الموضوع فنقول:

إن معظم الآخرين لم يتكلموا عن التصوف بالتفصيل كما في هذا الكتاب، بل تعرضوا له ضمن مؤلفات أو خطب أو دروس مما يجعل الرد من غير الممكن،

ناهيك عن بعضها مما خاض في الموضوع بسذاجة وبلاهة، لا نستطيع أن ننزل بانفسنا إلى مستوى مناقشتها أو الرد عليها، ومن أطرفها كتاب صغير عبارة عن محاضرة للدكتور اسمه محمد بن ربيع المدخلي بعنوان « حقيقة الصوفية في ضوء الكتاب والسنة »، تفضل الدكتور المذكور بإلقائها على طلبة دار الحديث المكية في 1401هـ، ذكر فيه أدوية يظلي الصوفية بها أجسادهم مكونة من دهن الضنار، وباطن قشر النارج، وحجر الطلق (انظر ص 38)، وأعطى فيها نبذة عن أعظم العلماء المعاصرين (انظر ص 41) .

وقد جمع وحدد مؤلف كتاب (إلى التصوف يا عباد الله) مسائل النزاع والخلاف الذي يراه هو وقبيله في التصوف، وبوبها وذكر أدلتهم على خطئها، فردنا عليه هو رد على كل من يرى رأيه، ولا أظن أن هناك ما يعيبونه على التصوف بزعمهم غير ما ذكر، فبيننا خطاه من صوابه فيما ذهب إليه، وأثبتنا - إن كان كتاب الله وحديث رسوله ﷺ هما وسيلة الإثبات - بطلان وفساد كل ما يذهبون إليه، في محاولة لجمع الشتات، وإيضاح أنه لا وجود للخلاف إلا في العقول المريضة المتخلفة التي تابى الانصياع والتسليم لحكم الله ورسوله ﷺ، بحجة التفوق المذهبي أو الطائفي وما إليهما من أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: 51) .

وقد اصطللنا في كتابنا هذا على تسمية الشيخ أبي بكر جابر الجزائري بالمصنف طلباً للاختصار .

وختاماً فإن كتابنا هذا هو محاولة متواضعة لتعديل مسار الدعوة الوهابية المعاصرة وترتيب أولياتها، مع ملاحظة أنه لا مأخذ عليها سوى اجتهادهم في تقديم المسائل الثانوية على الأصول الأساسية، وتحجرهم على ظاهر النص بتعسف، ثم دأبهم غير المستند إلى حجة نقلية أو عقلية على نبذ التصوف والصوفية، وقدح وذم التصوف وأهله .

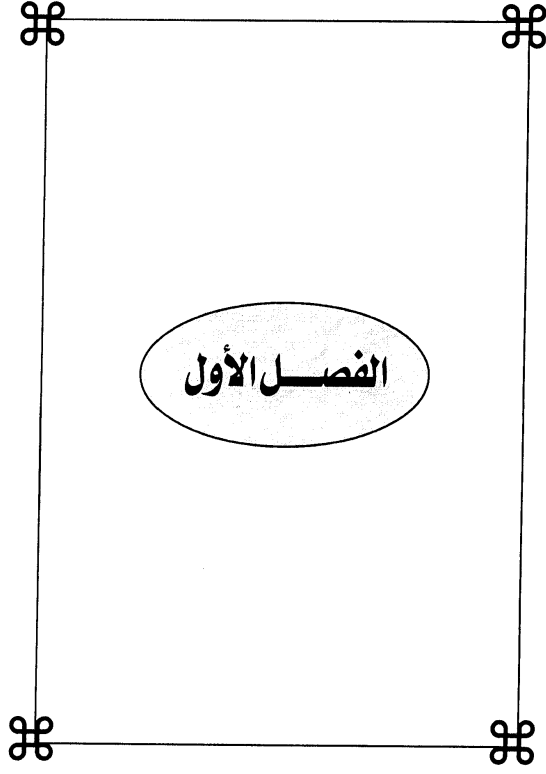
وربما كانوا لا يعلمون أنهم بهذا يحدثون من الفتنة والشقاق بين المسلمين ما لا يعلم به إلا الله، وقد حدث بمدينة « درنه » أن بعث أحد المتأثرين بهذه الدعوة إلى أحد أساطينها يسأله فيها عن الصلاة خلف إمام صوفي، فأتاه الرد بعدم الجواز، فامتنع هو وأصحابه عن صلاة الجماعة بالمسجد، مع أن هذا الصوفي يحفظ كتاب الله تعالى ومواظب على الصلاة وأعمال البر قبل أن أولد أنا، وقد سمعت بأذني نفس هذا السؤال يوجه إلى شيخ يلقي درساً في الحرم المكي المشرف، ولكن الشيخ كان حكيماً إذ أجاب بأنه ما لم يأت هذا الصوفي بما يقدر في إمامته فالحكم الجواز، بل وحدث أن نشبت معركة في أحد المساجد بنفس المدينة لم تنته إلا بتدخل الشرطة لنفس هذه الأسباب، وهذا غيظ من فيض وقليل من كثير لا يعلمه إلا الله.

ومن المعلوم أن هناك العديد من ذوي الاطلاع والعلم وحسن الفهم بين هؤلاء، ونسأل الله أن يوفقهم لخدمة دينهم وياخذ بأيديهم إلى ما فيه رضاء، ونحن نقصد بحديثنا الغالبية لا الكل والذي يعنيننا أولاً وآخرأ هو الإشارة إلى ما في هذا الأمر وغيره من إثارة للفرقة والانقسام بين المسلمين.

وأيضاً فإن كتابنا هذا هو محاولة لشرح مقام الإحسان في الإسلام وهو التصوف، وإن كنا لا ندعو أحداً لأن يكون صوفياً فالتصوف موهبة لا اكتساب، ولكننا ندعو بشدة من خلاله إلى نبذ الفرقة بين المسلمين والانقسام، وأن يحترم كل رأي غيره ليحترم رأيه.

والله الموفق،،

أحمد سالم كريم
القطعاني
دُرْنَه - الجماهيرية الليبية



الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، والصلاة والسلام على محمد نبي الإسلام وكفى به نبياً ورسولاً، ورضي الله عن آل نبينا وصحابته فاضلاً ومفضولاً.

وبعد فإنه - ويا للأسف الشديد - قد ظهرت الدعوة للتصوف من جديد، وبعد أن ظن المصلحون أنها قد مضت فلا ترجع وماتت فلم تنشر، وذلك بعد أن أظهروا زيفها وكشفوا عوارها وأزاحوا ستارها مما تخفى وراءها من جيوش الخراب والدمار، تلك الجيوش الكافرة الفاجرة التي ما فتئت تضرب في جسم أمة الإسلام حتى مزقته أشلاء وطرحته لكلاب الاستعمار أجزاء، فامتصوا دمه وأكلوا لحمه وكسروا عظمه وواروه التراب، وظنوا أن لا يبعث إلى يوم الحساب^(١).

علماء الإسلام والتصوف

ابتدأ المصنف بتأسفه الشديد على ظهور الدعوة للتصوف - على حد قوله - من جديد.

ونحن نتساءل متى وكيف علم - أرشده الله - أن التصوف قد اختفى وفقد، ومضى العاملون به المستمسكون بمنهجه المبني على تعاليم الإسلام، القائمون العابدون المستمسكون بالعروة الوثقى لا انفصام لها، الملتزمون بالقرآن الحكيم وسنة الرسول الكريم ﷺ شرعة ومنهاجا، فإن هذه الشجرة الطيبة

(١) يلاحظ أننا نميز كتاب «إلى التصوف يا عباد الله» للشيخ أبي بكر الجزائري بالخط الأسود داخل الإطار المظلل.

المباركة ما توقفت عن النمو وإتيان أكلها كل حين بإذن ربها في بستان المعرفة وحداثق اليقين .

والمصنف ليس بحاجة للتأسف والأسى على هذه الدعوة، فقد أعطى الرسول ﷺ أماناً لأهلها منذ أربعة عشر قرناً فقال: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »⁽¹⁾، فلن ينقطع أثرهم على مر الزمان أو يخلو منهم قطر أو مكان .

وأيضاً نتساءل عن المصلحين الذين رأوا أن الدعوة للتصوف مضت فلن ترجع من هم؟، فإن كانوا هم علماء الإسلام المشهود لهم بالتقدم والمزية، المتفق على عدالتهم وعلمهم، فإن ما بين أيدينا من آثارهم يثبت غير ما قال المصنف، وما كان جلهم إلا من أهل التصوف، كيف لا؟ وما هي آثارهم تشهد بصدق حالهم ومقالهم، وهل التصوف إلا صدق الحال والمقال، وهل هو إلا صلاح الظاهر والباطن، فالتصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر لنيل السعادة الأبدية، وهذا يحتم على كل مسلم أن يكون صوفياً، قال الحافظ السيوطي: (وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها فقال الغزالي: إنها فرض عين)⁽²⁾، فأصبح الحال هكذا من اللازم على كل مسلم حريص على رضوان ربه أن يطهر نفسه من مثل هذه الأمراض ليفوز بمغفرته وعفوه، قال ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »⁽³⁾.

ولو أننا رجعنا في رحلة عبر التاريخ من القرون المفضلة للمشهود لها بالخيرية وحتى يومنا هذا، وجلسنا إلى علماء الإسلام الذين ملغوا الدنيا علومها ومعرفة، وكانوا ولا يزالون القدوة الحسنة لكل مسلم غيور على دينه صادق في إيمانه، لوجدنا منهم الشيخ الصوفي الذي يعطي الطريق للمتأهلين له، يقول الشيخ

(1) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه .

(2) الأشباه والنظائر - للمحدث الجلال السيوطي ص (504).

(3) رواه مسلم .

محمد بن علاء الدين الحصفكي (1088هـ) مفتي الحنفية بدمشق العلامة المعروف صاحب كتاب «إفاضة الأنوار على أصول المنار» و «الدر المنتقى» و «شرح قطر الندى»، في كتابه الشهير الدر المختار: (إن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصراباذي، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلي وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائفي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه⁽¹⁾).

وإذا انتقلنا إلى الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، لرأينا يتحدث عن التصوف حديث من عرف التصوف، فيقول حاشا للمسلم على الابتداء بعلم الجوارح، ثم الانتقال إلى علم معالجة القلوب، ومحذراً من الاتجاه للتصوف بدون ذخيرة من الفقه وحاشا على الجمع بينهما: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق⁽²⁾)، ولعمر الحق إنها لحكمة جليلة من عالم حكيم، وكأنه يرى من مكانه في مسجد رسول الله ﷺ منذ ألف ومائتين وخمسين عاما ما سيفعله الذين ظنوا أن التصوف هو الجهل والمخرقة فأشبعوا البطون وأجاعوا العقول، وتسابقوا على الدنيا وتراخوا عن الآخرة، وانبثوا في جماعات المسلمين يظهرون طريق القوم ويبطنون البطالة والنوم، ولو أنهم أخذوا بنصيحة هذا الإمام لطلبوا العلم وعملوا به، فلعلهم ارتقوا من الإسلام إلى الإيمان ومن الإيمان إلى الإحسان، ولا يقنوا أنه لا تصوف بدون علم ولا فائدة في علم لا ينتفع به صاحبه.

قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان! ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية⁽³⁾».

(1) الدر المختار - للحصفكي ج 1 ص (43).

(2) قواعد التصوف - للشيخ أحمد زروق الفاسي ص (3).

(3) متفق عليه.

ويقول محمد بن عيسى (933هـ) شارحاً لهذه الحقيقة : (طريقتنا اتباع العلم بالعمل والاستغفار مما قبله)، أي معرفة وعلم ثم اجتهد وعمل، ثم استغفار من التقصير والجهل، فكلما ترقى الصوفي من درجة إلى التي أكمل ورأى ما كان فيه من التضييع والتقصير، يبادر إلى الاستغفار والتوبة وهكذا في رقي لا ينتهي، إذ لا نهاية ولا حد لعبادة الله سبحانه، سبحانه ما عبدناك حق عبادتك، سبحانه ما شكرناك حق شكرك، ويحدثنا إمام أهل الحديث الجلال السيوطي في كتابه «تأييد الحقيقة العلية» أن الإمام الشافعي رضي الله عنه صحب الصوفية، بل واستفاد منهم علوماً فيقول: (صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، وفي رواية ثلاث كلمات، قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة)⁽¹⁾.

فهو يصحب الصوفية ويعرف لهم فضيلهم ويتعلم منهم بل ويقتدي بطريقتهم، إذ ينقل عنه الإمام العجلوني حجة علم الحديث في كتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» قوله: (حب إلي من دنياكم ثلاث، ترك التكلف، وعشرة الناس بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف)⁽²⁾.

وهذا وإن كان ليس بحاجة للذكر وموجود باستفاضة في مصادره، إلا أنه عندما ذكر المصنف - سامحه الله - أن المصلحين ظنوا أن الدعوة للتصوف قد مضت فلا ترجع، اضطررنا لذكر المصلحين حقيقة، لا الذين هم أنفسهم بحاجة للإصلاح، المصلحين الذين لا يوجد مسلم في طول العالم وعرضه في قارات العالم الست إلا ويعرف قدرهم وفضيلهم، ولا أحسبنا مغالين إن قلنا: إن الغالبية العظمى من المسلمين تتعبد ربها على مذاهب هؤلاء الأئمة.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول لولده عبد الله: (يا ولدي

(1) تأييد الحقيقة العلية - للإمام السيوطي ص (15).

(2) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس - للعجلوني ص (341) ج 1.

عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه، فلما صحب الإمام أحمد أبا حمزة الصوفي وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة (1).

والأئمة الأربعة يعدون من الصوفية، وقد ذكّرتهم كتب الصوفية وتحدثت عنهم وعددت مناقبهم، وذكر الحافظ أبو نعيم (430هـ) الكثير عنهم في كتابه «حلية الأولياء» وقدم لكل منهم بما هو أهل له.

وفي الحقيقة إنه وإن تعددت تعريفات التصوف، فإنه ليس إلا وكما قال الأستاذ الجنيد: (استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني) (2)، وجلّ مثل هؤلاء عن ألا يدخلوا في حميد الأخلاق ويخرجوا عن رديتها، وإن آثارهم لتشهد بأنهم كانوا من أولي الصفاء والمشاهدة والعلم الكشفي اليقيني، فيقول الإمام مالك رضي الله عنه: (إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله تعالى في القلب) (3).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه متحدثاً عن الصوفية مبيناً لمكانتهم: (لا أعلم أقواماً أفضل منهم، قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة) (4).

وقال عبد القاهر البغدادي (429هـ) في كتابه «الفرق بين الفرق» عن الصوفية، بعد أن قسّم أهل السنة والجماعة إلى ثمانية أصناف، ومتحدثاً عن كل صنف منهم بما يناسبه: (منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصرُوا، واختبروا فأعتبروا، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشر، ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدوا خير الإعداد

(1) تنوير القلوب - للشيخ أمين الكردي ص (405).

(2) النصرة النبوية - للشيخ مصطفى المدني ص (122).

(3) ابن العماد في الشذرات (ج 1 ص 2)، ميزان الاعتدال للذهبي (ج 1 ص 102)، مالك لأمين الخولي ص (312).

(4) غذاء الألباب - للسفاري الحنبلي (ج 1 ص 120).

ليوم الميعاد، وجرى كلامهم في طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث، دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياءً ولا يتركونه حياءً، دينهم التوحيد ونفي التشبيه، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى، والتوكل عليه والتسليم لامره، والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم⁽¹⁾.

ولا ريب أن رأي عبد القاهر البغدادي المجمع على علمه وإحاطته بعلم ومقالات وأفكار كل الفرق الإسلامية التي وجدت حتى عصره، من سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة وقدرية ومرجئة وجهمية وغيرها يختلف كثيراً عن رأي المصلحين من علماء المصنف.

ويقول الإمام أبو القاسم القشيري (492هـ) في رسالته عن الصوفية: (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم)⁽²⁾.

ويقول حجة الإسلام الإمام الغزالي (505هـ): (ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق)⁽³⁾.

ويقول العلامة فخر الدين الرازي (606هـ) صاحب التفسير في كتابه «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»: (والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجهدون ألا يخلو سرهم وبإلهام عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع ذكر الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين)⁽⁴⁾.

(1) الفرق بين الفرق - للإمام عبد القاهر البغدادي ص (189).

(2) الرسالة القشيرية - للإمام القشيري ص (2).

(3) المنقذ من الضلال - حجة الإسلام الغزالي ص (131).

(4) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - الإمام فخر الدين الرازي ص (72).

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام (660هـ): (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى وقعد غيرهم على الرسوم)⁽¹⁾.

ويقول العلامة تاج الدين السبكي رحمه الله (808هـ) في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» تحت عنوان الصوفية، بعد أن ذكر عنهم الكثير: (والحاصل أنهم أهل الله وخاصته، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويُستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم)⁽²⁾.

ويقول المحدث جلال الدين السيوطي (911هـ) في كتابه «تأييد الحقيقة العلية»: (إن التصوف في نفسه علم شريف مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبري من النفس وعوائدها وحفظها وأغراضها ومرادها واختياراتها، والتسليم لله والرضا به وبفضائه وطلب محبته واحتقار ما سواه)⁽³⁾.

ويتحدث الشيخ أحمد الشرباصي في كتابه «يستلونك في الدين والحياة» عن التصوف فيقول: (التصوف الإسلامي القويم هو أن يبلغ المؤمن درجة الإحسان التي هي أعلى الدرجات في التوجه إلى الله عز وجل، والتي يشير إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ثم استرسل موضحاً وشارحاً للتصوف إلى أن قال: (والإسلام يتمثل في النطق بالشهادتين والعمل الظاهر، والإيمان يتمثل في اعتقاد القلب واطمئنان الفؤاد، والإحسان يتمثل في اليقين والإخلاص، وهذا الإخلاص هو لب التصوف وعماد أمره)⁽⁴⁾.

ويقول شيخ الأزهر عبد الحليم محمود: (التصوف قوة، ذلك أن نفوس الصوفية هينة عندهم في سبيل الله، يبذلونها عن رضا لإعلاء كلمة الله، فهم الذين

(1) نور التحقيق - للشيخ حامد صقر ص (96).

(2) معيد النعم ومبيد النقم - تاج الدين عبد الوهاب السبكي ص (119).

(3) تأييد الحقيقة العلية - للإمام جلال الدين السيوطي ص (57).

(4) يستلونك في الدين والحياة - للشيخ أحمد الشرباصي ص (557).

جشموا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التي لم تفتحها الجيوش الإسلامية، وقد كان لهم الفضل الأكبر في نشر الإسلام في أندونيسيا وغيرها من الأقطار النائية، وينشرونه بالقدوة الطيبة والخلق الكريم أكثر مما ينشرونه بالدعاية التي قد لا تجدي⁽¹⁾.

ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي متحدثاً عن التصوف: (التصوف رياضة، ومعنى أنه رياضة أنه يلزم الإنسان نفسه بمنهج تعبدى لله فوق ما فرضه عليه، ولكن من جنس ما فرضه، وهنا حين يعبد الإنسان ربه بفوق ما افترضه عليه يكون قد أخذ خطوة ناحية الود لله، والله سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسي «من أتاني يمشي أتيتته هرولة» ولم يقل سبحانه جئته أمشي، ولو قالها لكان المشي بالنسبة له شيئاً كبيراً، ولكنه يقول: أتيتته هرولة، فما بالك بهرولة منسوبة لله، ومن هنا يدخل الإنسان في مقام الود مع الله، ومعنى أن يوده الله أن يصافيه، وإذا صافاه فهل من المعقول أن إنساناً يكتفي بما فرضه الله عليه يتساوى في عطاءات الله بمن عبد الله فوق ما افترضه عليه؟ ليس من المعقول.

ويستمر في شرحه فيقول: والدليل على أن هذا طريق الحق، أن الذي يتأخر فيه عن صاحبه يتمسك بالمتقدم لا يغير منه، بل يحبه ويتمنى له المزيد من التقدم، ولكن في أمور الدنيا ربما يضيق الإنسان بالأفضل منه، لكن في هذه الأمور لكل إنسان مقام معلوم، والصوفي الحقيقي يسعده أن يصاحب من هو متقدم عنه لدرجة أن يصبح أحياناً كما يقولون تحت رجله، لماذا؟

لأنه فهم بمقياسه إلى نفسه أنه أخذ قبساً بسيطاً من الود، لأن رياضته محدودة بمقدار كذا، فإذا حدث أن الآخر مقامه أعلى فمعنى هذا أنني عندما يزيد جهدي في العبادة يزيد عطاء الله لي⁽²⁾.

(1) قضية التصوف المنقذ من الضلال - الإمام عبد الحليم محمود ص (261).

(2) مشوار حياتي آراء وأفكار - الشيخ محمد متولي الشعراوي ص (42-40).

وإنني في الحقيقة لو أردت أن أنقل كل ما قاله علماء الإسلام الناصحون للامة، الذين قادوا المسيرة الإسلامية طوال أربعة عشر قرناً عن التصوف وفضله لا احتجت إلى مجلدات، ولكنني أكتفي بما نقلت عن بعضهم من متقدمين ومتأخرين، وقد أجمعوا جميعهم على فضل التصوف وعلو شأنه، وقال الصادق المصدوق عليه السلام: «لا تجتمع أمتي على خطأ»^(١).

وقد ذكر المصنف - سامحه الله - أن المصلحين ظنوا أن الدعوة «للتصوف» على حد قوله قد مضت فلا ترجع، فإن كان هؤلاء المصلحون هم علماء ديننا فهذه أقوالهم تشهد بغير ما قاله، وإن كان هناك مصلحون آخرون فليس لنا بهم حاجة، فلن نترك أقوال من نعرف لمن لا نعرف، خصوصاً وأن من ذكرنا قد أجمعت الأمة على تقديمهم، بل لا نجد من يجهلهم من المسلمين إلا من كان منقطعاً في فلاة أو متوحداً في أقاصي المعمورة - إن وجد - فأصبح العلم بهم كالعلم الضروري.

وعلى كل حال نحن نعلم أن المصلحين الذين يقصدهم المصنف هم بعض الوهابيين، الذين لهم آراء في التصوف نعرفها، ولكل مطلق الحرية في أن يرى ما يشاء، خاصة وأنه وكما يقول شيخ الأزهر عبد الحليم محمود: (وتركية النفس طريق صعب المرتقى، وتركيز الانتباه في الله - وهو المقصود بالذكر - وعزم المسلك، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصاً لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس، وإذا نظرنا إلى الشروط التي يجب توافرها في السالك علمنا أن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان).

بل ويحدد الشيخ رضي الله عنه صفات أهل التصوف فيقول: (إنه - التصوف - نظام الصفوة المختارة، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حساً مرهفاً، وذكاءً حاداً، وفطرة روحانية، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من نور)^(٢).

(١) رواه الترمذي.

(٢) قضية التصوف المنقذ من الضلال - الإمام عبد الحليم محمود ص (256-257).

فنحن لا ندعو أحداً لأن يكون صوفياً أو لا يكون، فهذه أمور (بيد الله وكل ميسر لما خلق له)، ولكننا نرفض وبشدة محاولة المصنف – سامحه الله – الإيحاء بأن المصلحين من علماء الإسلام يرون رأيه في التصوف .

وعلى كل حال ياليت به بدلاً من هذا التهويل، وهذه الضوضاء عن جيوش الخراب والدمار التي مزقت جسم الأمة وطرحته للكلاب، وامتصاص الدماء وكسر العظام والمواراة في التراب، ذكر لنا أسماء هؤلاء المصلحين وأقوالهم، فإن إقامة الحجة تكون بالدليل والبرهان لا بالثرثرة وشقشقة اللسان، ولكن الأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كثرت دوائرها وقسل فعالها كالطبل يكبر وهو خال أجوف

وما أن نشر الله أمة الإسلام بعد موتها وعادت إلى الحياة بعد مفارقتها، ورآها العدو الثالث المركب من اليهود والنصارى، رآها وقد تحررت ديارها وتخلصت من نير الاستعمار الغربي بلادها وأقطارها، فلم يعد فيها سلطة لكافر ولا سلطان لكفار، ألمها تحررها وأكربها وأحزنها خلاصها واستقلالها، حتى راح يبحث عن عملائه الأقدمين وجنوده المخلصين من دعاة التصوف وأدعياء المتصوفين، فأخذ يجمع شتاتهم ويحرك طلائعهم، ويدفع بهم إلى المعركة لضرب أمة الإسلام مرة أخرى ليوهنوها ويضعفوها، ويومها يضعها مرة أخرى تحت كلكله ليمتص دميها ويأكل لحمها وعظمها، كما فعل بها في المرة الأولى والعياذ بالله .

وإذا ضلّت البصائر يوماً فسدى ما تقوله النصحاء

يتحدث المصنف عن نشر الله لأمة الإسلام بعد موتها، وجريا على عادته لم

يحدثنا عن كيفية موت الأمة ونشرها، ولكنه هكذا يسوق الأقوال غنية بالباطل خالية من الدليل والبرهان .

وأمة الإسلام والله ما ماتت ولن تموت، إذ إن موتها من علامات الساعة، فقد روى مسلم في آخر حديث طويل عن رسول الله ﷺ: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريباً طيبة فتأخذهم تحت إباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»، فلا أدري إن كان المصنف قد سمع أن كل المؤمنين والمسلمين ماتوا ليحكم بموت أمة الإسلام، وأين ذهب العلماء الصالحون العابدون، الذين وبالرغم من كل الظروف أدوا رسالتهم على أكمل وجه في الدعوة إلى الله سبحانه فجزاهم الله خير الجزاء .

ولكن بما أن المصنف قد حكم بموت أمة الإسلام، فهنيئاً له بقاؤه بعدها، ولمثل هذه النتائج تؤدي الغفلة .

نبذة عن قيام الحضارات

ثم إننا نستغرب هذه البساطة والسطحية في فهم الأمور، فإن قصة الحضارة الإنسانية ليست فصلاً واحداً أو صفحة في كتاب لا تقلب، بل دولا يدور وصفحات تتوالى، تتلفقها أمة من أمة وشعوب من شعوب، والبقاء دائماً للأقوى والأذكى الذي يتعلم من أخطاء الآخرين، وأسباب قيام الحضارات عديدة، ونحن بالطبع لا نستطيع أن نورد هنا مفصلة لأن المقام لا يحتمل، ولكننا نوجز قدر الإمكان، لعل المصنف ينظر بعمق أكثر لمثل هذه الأمور .

فنقول: إنه لكي تكون حضارة يجب أن يكون هناك علم، إذ إن الحضارات لا تقوم على الجهل، ويكفي أن نعرف أنه بعد توقف السفن الشامية في حدود عام 19هـ - 640م عن حمل البضائع من آسيا إلى أوروبا الغربية لأسباب كثيرة، نتجت عن معركة اليرموك ودخول الإسلام إلى الشام 15هـ - 636م، وكذلك استقرار الإسلام بصورة نهائية بشمال أفريقيا بعد أن أزاح القائد المسلم الحكيم «الحسن بن النعمان» مدينة قرطاجنة من الوجود ليمنع عودة الروم إليها، حيث كانت أهم

موقع لها في الشمال الإفريقي - وأيضاً فقد بدأ العرب في عام 27هـ - 648م في بناء أول أسطول بحري عربي في مصر والشام مما جعل البحر الأبيض خاصاً بسفن العرب .

والخلاصة أن كل هذا أدى إلى انقطاع ورق البردي عن أوروبا الغربية، ولا نغالي إن قلنا: إن أوروبا ابتداء من ذلك اليوم، دخلت في عصورها المظلمة، فإن انقطاع الورق يعني توقف النمو العلمي، وفعلاً لم يأت عام 55هـ - 677م وهو التاريخ الذي حملته أول وثيقة من وثائق أوروبا الغربية الحكومية، وبالتحديد 12 / 9 / 677 كتبت على قطعة من الجلد حتى عادت أوروبا للكتابة على الجلود، بما يعنيه هذا من صعوبة في إعداد الجلود والاحتفاظ بها سليمة من العفن والعتة، وصعوبة الكتابة عليها وحملها، ولنا أن نتصور كتاباً مكوناً من مائة صفحة مكتوب على مائة صحيفة من الجلد مثلاً، فأتين يوضع وكيف يحفظ ويذاكر؟ .

ونعود إلى الماضي أكثر لنجد حضارة قدماء المصريين، والآشوريين، والبابليين، والفرس في عهد الأخمينيين، والإغريق الذين حل محلهم الرومان، الذين حل محلهم المسلمون ليحتفظوا بمقدمة التاريخ لمدة مائتي سنة، بلغوا فيها أوج قوتهم وخمسائة عام قادة للفكر والعلم في العالم قاطبة، ثم حدث ما هو معروف من الاستعانة بالمرتزقة في الجيوش، وتفشي الضعف وعدم المقدرة عند بعض الخلفاء وإخلادهم للراحة واللهو، وتدخل الحاشية في شؤون الحكم، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة تحت إمرة الخليفة الإسمية، الأمر الذي أضعف الدولة العباسية .

ثم ورثت الدولة العثمانية الدولة العباسية، واستمرت ما ينيف عن أربعمائة سنة حتى طرأ عليها ما طرأ على سابقتها من عوامل الانحلال حتى سميت بالرجل المريض، وفي هذه الأثناء كانت أوروبا الغربية قد تلقت مشعل الحضارة من العرب عن طريق الأندلس وجنوب شرق أوروبا، فتقاسمت أملاك الرجل المريض .

وها نحن الآن في أواخر القرن العشرين نرى انحسار مد المستعمر وتحرر

الإسلام والمسلمين من نيره، بل ونشاهد صحتهم وسعيهم الخيـث لاحتلال المكان الجدير بهم، الذي يؤهلهم له دينهم وأصالتهم، وقد قطعوا في زمن قليل مسافات شاسعة كانت تفصلهم عن الأمم التي تقدمتهم، وفي الحقيقة هذا ليس بغريب، فهم الذين بنوا أعظم حضارة عرفت الإنسانية.

وأرجو ألا أكون قد أطلت على القارئ الكريم، ولكن البساطة التي تناول بها المصنف - أرشده الله - الأمور جعلتني مضطراً لإيراد مثل هذه الحقائق والبيدييات، فإن التحدث عن الأمم والشعوب وبعثها وانكماشها وقوتها وضعفها يكون بعد الإحاطة بدقائق التاريخ وأخباره، لا أن ننسب هذا الأمر أو ذاك لأسباب أقل ما يقال فيها إنها لا تمت للموضوع بصلة، فهذا وإيم الحق محض الافتراء أو الافتراء المحض.

ونرجع إلى المصنف في حملته التي يقودها ممتشقا لقلمه حاملاً لراية المعرفة في ساحة الاستدلال وحومة البراهين، فيتحدث - حفظه الله - عن الاستعمار الغربي وتخلص بلاد المسلمين منه، وهو يقصد هنا الاستعمار الذي تلا خروج تركيا من الميدان بعد تولي أتاتورك، وتركها لبلاد العرب طعمة سائغة للدول الاستعمارية تجثم على صدرها، وتكنم أنفاسها، وتأخذ خيراتها وتستعبد أهلها. وقد عرفنا قصده استنتاجاً من كلامه، اللهم إلا إذا كان يرى العلاقة بين الحروب الصليبية والاستعمار الحديث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وهذا ما نستبعده.



جهاد الصوفية

ولا أدري هل سمع المصنف بجهاد الصوفية ضد الاستعمار وما قاموا به من حسن بلاء، اعترف بضراوته الأعداء قبل الأصدقاء، أم لم يجده في كتب التاريخ التي بين يديه.

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً عني وما سمعوا من صالح دفنوا
وليس الجهاد بالغريب عن الصوفية، كيف وهم العارفون بأن ما قدره الله
كائن وما لم يقدر لم يكن، وهم الموقنون بأن ما عند الله خير وأبقى، ولاي شيء
يدخر الصوفية مهجهم إن لم يبذلوها عن رضا وسرور في طاعة الله سبحانه.
وبالطبع نحن لا نريد أن نسرد كل الجهاد الصوفي عبر التاريخ بما فيه من
أبطال «كشقيق البلخي»⁽¹⁾، و«حاتم الأصم»⁽²⁾ وغيرهم من أئمة الصوفية في الجهاد
وحماية الثغور وصد الغازي.

جهاد السيد أحمد البدوي رضي الله عنه

أو عن دور السيد أحمد البدوي الصوفي المعروف في الحروب الصليبية
واستحداثه لنظام، قسّم بموجبه أتباعه إلى فرق وكتائب جعل عليها المقدمين
النقباء، وكأنه تعلم في أرقى الكليات العسكرية، ويكُون بمريديه وأتباعه جيشاً
لجياً عاملاً في تلك المعارك الرهيبة، ولا يزال العرب المصريون يتوارثون القصائد
التي تمجد وتذكر جهاد السيد أحمد البدوي وأتباعه وفكاكه للأسرى.

ولا يغيب عن أذهاننا ما كان يستلزم إعداد ذلك الجيش المؤمن من ذخيرة
وأسلحة وخيل ومؤن وعدة وعتاد، حقاً إنه رضي الله عنه ليذكرنا بالأسلاف
الطاهرين وهم ينطلقون من صحراء الجزيرة ليحاربوا أعتى الجيوش وأقواها في ذلك
الحين، فينتصرون على الروم في أجنادين واليرموك، ويجبرون «هرقل» ملك الروم
على الانسحاب إلى ما وراء جبال طوروس في خريف عام 15هـ - 636م، وينتصرون

(2-1) انظر: حلية الأولياء - أبو نعيم (ج 8 ص 64).

في القادسية على جيوش يزدجرد الثالث، بل ويخضعون المدائن عاصمة إمبراطورية الفرس للسيطرة الإسلامية عام 17هـ - 638م، فهذا الشبل من ذاك الأسد.

جهاد الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

أم عن دور الصوفي الجليل أبي الحسن الشاذلي، الذي نراه في مدينة المنصورة في 642هـ، وقد تجاوز الستين من عمره وكف بصره مساهماً في المعركة قدر استطاعته، لقد كانت المعركة شغله بالنهار والليل، فبالنهار يمر بسمته الوقور وهيئته الإيمانية والنور يشرق من ثنايا وجهه الكريم المبارك بين الجنود مبشراً بالنصر أو الاستشهاد، وفي الليل يدعو الله للمسلمين بالنصر، وفي ليلة من تلك الليالي رأى رسول الله ﷺ يبشره بنصر المسلمين، فبشر الشيخ بدوره المسلمين، وكان ما قاله الصادق المصدوق ﷺ.

ولن نخوض كثيراً في تاريخ الصوفية وجهادهم، بل سنتحدث عن الفترة التي يقصدها المصنف عقب خروج تركيا من المنطقة العربية.

فأقول: إنه كانت للدول الغربية أطماع في أملاك الرجل المريض لأسباب قديمة يطول شرحها، وكانت فرنسا مثلاً تتحين الفرصة لابتلاع أجزاء من المغرب العربي، فاستطاعت أن تصل لاتفاق تضمن بموجبه سكوت إيطاليا وبريطانيا وسائر الدول الأوروبية عنها، وأخذت تبحث عن ذريعة أو سبب.

وكان السبب حادثة غريبة من نوعها، فقد صفع داي الجزائر - لاشلت يده - قنصل فرنسا بمنشة الذباب، فقالت فرنسا: إن حاكم الجزائر أهان كرامة فرنسا بإهانته قنصلها، فهاجمت غيلة الجزائر وسلبت الأرض وسرقت الجهد، وكانت قد وضعت مخططاتها مسبقاً لإفساد العقول والدين واللغة، وسخرت كافة الإمكانيات لجعل الجزائر جزءاً من فرنسا، ووزعت أراضي المواطنين أصحاب البلاد الأصليين على المستعمرين الأجانب. وهكذا قدر لهذا المستعمر أن يستمر ما يقارب مائة وثلاثين عاماً.

وقد يتساءل القارئ الكريم عن سبب صفع القنصل الفرنسي، ويظنه تجبراً

وتكبيراً من الداي المسلم ليس له ما يسره، أو أن القنصل المسكين دخل ليلقي
بتحية الصباح على الداي فصغعه هذا بدون سبب .

ولكن الحقيقة أن فرنسا وقد أنهكتها ثورتها التي تفجرت بعد هدم الباستيل
(1789 / 7 / 14)، ثم أوهتها حروب المغامر «نابليون بونابرت» اضطرت لاستدانة
قمح الجزائر لإطعام شعبيها الجائع، وذلك بعد أن أعطت العهود والمواثيق لسداد
الدَّيْن في أجل حددته، ولكن طال الأمر على الدَّيْن وماطلت فرنسا عدة سنين،
وحاولت التخلص من الدفع والتهرب بكل وسيلة .

فهل كان على الداي المسئول عن شعبه، والمناطق به توفير الغذاء الكافي في
ذلك الوقت لأفراد رعيته أن يتغاضى عن حقوق شعبه أو أن يتصدق بما لا يملك
على من لا يستحق؟، بالطبع لا، فإن ما حدث والحال هكذا هو قضية سرقة لا أكثر
ولا أقل، فإن فرنسا تريد أن تطعم أبناءها من عرق الآخرين وكانت تلك الصفعة
هي الجزء، وهكذا دخلت فرنسا الجزائر لتبقى مائة وثلاثين عاماً، جندت خلالها
كل قواها العسكرية، وحشدت جميع إمكاناتها العلمية والمادية لتحطيم الجزائر
وفرانستها، والجزائر تقاوم وتدافع حتى كانت النهاية المحتومة، وخرجت فرنسا لتعود
الجزائر إلى نفسها ودينها وعروبيتها وتاريخها أشد إيماناً وأعظم نشاطاً .

ولكم كنا نود أن لا نتعرض لكيفية دخول الدول الغربية إلى الوطن العربي
بالتفصيل طلباً للاختصار، ولكن كلام المصنف عن جيوش الصوفية الكافرة التي
رمت بجسم الأمة إلى كلاب الاستعمار والكفار جعلنا نأتي بهذا المثل مضطرين،
لتوضيح الأمور حتى لا يآثم بالظن السيئ بالمسلمين، فقد قال رسول الله ﷺ :
«الظن أكذب الحديث»^(١) .

ولكي نوفر على القارئ الكريم عناء الدخول في سرديب التاريخ ودهاليزه،
لأن هذا سيخرجنا عن الموضوع الذي نحن بصدد نقول : إن دخول هذه الدول
الاستعمارية كان مبيتاً منذ عشرات السنين، وكانت تتحين الفرصة لتخرج تركيا

(١) متفق عليه.

وتحل محلها ولكنها لأسباب عدة - بحثت عن مبررات وأسباب، فإن وجدتها استغلتها واستعمرت كما في الجزائر، وإن لم تجدها استعمرت على كل حال كما في دخول واستعمار إيطاليا لليبيا عام 1911م.

ولكن سامح الله المصنف بغفل عن أن باطل الحديث يؤول إلى سخافة القول، وإن الشنآن يوقعه في هفوات كان في غنى عنها.

جهاد الأمير عبد القادر الجزائري

ولا يُذكر تاريخ الجهاد في الجزائر إلا ويُذكر الصوفي الشهير صاحب المواقف، أوجد وقته الأمير عبد القادر الجزائري.

وكان رضي الله عنه أمة في رجل، فهو محدث، صوفي، مجاهد، فقيه، متواضع في عظمتة، كريم حتى في محنته.

ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

ولو أردنا أن نذكر جهاد هذا الصوفي الكبير بالتفصيل، ونتبعه في غدواته وروحاته ضد الفرنسيين المحتلين، ونرافقه في كرهه وفره برفقة إخوانه من المجاهدين رحمهم الله جميعا، لكننا بحاجة إلى كتاب مستقل، ولكننا سنختصر قدر الإمكان ونكتفي فقط بإحصائية ذكرها الكونت «سفري» في مؤلفه عن الأمير عبد القادر يقول: إن الأمير عبد القادر قهر مائة وخمسين قائدا كبيرا، وعشرة مشيرين «مارشال» وخمسة أمراء من العائلة المالكة، وستة عشر ممن تولوا وزارة الحربية، وجيوشا لا يقل عددها عن مائتي ألف مقاتل.

وهدر من وراء ذلك ملايين ومليارات من الفرنكات زعزعت الاقتصاد الفرنسي، وعجزت الدولة بعده عن التوازن المالي لأمد طويل⁽¹⁾.

زه زه أيها الأمير، هاهم أعداؤك يعترفون بصدق جهادك وقوة كفاحك، بمثلك فليفتخر المفتخرون ويتحدث المتحدثون.

(1) الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية، وسلطان الأرياض الجزائرية - تاليف الكونت سفري ص (33)، وكتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ص (14).

وهذا في الحقيقة مختصر جدا للجهاد استمر قرابة سبعة عشر عاما، ولكننا نريد أن نُعرف المصنف بالتصوف وأهله.

جهاد الشيخ المقراني والشيخ حداد

ويقول الدكتور رافت الشيخ في كتابه « تاريخ العرب الحديث »: (إن زعماء الطرق الصوفية قد ظلوا غير معترفين بالاحتلال الفرنسي، ومن ثم دارت معارك عنيفة بين القوات الفرنسية والمحاربين الجزائريين في بلاد القبائل، انتهت بإخضاع هذه البلاد عام 1857م).

ويفيض الحديث عن شيخ الطريقة الرحمانية محمد المقراني ومساعدته الشيخ حداد وكيف قادا ثورة عام 1871م في شرق الجزائر⁽¹⁾.

وفي نفس المصدر السابق: (إن الثورة في تونس ضد الاحتلال الفرنسي تزعمها رجال الدين وأصحاب الطرق الصوفية، الذين اعتبروا الثورة ضد الفرنسيين جهادا إسلاميا واتخذت الثورة من مدينة القيروان ذات التاريخ الإسلامي المعتيد مركزا لها)⁽²⁾.

ولو تركنا الجزائر وأبطالها، وتونس وفرسانها وفي طليعتهم الصوفية، وانتقلنا إلى شقيقتيها ليبيا لوجدنا العجب العجيب.

وماذا عسى بالوصف يبلغ مقولي ولو مدت الأقلام من مدد البحر

جهاد شيخ المجاهدين عمر المختار

صوفي آخر جاوز السبعين من عمره، أسمر اللون أبيض اللحية كثيفها، صلب العود كأنه نجاد يمانى أو رمح قيسي، مرتديا عباءة من الصوف، ممتطيا صهوة جواده، حاملا سلاحه لا يغفل عنه ساعة، شرى نفسه وماله لله ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ

(2-1) راجع كتاب تاريخ العرب الحديث، د/ رافت الشيخ ص (406-409).

وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ (التوبة: ١١١).

وإذا ذكرت الحرب ورجالاتها، والوعى وحوماتها فحيهلا بالفاتك المهندس
الباقر الأطلس أسد الصحراء عمر المختار.

وليعذرني القارئ الكريم إن أطنبت في ذكر هذا الصوفي العظيم، رمز الجهاد
في العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه.

ولد عمر المختار عام 1275هـ - 1858م، وتعلم العلوم الدينية التي كانت
تدرس في عصره، وتولى في العقد الأخير من القرن التاسع عشر زاوية القصور
-منطقة بركة- ثم تركها بعد سنتين وذهب إلى السودان عام 1312هـ للمشاركة في
الجهاد، بعد أن نشبت الحرب بين القوات الفرنسية والقبائل المسلمة في وادي،
وبعد عشرين شهرا من القتال هزمت القوات الفرنسية.

ثم أقام في منطقة تسمى «كلك» شيخا لزاويتها، وقضى هناك ما يقرب من
سبع سنين أخرى ينشر التصوف ويعلم المريدين من أبناء القبائل في تلك المناطق
أحكام دينهم، ويفض النزاعات التي تنشب بينهم بما عرف عنه من رصانة وجد
وقوة في الحق ومثابرة واجتهاد، أشبه ما يكون بعمر بن الخطاب ولا غرو فكلاهما
مسلمان فهما الإسلام ببساطته وسماحته وألزما به نفسيهما ومن أحاط بهما،
وكلاهما عاش في الصحراء يركب الخيل ويمتطي الإبل ويأكل التمر والبلح، ألفا
شظف العيش وخشونة الحياة، وكلاهما عاش مجاهدا في سبيل الله زاهدا في الدنيا
مقبلا على الآخرة، عالما بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه.

وفي عام 1329هـ - 1911م احتل الإيطاليون الغزاة الشواطئ الليبية بعد مقاومة
عنيفة استشهد فيها المئات، وبعد أن مهدوا لذلك بإرسال الجماعات التبشيرية
وفتح المدارس في بنغازي وطرابلس، وافتتاح فرع لبنك «دي روما»، إلى جانب دور
القنصلية الإيطالية في كل من طرابلس وبنغازي في التجسس على أهل البلاد
ومراكز الدفاع ووسائله، إلى جانب وجود سياسيين إيطاليين خططوا لهذا الأمر

وأعدوا له العدة في كراسي الحكم، مثل رئيس الوزراء « كراسي » و « جوليتي » الذي تولى بعده .

فكان هذا الصوفي الجليل وقد بلغ من الكبر عتياً في طلبية الناهضين للجهاد، كيف لا وهو الصوفي الصادق الوائق، ألم يقل رسول الله ﷺ : « لعدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها »⁽¹⁾ ألم يشهد رسول الله ﷺ لهذا الشيخ الجليل وأمثاله بالأفضلية عندما سئل أى الناس أفضل ؟ فقال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله »⁽²⁾ .

ومن أولى بالجهاد من الصوفية، أليسوا هم العلماء العاملين، وهذا الشيخ الجليل في مقدمتهم، ولهذا لم يحل عام 1340هـ - 1922م إلا وهو القائد العام والرئيس الأعلى للمجاهدين في ليبيا، يقول القائد العام الإيطالي الجنرال « رود ولفوغراسياني » في بيان له عن المعارك التي نشبت بين جنوده والسيد عمر المختار : إنها كانت 263 معركة خلال ثلاثة وعشرين شهراً، هذا عدا ما خاضه السيد عمر المختار من المعارك خلال عشرين سنة قبلها ضد الإيطاليين ويقول : (إن عمر المختار يختلف عن الآخرين فهو شيخ متدين بدون شك، قاس وشديد ومتعصب للدين ورحيم عند المقدرة، ذنبه الوحيد أنه يكرهنا كثيراً، وفي بعض الأوقات يسلط علينا لسانه ويعاملنا بغلظة مثل الجبيلين، كان دائماً مضاداً لنا ولسياستنا في كل الأحوال، لا يلين أبداً ولا يهادن إلا إذا كان الموضوع في صالح الوطن العربي الليبي، ولم يخن مبادئه فهو دائماً موضع الاحترام رغم التصرفات التي تحدث منه في غير صالحنا)⁽³⁾ .

ويقول عنه : (كان حريصاً على عقيدته، يواجه كل من يتعرض لها بسوء، يكره الدخلاء ويحارب كل من يتعدى على وطنه، ولا يقبل أي تدخل من أي

(1) متفق عليه .

(2) رواه البخاري، ومسلم .

(3) كتاب برقة الهادئة - الجنرال رود ولفوغراسياني ص (370) .

أجنبي في قضية وطنه العربي وبالأخص ليبيا^(١)، ثم يصفه بوصف أدق فيقول: (عمر المختار يتمتع بذكاء حاضر وحاد، وكان مثقفاً ثقافة علمية ودينية له طبع حاد ومندفع، ويتمتع بنزاهة خارقة لم يحسب للمادة أي حساب، متصلب ومتعصب لدينه، وأخيراً كان فقيراً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا)^(٢).

وما كان الصوفية بالذين تغرهم الدنيا وبهرجها، فهم الذين إن وجدوا آثروا وإن فقدوا شكروا، إنهم بقية السلف الصالح رضي الله عنهم من الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب ٢٣) ولكن.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم وعندما يؤسر السيد عمر المختار ويؤتى به إلى غراسياني في مقر حكومته يصفه قائلاً: (وعندما حضر أمام مدخل مكتبي تهياً لي أن أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التحقت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية، يده مكبلتان بالسلاسل رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة، وكان وجهه مضغوطاً لأنه كان مغطياً رأسه بالجرّد^(٣)، يجر نفسه بصعوبة نظراً لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمالي يخيل لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال، له منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر)^(٤).

قال شوقي يرثي عمر المختار:

وأتى الأسير يجر ثقل حديده أسد يجر حية رقطاء
عضت بساقيه القيود فلم ينؤ ومشت بهيكلة السنون فناء
سبعون لو ركبت مناكب شاهق لترجلت هضباته إغياء

(١) المصدر السابق ص (268).

(٢) المصدر السابق ص (272).

(٣) الجرّد: لباس معتاد من الصوف.

(٤) كتاب برقة الهادئة - الجنرال رود ولفو غراسياني ص (279).

وكان المجاهدون يطلبون منه البقاء في المواقع الخلفية ويدعهم يخوضون المعارك شفقة عليه، فكان يرد في قوة: أتريدونني أحرّم الشهادة، وبالفعل حقق الله تعالى مراده في 16 / 9 / 1931 عند الساعة التاسعة صباحاً، بعد أن اصطف عدد هائل من السجناء والمعتقلين، وأحاط بهم الجنود من كل جانب في قرية سلوق، وأتى السيد عمر المختار إلى الساحة لينفذ فيه حكم الإعدام شنقاً، فيتقدم بسنيه التي جاوزت السبعين وشيخته الجلييلة إلى حبل المشنقة، فتنقل هذه الروح الطاهرة الزكية إلى بارئها وتحظى بقربه.

دفعوا إلى الجلالد أغلب ماجد ياسوا الجراح ويطلق الأسراء

ويشاطر الأقران ذخر سلاحه ويصف حول خوانه الأعداء

جهاد أبي بكر البوال السعيد

صوفي آخر حارب المستعمر الإيطالي وشارك بسيفه وقلمه في العديد من المعارك، بل وكان مدرباً للقوات العربية المسلحة التي كانت تقاوم المستعمر الإيطالي وتكبدته الخسائر، وتمنع تقدمه من المناطق الساحلية الضيقة التي احتلها إلى داخل البلاد، وكان قد شارك في الجيش الليبي بقيادة «أنور باشا» قبل أن تخرج تركيا نهائياً من الساحة، وترك الليبيون يواجهون مصيرهم لوحدهم ويشير إليه «أنور باشا» في مذكراته فيقول: (وقام بتدريب المتطوعين بعض المتخصصين أمثال أبي بكر البوال من عيت بوسعيد القطعان) (1).

ولا يخفى أن أصناف الأسلحة في ذلك الوقت لم تكن بالسهولة التي هي عليها الآن، كما لا يخفى ما بها من عيوب تجعلها لا يقدم على استعمالها، بل وتعليم الغير وتدريبهم عليها إلا المختصون بالجهاد العارفون بعدته وسلاحه، وكان بعد الحرب الليبية الإيطالية لا يركب إلا الحمار تواضعاً لله وتذلاً، إذ لم يكن يركب فرسه إلا في الجهاد، وكان حافظاً لكتاب الله الكريم، يأمر بالمعروف وينهى

(1) مذكرات أنور باشا ص (78).

عن المنكر، يجول بين ربوع البادية مرشداً الناس إلى فضائل الأعمال، دالاً لهم على مكارم الأخلاق، وله العديد من القصائد في الوعظ والإرشاد تُروى عنه وتُنقل، ولولا أنها باللهجة العامية لنقلت منها ما يدل على فضل هذا الرجل وعلمه، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى في أحد نجوع البادية، رحمه الله وجعل الجنة قراره ومأواه(*) .

وقبل أن نترك موضوع جهاد الصوفية نشير إلى نوع من أنواع الجهاد، كان في السابق له أكبر الأثر في حفظ حدود بلاد المسلمين من الغازي والمعتدي، وهو الرباط .

الرباط

وتعريف الرباط هو : الوقفة التي يقفها أبناء الأمة على الحدود يخيفون معسكرات الشرك ويحمون حدود البلاد، والرباط من أصعب وأشق المهمات التي يقوم بها المجاهدون على حدود العدو، وعادة أهل الرباط هم فئة من الناس قليلة تقيم في هذا الرباط بعيداً عن المدن واللهو والضجيج ويعيشون حياة الزهد والورع، وهذا لا شك يحتاج إلى جهد وصبر وجلد وقوة، ولهذا كان جل المرابطين من الصوفية، ولهذا السبب صارت لفظة مرابط علماً على الصوفية وأولياء الله عامة في المغرب العربي، يقول المؤرخ علي مصطفى المصراطي متحدثاً عن الصوفية وإقامتهم في الرباطات : (يؤكد - يعنى الرباط - نوعاً من المواجهة والمصارعة ولونا من ألوان الفروسية والجهاد المقدس، يصور ويؤكد هذا كثرة المزارات والأضرحة للأولياء والمتصوفة على شط البحر على الساحل، هي في الواقع أماكن للرباطات وثكنات للمجاهدين .

والرباط موطن الجهاد، وكانت عيون هؤلاء الزهاد المتعبدين عيوناً فاحصة، وأيديهم على الزناد تجابه الغزاة والقراصنة ولصوص البحر من أوروبا، وما وجود مثل

(*) توفي المجاهد أبو بكر البوال في 2/8/1950، 19 شوال 1369 هـ، ودفن بمقبرة السيد مفتاح بريذع بمنطقة سراويل شرقي طبرق.

هذه المزارات على شط طرابلس مثل: الشعاب، وعبد الجليل، والهدار، والمصري، والأندلسي وأيضاً أبو شعيفة بقصر أحمد بمصراته، وفي ناحية زواغة وعند زواره من المنطقة الغربية وغيرها، ما هي إلا رباطات إسلامية للدفاع عن البلاد وحماية الثغور الإسلامية من اعتداء القراصنة والوافدين من أوروبا⁽¹⁾.

ثم يقول في صفحة أخرى من نفس الكتاب: (هذا يدل على أن الصوفية وأصحاب هذه المزارات لم يكونوا غالباً من دعاة الهروب والسلبية، بل هم يحملون السلاح ويجهدون في سبيل الله والوطن، وفي مقبرة الشعاب كثير من مزارات المجاهدين الذين كان لهم موقف بطولي لصد غزو البحر ومجاهدة النفس أيضاً، لقد كان نضالهم عملياً ولم يكن تجرداً روحياً⁽²⁾).

وفي الحقيقة أن السائر على طول الساحل بالمغرب العربي يلاحظ الكثير من هذه الرباطات المتناثرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، أضرحة أولئك الصوفية الذين استشهدوا دفاعاً عن البلاد الإسلامية أثناء الحروب الصليبية في المغرب الغربي عبر العصور .

وبعد : فقد تجلّى تجلي الشمس في رائعة الضحى دور الصوفية الأماجد في الدفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين ومقاومة جيوش الاستعمار الغربي المشترك .

وباليت المصنف بدلاً من هذا الحديث المرة بعد المرة عن أكل اللحم والعظم وعملاء الاستعمار من دعاة التصوف ... إلخ أتى لنا بأدلة تثبت حجته، فإننا نصرح بل نصرخ بأعلى صوت إن مثل هذه الكلمات لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكن بالمصيبة العقل إذا تأمر عليه الجامدون .

(1) كتاب مؤرخون من ليبيا - الأستاذ على مصطفى المصراطي ص (84-92).
(2) المصدر السابق.

ومن هنا وقد رأينا بأم أعيننا تجرؤ أدعياء التصوف الزائف من دعاة
المتصوفة المرتقة نحو أمة الإسلام ليزيدوا في محنتها.

عودة للادعاءات الباطلة

يالهنا من غفلة أبت أن تزول، إن من يقرأ هذا الكلام يظن أن المصنف كما
قال الشاعر:

قد سلك البلاد ثم عاد ليخبر القوم بما استفاد

وهو في الحقيقة لا استفاد ولا أفاد، اللهم إلا بكلام منمق عن الصوفية الذين
امتصوا الدم وأكلوا اللحم وكسروا العظم... إلخ ولا ندري من أين أتى بهذا،
اللهم إلا إن كان يتحدث عن صوفية ببلاد الواق أو على كوكب المريخ، ثم
يخلص إلى هذه النتيجة الغريبة وهي أننا قد رأينا بأم أعيننا، وما الذي أراه لنا
حتى يصل بنا إلى هذه النتيجة، هل ظن - أرشده الله - أن إقامة الدليل تكون بمثل
هذه الأساليب الساذجة.

روى المسعودي أن رجلاً ادعى أنه إبراهيم الخليل، فقال المأمون: ما سمعت
بأجرأ على الله من هذا وأمر أحد الحاضرين باستجوابه فقال:
يا هذا! إن إبراهيم عليه السلام كانت له براهين.

قال: وما براهينه؟

قال: أضرمت له النار وألقي فيها فكانت عليه برداً وسلاماً، فنحن نضرم لك
ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك برداً وسلاماً كما كانت عليه آمناً بك
وصدقناك.

قال: هات ما هو ألين من هذا.

قال: فبراهين موسى عليه السلام.

قال: وما هي؟

قال : ألقى العصا فإذا هي حية تسعى تلقف ما يأفكون، وضرب بها البحر فانفلق، وبياض يده من غير سوء .

قال : هذا أصعب، ولكن هات ما هو ألين من هذا .

قال : فبراهين عيسى عليه السلام .

قال : وما براهينه؟

قال : إحياء الموتى... فقطع الكلام في براهين عيسى وقال : جئت بالطامة الكبرى دعني من براهين هذا .

قال : فلا بد من براهين .

قال : ما معي من هذا شيء، وقد قلت لجبريل إنكم توجهونني إلى شياطين فأعطوني حجة أذهب وإلا لم أذهب، فغضب جبريل عليه السلام وقال : جئت بالشر من ساعة، اذهب أولا فانظر ما يقول لك القوم .

فضحك المأمون وقال : هذا من الأنبياء التي تصلح للمنادمة^(١) .

والخلاصة أن الأدلة والبراهين هي المعول عليها لا الادعاءات الباطلة، وإلا اختلط الحابل بالنابل والمحسن بالمسيئ، ولأدى هذا لأن يكون عندنا ألف نبي بعد سيدنا محمد ﷺ، وألف كتاب بعد القرآن الكريم، وعلي هذا جبلت الفطر السوية والعقول السليمة .

ولكل شخص أن يعتقد ما يشاء ويكتب ما يريد، إلا في الدين فإننا لا نقبل فيه قول أحد كائنا من كان إلا رسول الله ﷺ، فهو الأمين المأمون على وحي السماء، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، والله لو قال لنا: إن الشمس تشرق من المغرب لرمينا بكل حقائق الجغرافيا والفلك عرض الحائط وصدقناه، ولو قال: إن حجرا صلبا سيلد إنسانا لسارعنا إلى إعداد شاة العقيقة، مطوحين بقوانين الممكن والمستحيل في أول بحر نجدها، فكيف وهو لم يخاطبنا إلا بما نفهم، بل ويأمرنا أن

(١) مروج الذهب للمسعودي (ج 2 ص 345).

نخاطب الناس على قدر عقولهم، كيف وشريعته مؤيدة بالأدلة والبراهين العقلية والنقلية، تحترم أولي الألباب وتحضهم على التفكير في ملكوت الله ليعرفوا رب الملكوت، والتدبر في عجائب صنعته وفي أنفسهم ليعرفوا قدرته على صنع ما يشاء.

أقول: إننا لا نسمح باتهام المسلمين بالباطل، وقد فهم بأشنع وأقبح الصفات، ونعتهم بالجوش الكافرة الغادرة المرتزقة، فإن هذا الكلام يوجب البينة، أو إقامة الحد الشرعي.

وتوسيع هوة الشقاق والخلاف بينهم..

الصحابة والتصوف

منذ أول يوم للدعوة الإسلامية وجد التصوف وإن لم يكن مذكورا بالاسم، فإنه كان موجودا بحكم الحال والواقع المعاش والتطبيق اليومي للإسلام، فقد دأب الرسول الكريم ﷺ على تربية أصحابه رضي الله عنهم ظاهراً وباطناً، وليس هذا إلا التصوف لا أكثر ولا أقل، قال الشيخ أحمد زروق: (التصوف علم قصد به إصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى⁽¹⁾)، وقد قضى الرسول ﷺ طوال سني ما قبل الهجرة في إصلاح قلوب صحابته وإفرادها لله تعالى، فلا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا الله وحده، ولا يسوق الخير ويدفع البلاء إلا رب السماء، ولم ينتقل إلى تنظيم حياة المسلمين فيما بينهم وطرق معاملاتهم ومعاشهم إلا بعد أن أخرج من قلوبهم كل وصف دني وحلاها بكل وصف سني، وإلى هذا أشار المؤرخ ابن خلدون في مقدمته عند كلامه عن التصوف فقال: (وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية

(1) قواعد التصوف - أحمد زروق قاعدة من (13).

وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية (1).

وإلى هذه الحقيقة نفسها يشير العلامة محمد أبو زهرة إذ يقول: (ولا أود أن أتعرض لنشأة التصوف في الإسلام وقبل الإسلام، ولكنني لا أستطيع أن أقول إن عمر بن الخطاب لم يكن متصوفاً وهو الذي قال فيه محمد بن عبد الله ﷺ: «لو كان في هذه الأمة محدثون لكان عمر بن الخطاب»، أو الذي كان يعتقد فيه الرسول ﷺ أنه أقرب أصحابه إلى الله، حتى إنه عندما ذهب إلى العمرة وجه إليه القول وقال له: «لا تنسنا من دعائك يا أخي»، ولا أستطيع أن أقول إن أبا بكر الصديق الذي كان يركب الصعب من الأمور ضابطاً نفسه، والذي أثر عنه أنه قال كلاماً ما نسب إلى النبي ﷺ واختلفت الرواية في قائله: «رجعنا من الجهاد الأصغر وهو القتال، إلى الجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس»، وأبو بكر هو الذي يقول: فر من الشرف يتبعك الشرف (2).

وإذا فهمنا الأمر هكذا أن التصوف قدوته المثلى وأُسوته الحسنة هو رسول الله ﷺ، وأنه قد سار عليه كبار الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين المخلصين إلى يومنا هذا، فهمنا أنه لا وجود لهوة الشقاق التي وسعها الصوفية إلا في عظيم علم المصنف، إن سُمي الوهم علماً، ولو أننا سلمنا له قوله لقادنا إلى أن كبار الصحابة والتابعين كانوا يوسعون هوة الشقاق بين المسلمين، حاشاهم من ذلك حاشاهم، وإلى مثل هذه النتائج يقودنا علم المصنف.

(1) مقدمة ابن خلدون ص (328).

(2) مجلة لواء الإسلام - العدد العاشر - السنة التاسعة ص (645-647)، انظر كتاب حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى ص (614-617).

ثم لماذا لم يأت لنا المصنف على ما يقول من مصادر التاريخ الموثوق بها، وإنما لنقنع منه حتى بالإشارة العابرة والعبارة الموجزة ولكنه لا يسأم - هده الله - من ذكر الكلمات الطنانة الرنانة دسمة الظاهر خاوية الباطن، فالذهب يتبين بالمحك ومحك العلم الدليل.

وحيث إنه أبى إلا ذكر الشقاق والخلاف بين أمة الإسلام، فإننا نسأله في أي زمن وعلى يد من من الصوفية كان هذا، وهل سمع المسلمون عن صوفي كفر مسلماً كما يفعل «بعضهم» واستحل دمه وماله وجعل داره دار حرب، ولولا أننا لا نريد الخروج عما نحن بصدده لتحدثنا عن الكثير من هذه الأمور مما يعلم المصنف أننا لا نجهله.

فهذا يؤلف كتاباً ويكتب رسالة

اعتراض عجيب

لله در المصنف، ما الذي يدعوه إلى ما لا يعقل ولا يصح، فمن المعروف أنه منذ اكتشاف الحروف والإنسان يكتب على الحجر وفي بطون المغارات وعلى صفائح الجلود واكتاف الحيوانات وجريد النخل وقطع الخشب، ولأسباب كثيرة يعرفها أرباب التاريخ تصدر علماء الإسلام لأكثر من ألف سنة طائفة الكتاب في المعمورة، وخلفوا من الكتب في كل الفنون ما لم يخلفه غيرهم من الأمم، بل وامتازوا بعلوم استحدثوها لا زالت البشرية تدين لهم بفضل السبق فيها، وكما قلنا سابقاً: إن حضارة الأمم لا تقوم إلا على العلم، والعلم إن فقد القرطاس أعطى محله للجهل.

فهل أذنب الصوفية أن ألف بعضهم كتاباً أو وضع رسالة، ولا أحسب إلا أننا لو أسقطنا ما كتبه كل من انتسب للتصوف في شتى العلوم، وعلى رأسها العلوم

الإسلامية طوال عصور الإسلام السابقة، لفقدنا أهم وأنفس الكتب من مكتبتنا الإسلامية، فإن كان اعتراض المصنف على تأليف الكتب والرسائل فإننا لوجهة هذا الاعتراض نرفض الرد، ولا نخاف لبذره زرعاً، ولا لغرسه طلعا.

وإن كان على ما يكتب بهذه المؤلفات، فياليت ذكر لنا ما الذي وجدته في كتبهم حتى نلتمس له العذر، وحتى نزيد الأمر وضوحاً نجدنا مضطرين لتوضيح ما نعني.

كتب التصوف

الصف الأول:

العلم الكسبي هو القنطرة التي يعبر عليها السالك إلى مرفأ الأمان، إذ لا يتنور الباطن أو يعمر الظاهر إلا بتعلم العقائد والعبادات والمعاملات وغيرها، وإنه وإن كان للسادة الصوفية منهجهم في تلقي العلم الوهبي اليقيني، إلا أنهم أعطوا العلم الكسبي أهمية كبيرة، إذ أن علاقة العلمين هي علاقة تكامل تام، وإن شئت قلت: إن العلم الوهبي هو شدة الفهم وجودة المعرفة وحسن الدراية، ومن ثم التطبيق العملي للعلم الكسبي، ولهذا فإن كتب السادة الصوفية في عموم العلوم الإسلامية هي الموجودة بين أيدي المسلمين، من تفسير وحديث، وسنن، ولغة، وفقه، وأصول، وجرح وتعديل، ومغاز وسير، وما شابهها مما هو معروف ومتداول عند أهل العلم.

ولا نعني أنهم جميعهم يقرأون كل هذه الكتب، ولكن كل حسب درجة علمه وحفظه واهتمامه، وليس الأمر على كل حال بكثرة العلم بل بالعمل والتقول، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: 282). والتقوى هي المائز الذي امتاز به الصوفية، وحاصل التقوى اجتناب وامتثال، فعملوا بالإسلام، ولم يتركوا منه شيئاً يقدرّون عليه إلا عملوا به، بعد أن كفوا عن جميع ما نهوا عنه، قال ﷺ: «فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»⁽¹⁾.

(1) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد، وابن حبان، وابن ماجه.

ويشير الأستاذ صبري عابدين في حديثه في ندوة لواء الإسلام إلى هذه الحقيقة فيقول: (أكبر المصائب التي أصابت المسلمين أنهم لم يأخذوا بالإسلام كله، أما الصوفية فقد ألزمو أنفسهم أن يأخذوا بالإسلام كله، بل زادوا عليه أنهم ألزمو أنفسهم ألا يأخذوا بالرخص بل بالعزائم، مع أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه، لماذا؟ لأن مذهبهم يقوم على الزهد بالمعنى الذي يفهمه العلم، وأزيد على ذلك أن أساس الزهد جاء عن النبي ﷺ، فقد كان الرسول ﷺ زاهداً في الحياة ولذا نذرها، عاش الرسول ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى ولم يأكل رغيفاً مرققاً ولا أكل على خوان⁽¹⁾).

الصف الثاني،

وهم بالإضافة إلى الكتب التي ذكرنا، لهم كتب يختصون بها، وهذا في الواقع شيء طبيعي، فلكل فن كتب يختص بها أهله، فنجد لأرباب التاريخ كتبهم الخاصة بهم الحاوية لعلومهم المتحدثة عن العصور السابقة وحضارات الأمم وتاريخ البشر، ولأهل الطب كتبهم المتحدثة عن الأمراض وتشخيصها وعلاجها ووظائف الأعضاء والتشريح، ولأصحاب اللغة كتبهم الشارحة لطلاسم اللغة الموضحة لما استغلق منها المليئة بالشواهد وأقوال كبار شيوخها.

وهذا في الواقع شيء معروف ومألوف ولا يحتاج إلى إيضاح وكذلك للصوفية كتبهم المتحدثة عن فنهم الشارحة لعلومهم الناطقة بكلامهم، وهي عديدة ومتنوعة نذكر منها ما اشتهر مثل كتاب «الرعاية» للحرث المحاسبي 243هـ، و«الرسالة القشيرية» للقشيري 376هـ، و«اللمع» للسراج الطوسي 378هـ، و«التعرف لمذهب أهل التصوف» للمحدث الحافظ الكلاباذي 380هـ، و«الحلية» للحافظ أبي نعيم الأصبهاني 430هـ، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكي 386هـ، وكان الشيخ الشاذلي رضي الله عنه يقول: (كتاب الإحياء يورثك

(1) مجلة لواء الإسلام - العدد العاشر - السنة التاسعة، انظر حقائق عن التصوف ص (61).

العلم، وكتاب القوت يورثك النور⁽¹⁾، و«المواقف والمحاطبات» لمحمد النفري 345هـ، وكتب الإمام الغزالي 505هـ مثل «الإحياء» و«منهاج العابدين» و«كيمياء السعادة» و«مشكاة الأنوار»، وكتاب «عوارف المعارف» للسهروردي 632هـ، وكتب الشيخ عبد القادر الجيلاني 561هـ «الغنية» و«الفتح الرباني» و«فتوح الغيب» و«الفيوضات الربانية» وكتب الحكيم الترمذي 433هـ، وكتب ابن عطاء الله السكندري 709هـ مثل «متن الحكم» و«تاج العروس» و«لطائف المنن» و«التنوير»، وكتب أحمد زروق 899هـ «النصيحة الكافية» و«قواعد التصوف» و«عدة المرید الصادق» و«شرح الحكم العطائية» و«المباحث الأصلية» للسرقسطي⁽²⁾، و«روض الرياحين» لليافعي 768هـ، وهذه الكتب وإن كانت تختص بدراسة أحوال ومعارف القوم إلا أنه من النادر ألا نجد من لم يطلع على بعضها، وأحياناً كلها من المشتغلين بالعلوم الإسلامية.

النصف الثالث:

المتفرقات الماثورة عن كبار الأساتذة كسفيان الثوري 161هـ والفضيل بن عياض 187هـ، ومعروف الكرخي 200هـ، وأبي سليمان الداراني 215هـ، وبشر الحافي 227هـ، وذو النون المصري 245هـ، وسري السقطي 353هـ، وأبي يزيد البسطامي 261هـ، والجنيد 297هـ، والشاذلي 656هـ، وأبي العباس المرسى 686هـ، والجزولي 870هـ، وأبي مدين شعيب 594هـ وغيرهم، ولا توجد في مصدر واحد بل متفرقة في بطون الكتب الإسلامية وحتى ما يوجد منها الآن مجموعاً لم يجمع أصحابها بل جمع بعدهم، فيوجد مثلاً في الرباط جزء يشتمل على مجموع من كلام الجنيد – لم يصل إلى علمنا أنه طبع بعد – وهناك العديد من مثل هذه المجموع لبعض كبار السادة الصوفية.

ولبعضهم مؤلفات أشار إليها ابن النديم في الفهرست ولكنها لم تصل إلينا،

(1) لطائف المنن - ابن عطاء الله السكندري ص (62).

(2) الغالب أن الشيخ ابن البنا السرقسطي توفى في النصف الأول من القرن التاسع بمدينة هاس.

فقد فقدت فيما فقد من مؤلفات نتيجة النكبات المختلفة على أمة الإسلام ولا سيما غزو التتار لبغداد، وإن كنا لم نقطع الأمل في العثور عليها.

الصف الرابع:

دواوين الشعر الصوفي كديوان الحاتمي، وديوان ابن الفارض، وديوان عبد الرحيم البرعي، وديوان عبد الغني النابلسي، وقصائد البوصيري، وديوان اليافعي وغيرها، وما تركه السادة الصوفية من مقطوعات شعرية ومنظومات.

وإذا ما ذكرنا الشعر الصوفي وشعراء الصوفية فلا بد من الإشارة إلى ذلك الصنف من الشعر، الذي كان للصوفية القيام والاختصاص به بعد الصحابة رضوان الله عليهم ونعني به فن المدائح النبوية.

المدائح النبوية

وهي شعر ينبع عن إيمان صادق ومحبة عميقة لرسول الله ﷺ، نعم إن محبته ﷺ تتمثل في اتباع سنته، ولكن أرايت من أحب رسول الله ﷺ فاتبع سنته وملكت هذه المحبة عليه شغاف قلبه فنطق لسانه بما في فؤاده، وأمر المحبة أمر غريب وعجيب لا يخضع لمنطق أو قياس، والحب سر غريب أودعه الله قلوب خلقه لحكمة يعلمها، فلولا ما سهرت أم على طفل لها مريض، ولا سقطت دمعة لغياب رفيق، ولا انفطر الفؤاد أسي لفقد عزيز.

وقد كان للسلف الصالح من الصحابة الكرام اليد الطولى في محبته ﷺ ومدحه خلقاً وخلقاً بما يليق بجنابه الكريم.

فيصف أحدهم رسول الله ﷺ وقد رآه في حلة حمراء فيقول: (ما رأيت شيئاً قط أحسن منه) (1)، ويصفه أمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وصفا جامعاً يختمه بقوله: (يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ) (2) ويصف هند

(1) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي.

(2) رواه الترمذي.

ابن أبي هالة الرسول ﷺ فيقول: (كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً يتألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر)⁽¹⁾.

وتغمر مشاعر الحب الصادق للرسول الكريم ﷺ قلب الصحابي جابر بن سمرة فيقول: (رأيت رسول الله ﷺ في ليلة أضحيان - مقمرة - وعليه حلة حمراء فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر)⁽²⁾، وأوعد الرسول ﷺ كعب بن زهير فيأتي هذا متلثماً حتى يكون بين يدي الرسول ﷺ فيقول له: رجل يبائعك فيمد النبي ﷺ يده فيمد كعب يده فيبايعه ويسفر عن وجهه، وينشده قصيدته « بانت سعاد » مادحاً بها الرسول ﷺ حتى يبلغ قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيف الله مسلول

أنبتت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

في فتية من قريش قال قائلهم بطن مكة لما أسلموا زولوا

فأشار الرسول ﷺ لمن معه أن اسمعوا، ويكسوه بردة له ويحتفظ كعب بهذه البردة ثم يشتريها معاوية بن أبي سفيان من أبنائه بعد موته⁽³⁾.

وهناك في حضرموت تصنع امرأة اسمها تهناة بنت كليب كسوة، وتدعو ابنها واسمه هو الآخر كليب وتقول له: انطلق بهذه الكسوة إلى رسول الله ﷺ، فيأتي رسول الله ﷺ فيدعو له الرسول ﷺ، فيقول كليب مادحاً هذا النبي الكريم بما رآه من أخلاق النبوة.

أنت النبي الذي كنا نخبره وبشرتنا به الأحبار والرسل
من دين موهوب يهوى في عذافره أكيد يا خير من يحفى وينتعل⁽⁴⁾

(1) رواه الترمذي، والطبراني، والبيهقي.

(2) رواه الترمذي.

(3) الاستيعاب لابن عبد البر ص (283)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (ج 1 ص 279).

(4) الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني (ج 1 ص 289) ترجمة (7452).

وتمدح أنس بن زعيم رسول الله ﷺ فينطق بأصدق بيت شعر قالته العرب :

فما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد⁽¹⁾

ويمر الصحابي جناب الكلابي على النبي ﷺ ويسمعه يقول لحسان بن ثابت : إن جبريل على يميني وميكائيل على يساري والملائكة قد أظلت عسكري فخذ في بعض هناتك، فيطرق الرجل شيئاً ثم يقول :

يا ركن معتمد وعصمة لائذ وملاذ منتجع وجار مجاور
يا من تخيره الإله خلقه فحباه بالخلق الزكي الطاهر
أنت النبي وخير عصية آدم يا من يجود كفيض بحر زاخر
ميكال معك وجبريل كلاهما مدد لنصرك من عزيز قاهر
فيدعو الرسول ﷺ لحسان ويقول خيراً⁽²⁾.

وتصف أم المؤمنين السيدة عائشة رسول الله ﷺ فتقول : كان والله كما قال فيه شاعره حسان بن ثابت :

متى يبذ في الداجي البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أوقد يكون كأحمد نظام خلق أو نكال الملحد⁽³⁾
ويسير السادة الصوفية من بعد هؤلاء الصحابة الكرام على نفس النهج، فغرقت قلوبهم في بحر محبته ﷺ وعرفوا ما قدر الله لهم من فضله ومكارم أخلاقه وجميل شيمه فيقول شاعرهم :

والله ما حملت أنثى ولا وضعت كمثل أحمد من قاصي ولا داني
مهذب شرف الله الوجود به وخصه بدلالات وبرهان

(1) المصدر السابق.

(2) الاستيعاب لابن عبد البر القرطبي المالكي (ج 1 ص 264).

(3) الاستيعاب لابن عبد البر القرطبي المالكي (ج 1 ص 234).

ويستغرب آخر عدم مسارعة المشركين للإيمان برسالته ﷺ وقد آمنت به
حتى الحيوانات العجماء وأنواع الجمادات فيقول :

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألفته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه وقلـلـوه ووده الغرباء
ويقول آخر :

محمد خير منزل بساحته كهف الأرامل والأيتام والغربا
أغر أرسله الرحمن مرحمة للخلق بالحق يهدي العجم والعربا
نور الوجود تمام الوجد إن نزلت به الوفود يسوح ضيق رحبا

ونحن نخرج عن الموضوع إن أردنا التوسع، ونكتفي بهذه الإشارة التي وإن
كانت موجزة إلا أنها أعطت فكرة عن فن المدائح النبوية ودور الصوفية في المحافظة
عليه والاهتمام به .

الصف الخامس:

ثم هناك كتب أكثر خصوصية من السابقة، وهي كتب التراجم والطبقات
التي اختصت بذكر السادة الصوفية والتعريف بهم وجمع أقوالهم، « كالطبقات
الكبرى » للشعراني، و « طبقات الصوفية » للسلمي، و « لطائف المنن » لابن عطاء
الله السكندري، وتدخل كتب المناقب ضمن هذه المجموعة، وهي التي تحدثت
بتخصص أكثر عن صوفي بعينه « كسفينة الغزال » المتحدث عن الشيخ محمد بن
عيسى، و « مواهب الرحيم » المتحدث عن الشيخ عبد السلام الأسمر وماشابيهما،
وهي متوفرة ومعروفة عند المتخصصين حتى من غير الصوفية كعلماء التاريخ
والسير والأدب .

الصف السادس:

وهو صنف اهتم به المتأخرون من علماء السادة الصوفية، ويكاد يكون
مقصورا عليهم بعكس الأصناف السابقة، وهو علم الأسانيد وتحقيقها وضبطها .

وسبب ضيق دائرة المهتمين بهذا الصنف واقتصاره على الخاصة من علماء التصوف المتأخرين، أنه قلما تجد عند غيرهم دافعاً أياً كان لمعرفة السبب في انقطاع السند بين عبد الرحمن المدني وأبي بكر الشبلي عن طريق عبد الله التازي مثلاً، وهل ما نظمته الأمير في هذا الموضوع يؤخذ به أم يرد .

وسبب اهتمامهم به أنه لما دخل فيما بين السادة الصوفية مدعون ينتسبون للطريق لفظاً وينقطعون معنى، الذين ما عرفوا من التصوف إلا اسمه، ولا حملوا منه إلا رسمه، لا همة لهم في تخل ولا تخل، ولا رغبة لهم في حق ولا حقيقة، بل لا يهتدون إلى ذلك سبيلاً ولا يطلبون عليه دليلاً، وحسبهم تقليد اللاحق منهم للسابق فيما هم عليه من ذميم الحال والطرائق، ونسبوا ما هم عليه من حال قبيح إلى أهل الطريق وأرباب التحقيق، واجههم مشايخ الطريق بانقطاع أسانيدهم وجبهوهم بحقائق الأدلة وأثبتوا لهم أن ما هم عليه لا يتصل ولا يرجع إلى أصل ولا يوجد في طريق القوم عليه بينة، وأن لكل غاية وسيلة ولكل مقصود طريق ولا وسيلة ولا طريق إلا وسيلة المعرفة وطريق العمل، ولا يتأتى مثل هذا الدليل إلا لمن عرف علم الطريق دراية ورواية .

وتفهم أهمية هذا العلم إذا عرفت أن أهم شرط في التصوف أن يؤخذ عن شيخ عارف تربى على يد غيره، ولا يخفى أن الفنون كلها لا بد فيها من واسطة، فمن رزق الواسطة رزق الفن .

وفي عرف أهل الطريق أنه من لا شيخ له لا يعاب به ولا يلتفت إليه ولو حفظ العلو ونبيغ في المعقول والمنقول، إذ التصوف لا يؤخذ إلا من صدور الرجال، فأصبح والحال هكذا لاتصال السند أهميته، قال الطيبي صاحب حاشية الكشف: « لا ينبغي للعالم ولو تبهر في العلم حتى صار أوجد أهل زمانه أن يقنع بما علمه، وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم، حتى يكون ممن يحدتهم الحق في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ويخلص من الأدناس، وأن يجتنب ماشاب علمه من كدورات الهوى وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء، حتى

يستعد لفيضان العلوم الددنية على قلبه، والاقتباس من مشكاة أنوار النبوة، ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس وتطهيرها من النجاسات المعنوية وحكمة معاملاتها علماً وذوقاً ليخرجه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء ودسائسها الخفية، فقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخاً له⁽¹⁾.

وقبل أن نختم حديثنا عن كتب الصوفية هناك ملاحظة لابد منها وهي :
الدس على كتب العلم بصفة عامة وأثره التخريبي .

الدس على كتب الإسلام

معنى الدس هو إضافة ألفاظ أو جمل، وأحياناً تغيير الكتاب بالكامل عدا اسمه واسم مؤلفه، أو اختلاق كتاب باسم ما، أو نسبته لمؤلف آخر، وبالطبع لم تكن الأمور في السابق مثل ما هي عليه الآن، فلم تكن هناك مطابع أو رقابة على المطبوعات أو توثيقها، بل كان الكاتب يؤلف الكتاب ثم يفعل أحد أمور ثلاثة :
(1) إما أن يحتفظ به لمطالعته الخاصة .

(2) وإما أن ينسخ عن النسخة الأصلية صديق أو قريب للكاتب لنفسه ويعطيها لغيره فينسخ ومن ثم ينتشر .

(3) أو أن يحمل الكتاب إلى المطبعة في ذلك الوقت، وهي عبارة عن مكان معروف في الأسواق يقعد به الوراقون والنساخون فينسخون من الكتاب عادة نسخاً لتبائع، وهكذا .

ونلاحظ أنه في كل هذه المراحل ينسخ الكتاب باليد، وإذا أخذنا كمثال كتاباً ضخماً كالفتوحات المكية، به المئات من الصفحات وجعلنا نسبة التصحيف والإقلاب والتحريف به واحداً في المائة، فلنا أن نتصور كيف يكون حاله بعد خمسمائة سنة مثلاً، ونحن هنا نتحدث عن الأخطاء غير المقصودة وإلا فلا رقيب

(1) تنوير القلوب - أمين الكردي ص (44). انظر حقائق التصوف للشيخ عبد القادر عيسى ص (58).

على الناس إلا الله، خاصة إذا علمنا أن الكتاب يؤلف في الأندلس وينسخ بعد ثلاثمائة سنة في مصر مثلاً.

ناهيك عما كان يفعله بعض الحذاق، كأن يكتب أحدهم كتاباً وليضمن له الزواج بدلاً من أن ينسبه لنفسه يضع عليه اسم مؤلف معروف، أو ما يدسه بعض جهال الخصوم والحاسدين لتشويه صورة الخصم والنيل منه.

وحتى الآن وفي وقتنا هذا أذكر أنه وقع في يدي كتاب يتحدث عن كيفية استخراج الكنوز وتسخير الجن بمواثيق سليمان وعهوده منسوب للحافظ السيوطي، وما رآه السيوطي ولا سمع به، ولكنه الدس والتزوير بحسن نية أحياناً ويسوء نية غالباً.

وقد دست على كتب الإسلام طوال الفترة التي تكلمنا عنها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، إن هي إلا بهتان وضلال مسين، ولولا أن تفتن لها العلماء المخلصون لاعتقد العوام صحتها وصدقوا فريتها.

في التفسير:

فنسبوا لسيدنا إبراهيم الخليل أبي الأنبياء الكذب، بل وذكروا أنه أمر زوجته السيدة سارة بالكذب⁽¹⁾ وحاشاهما من ذلك، وحفيده يعقوب عليهما السلام يذبح شاه ويمر به فقير صائم فيستطعمه فيأبى فيبتليه الله بأمر يوسف⁽²⁾، وسيدنا يوسف لم ينج من هذه الأباطيل إذ همَّ بامرأة العزيز همَّ فُحشٍ وسوء⁽³⁾، أما نبي الله داود الذي جعله الله خليفة مؤتمناً لا يؤتمن على زوجة بعض جنوده فيرسله إلى جبهة القتال، ويكيد له ليقتل ثم يتزوج زوجته التي سبق أن رآها تغتسل على سطح فينجب منها سيدنا سليمان.

ولفقت في ذلك قصص لا تليق بمقام الفضلاء من عوام المسلمين فما بالك بالأنبياء الأطهار خاصة الله من خلقه ذوي الأخلاق الكريمة والشمائل الجسيمة.

(1). 2. 3 ذكر هذا في العديد من المصادر والتفسيرات، انظره في قصص الأنبياء - أبو إسحاق الثعالبي ص (67، 100، 113).

في الحديث الشريف:

فبعد سند طويل عن أبي هريرة قال: يا رسول الله مما ربنا؟ قال: «من ماء مرور لا من أرض ولا سماء، خلق خيلاً فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق»⁽¹⁾، ويرفع أبو أمامة حديثاً فيقول: «إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالعربية، وإذا رضي أنزل الوحي بالفارسية»⁽²⁾، والمئات غيرها مما افتراه الدساسون على لسان رسول الله ﷺ لمآرب شيطانية، أو رغبة في الجاه والدنيا أو تزلفاً إلى الحكام.

وقد تفتن العلماء منذ صدر الإسلام الأول إلى هذه الأكاذيب فصنفوا كتب الصحاح، والجرح والتعديل، فما غادروا صغيرة ولا كبيرة إلا تكلموا عنها، فظهر الصحيح من الموضوع، والحسن من المقطوع فجزاهم الله عن دينه خير الجزاء.

في التاريخ الإسلامي:

وإذا ذكرت التاريخ فحدث ولا حرج، فإنه وإن كان علماء الإسلام قد سارعوا إلى تنقية التاريخ الإسلامي مما دس بين سطوره من شوائب لتحل محلها الصحيح في صفائح النفايات، إلا أنه ما زال هناك الكثير لينجز في هذا المجال، والأهم من ذلك أنه لا زال هناك خلل في فهمنا واستفاداتنا من دروس وعبر التاريخ، بسبب ما دس فيه من أكاذيب تظهرنا في لباس غير لباسنا وجلد غير جلدنا.

فالمسلمون أهل أكبر حضارة عرفت الإنسانية قاطبة، وحتى الحقبة التي يراها البعض فترة ركود وخمول وتخلف، هي في الواقع لا شيء إذا قيسست بعمر الشعوب، وها هم الآن يسابقون الريح لبأخذوا محلهم في المقدمة، وهي مكانهم الطبيعي الذي لا يزاحمهم عليه أحد، فهم خير أمة أخرجت للناس.

وهذا الذي يجب أن نفهمه ونعمل لأجله ونلقنه لمن بعدنا.

في التصوف:

وكان لكتب التصوف النصيب الأوفر من الدس والتزوير، وإن كان قد بلغ

(1). (2) اللآلئ المصنوعة - الإمام السيوطي ص (3، 11).

ذروته على الشعراني قدس عليه حيا وميتا الشيء الكثير، خصوصا في «الطبقات الكبرى»، ناهيك عما دس في كتب الحاقى، وابن سبعين وغيرهما، وما افترى على الخلاج، والششتري، والصدر القونوي، والتلمساني من ترهات وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، فنسب لبعض السادة الصوفية وهم من هم علما وعملا القول بالحلول، أو الاتحاد، وباليات أن الأمر توقف عند ذلك بل تجاوز جهال خصومهم وذوي المآرب المشبوهة الحد بنسبة المنكرات والمخالفات لهم.

ثم جاءت الطامة التي ما بعدها طامة من قبل هؤلاء المبشرين والمستشرقين، الذين أرادوا أن يسلخوا روح الإسلام عن جسده من أمثال «فلهوزن» و«جولد زيهر» الألمانين و«نيكلسون» الإنجليزي و«ما سينون» الفرنسي، وقد كان أوائل أئمة هؤلاء المستشرقين من جمعية أصحاب النور، وجمعية وردة الصليب المتفرعة من جمعية البنائين الأحرار، وهم فروع الماسونية التي تحاول جهدها أن تفسد القيم الإسلامية منذ الحروب الصليبية وحتى الآن.

ف نجد مثلا صوفيا كالخلاج يثير اهتمام ماسينون، ويؤلف عنه كتابا يصبح هو المرجع الموثوق عنه، والغريب أن تصدق أقوالهم وينخدع بآرائهم ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: 186)، فإن كانوا حريصين على الإسلام فلماذا لم يسلموا؟ وإن كانوا غير حريصين فلماذا نصدق أقوالهم ونهتّم بآرائهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 149).

ثم إنهم لا ينزل عليهم وحي من السماء، بل يستقون معلوماتهم من المصادر العربية، وهي بين أيدينا وبلغتنا التي نتكلم بها، فلماذا نترك مصادرنا لمصادرهم وآراء علمائنا لآرائهم؟ والله لن نحصد من الشوك إلا الحصرم، ولن نجد عند نافخ الكير إلا الأذى، نعم نقرأ مؤلفاتهم وبحوثهم ولكن قراءة النيقد الحاذق الذي يميز الخبيث من الطيب والدواء من الداء.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني متحدثا عما دسه عليه خصومه في كتبه:

(ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليّ صبري على الحسدة والأعداء، لما دسوا في كنيي كلاماً يخالف الشريعة، وصاروا يستفتون عليّ زوراً وبهتاناً ومكاتبتهم في لباب السلطان ونحو ذلك)⁽¹⁾، فالدس كان منذ زمن قد امتنهنه بعض من لا يخاف الله تعالى، وصدقه البعض بسوء نية أو بسذاجة قديماً وحديثاً.

ويوضح الشعراني كيفية الدس كما عانى منها شخصياً فيقول: (ثم إنني لما صنفت كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود، وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر، تسارع الناس لكتابه فكتبوا منه نحو أربعين نسخة، غار من ذلك الحسدة، فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي واستعاروا منه نسخته، وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين، وحكايات وسخریات عن جمحا وابن الراوندي، وسبكوا في غضون الكتاب في مواضع كثيرة حتى كأنهم المؤلف، ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها إلى سوق الكتبيين في يوم السوق، وهو مجمع طلبة العلم فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها فاشتراها من لا يخشى الله تعالى، ثم دار بها على علماء الأزهر ممن كان كتب على الكتاب ولم يكتب، فأوقع ذلك فتنة كبيرة)⁽²⁾.

وغير هؤلاء وبدلوا في كتب الإمام الغزالي، ككتاب «مشكاة الأنوار» وعرضوها على السلطان سنجر بقصد القضاء عليه ونجاء الله تعالى⁽³⁾.

وقد بلغ الدس منتهاه على الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي والشيخ عبد الكريم الجيلي بنسبة القول بالحلل والاتحاد لهما.

والغريب أن نجد بعضاً ممن في قلوبهم مرض يتركون الأقوال الصحيحة قطعية الصدور الثابتة عن هؤلاء، ويهرعون إلى التقاط الدسائس والأكاذيب، مما يدل على فساد نيتهم وفساد طويتهم، فمما ثبت عن الشيخ عبد الكريم الجيلي قوله: (واعلم أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة)⁽⁴⁾، ولكن البعض يأبى إلا

(1) لطائف المنن - عبد الوهاب الشعراني ج 2 ص (43).

(2) المصدر السابق - عبد الوهاب الشعراني ج 1 ص (127).

(3) رسائل حجة الإسلام الغزالي - د/ نور الدين آل علي ص (31).

(4) الإنسان الكامل - الشيخ عبد الكريم الجيلي ج 1 ص (127).

أن يبحث عما دسه الدساسون وافتراه المفترون فيجعله حقا ويعمد إلى الحق فيطمسه، مما يشكك فما يدعو إليه، ويقول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي: (واعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء، أو يحل هو في شيء، أو يتحد في شيء)⁽¹⁾.

ويقول: (لا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب، وحاشا لعارف من هذا القول حاشاه، إنما أنا العبد الذليل في المسير والمقيل)⁽²⁾.

ويقول: (القديم لا يكون قط محلا للحوادث ولا يكون حالا في الحدث)⁽³⁾، ويقول: (من قال بالحللول فهو معلول، فإن القول بالحللول مرض لا يزول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الفساد، كما أن القائل بالحللول من أهل الجهل والفضول)⁽⁴⁾.

ولو نقلنا كل ما جاء عن الشيخ الأكبر في هذا الباب لخرجنا عن الإيجاز الذي نحاول جهدا الالتزام به، ولكن وكما قلنا: يأبى البعض إلا ترك الصحيح واعتماد الأكاذيب والأباطيل.

ولعمري كيف يتصور عاقل أن يحل الواجب القديم في الجائز المحدث، فإن هذا يستلزم حدوث القديم أو جواز الواجب، والغريب أن يتصور إنسان حلوله تقدس وتنزه في مخلوق حيوانا كان أم جمادا، ويغفل عن أن هذا يؤدي إلى احتمال حلوله سبحانه في امرأة تنكح وتحبل وتلد، غفرانك ربنا وعفوك، تنزهت وتعاليت عن أن تحل في الحوادث الفانية أو تحل بك.

وذاك يفتح زاوية ويوزع مناشير.

دور الزاوية في النهضة العلمية الإسلامية

بعد أن أبدى المصنف اعتراضه «الوجيه» على تأليف الكتب انتقل إلى

(1)، 2، 3، 4) انظر اليواقيت والجواهر - الشيخ عبد الوهاب الشعراني ج 1 ص (80).

الاعتراض على بناء الزوايا رياض الذكر ومواقع الجهاد، الأمر الذى يضطرنا أن نقف قليلا لنشرح وظيفة الزاوية ودورها ليعرف كل من لا يعرف ويعلم كل من لا يعلم.

أنشئ أول رباط - زاوية - صوفي في المشرق في عبادان، أنشأه عبد الواحد ابن زيد في حوالي سنة 150هـ، أما في المغرب وبالشمال الأفريقي عموما فكان أول رباط فى عام 180هـ تقريبا بالمنستير، وتلاه رباط سوسة بتونس 206هـ، ثم انتشرت الربط خلال القرن الثاني والثالث والرابع والخامس، ونظرا لأن الرباط قصد به في المقام الأول الدفاع عن الثغور ضد هجوم النصارى من البحر، فإننا نجد هذه الربط لم تنتقل من سواحل شمال أفريقيا إلى سواحل المغرب الأقصى إلا فيما بعد، لتركز الهجمات المسيحية على شاطئ المتوسط، وأيضا لقتال المرتدين من سكان البلاد، فكان عبارة عن قلعة متقدمة وملجأ للسكان المسلمين المجاورين في حالة هجوم الأعداء، وقد انتشرت هذه الربط كما قلنا على طول الساحل الأفريقي، وكانت وسائل الإنذار فيما بين هذه الحاميات هي إشعال النيران لتعلم بقية الربط فتقدم النجدة والعون، ولهذا نلاحظ وجودها على أعلى مرتفع في المنطقة عادة وأقربه إلى البحر.

ثم ومع بدايات القرن الخامس الهجري ابتداء الرباط يتطور ويضاف إلى مهامه مهام أخرى لا تقل أهمية عن السابقة، فقد أصبح معهدا لتعليم المسلمين، وخلال سبعة قرون من التطور أصبحت الزوايا جامعات علمية أكاديمية تنشر العلم الإسلامي وتخرج كبار العلماء، وتقدم المأوى والقرى لطلاب العلم وعابري السبيل، وتنشر الأمان على طول الطريق، والأهم من هذا كله نشر الدين الإسلامي ومحاربة المرتدين، ولعلنا نلاحظ أن جميع مشرقي ووثني شمال أفريقيا باستثناء أقلية ضئيلة من اليهود دخلوا الإسلام وهذا لا شك لكثرة الزوايا بهذه المنطقة، إذ لم توجد هذه النسبة المرتفعة من الانتشار حتى في الشام والعراق رغم وجود الخلافة بها.

وبالمقارنة بالمستوى الثقافي الإسلامي عامة، نجد أن المغرب العربي كان وطوال القرن التاسع والعاشر والحادي عشر الهجري أغزر بلاد الإسلام علماً، ولا زال التاريخ يحتفظ بصورة مشرقة للتنافس العلمي الشديد الذي كان بين زاوية الدلائيين وزاوية العياشي الذي يذكّرنا بالتنافس الشديد بين مدرستي الكوفة والبصرة.

وقد أنشأ الزاوية الدلائية الشيخ أبو بكر بن محمد الدلائلي جد مؤلف كتاب «نتائج التحصيل» في أواخر القرن العاشر، وقد بلغت هذه الزاوية الغاية من التقدم⁽¹⁾ في العلوم، وخرّجت فطاحل العلماء ونوابغ الفقهاء، بل وكانت بمستوى جامع القرويين، فكان بها نزل مجاني للطلبة به له ما يزيد على ألف وأربعمائة مسكن حول الزاوية، وكثر المدرسون بها من مقيمين وزائرين، وشبهت مكتبتها بمكتبة المستنصر الشهيرة بالأندلس، وهناك الزاوية العياشية التي أنشأها العياشي في 1044هـ المعروفة الآن بزاوية سيدي حمزة، وتقع على وادي زيز وكانت بمستوى الزاوية الدلائية بل وكانت منافساً شديداً لها، والزاوية العيساوية التي أنشأها العارف بالله الشيخ محمد بن عيسى رضي الله عنه في أوائل القرن العاشر الهجري بمكناس، وكانت تدرس العلوم الإسلامية وتقدم القرى والمأوى لعباري السبيل، وكانت مأوى الرعية من جور الحكام وكهفهم الذي يلوذون به من استبداد الوزراء والأمراء من دولة بني مرين، والزاوية التي أنشأها أبو المحاسن الفاسي في 988هـ، والزاوية الناصرية في وادي درعة بتامكروت أسسها عمر الأنصاري في 983هـ، وكان شيخها في فترة من الفترات محمد بن ناصر الدرعي العالم المشهور، والزاوية التي أسسها الشيخ عبد السلام الأسمر بزيلين في الثلث الثاني من القرن العاشر وكانت تحتوي على مكتبة كبيرة، وكانت مدرسة علمية كبيرة بالمنطقة حافظت رغم كل الظروف على كيانها ومنهجها عبر القرون، وهي أكبر معهد لتحفيظ القرآن بليبيا الآن.

(1) انظر لمزيد من المعلومات كتاب «البدور الضاوية في أخبار الزاوية الدلائية» أبو الربيع سليمان ابن محمد الحوات.

والمئات غير هذه الزوايا، ويلاحظ أن كل هذا النشاط كان بالإضافة إلى قراءة القرآن الكريم، وتلاوة الأذكار، وتربية المريدن التربية الإسلامية الصحيحة .

ويخرج ابن بطوطة في رحلة من طنجة عام 725هـ ليظل لمدة 28 عاماً في تنقل وأسفار، طاف فيها بآسيا وأفريقيا والأندلس وليضع كتاباً يذكر فيه ما يقرب من مائة وثلاثين زاوية كانت تقدم الطعام وتقري الضيف، وتقدم للمسافر الأمن والطمأنينة، بل وتعطيه الزاد والثياب في طول البلاد الإسلامية وعرضها وحتى غرب آسيا⁽¹⁾.

وتضاف في مصر لبعض الزوايا مهمة جديدة وهي إيواء النساء اللاتي طلقن أو هجرن ولا مأوى لهن، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن في أقسام خاصة صيانة لهن، بفضل ما كان فيها من شدة الضبط وغاية الاحترار والمواظبة على الطاعات، وإشراف من قبل نساء مؤهلات على غرار المدارس النسائية الداخلية في عصرنا هذا⁽²⁾.

وبعد: فإننا نسأل المصنف لماذا لا يعترض على افتتاح أماكن الفجور والفساد بين المسلمين، بدلاً من شن الحملات على معاهد العلم والتربية ومشاعل الحضارة، التي كانت ولا زالت تنبت العلماء والصالحين، ولكن المصنف - ويا للأسف - يكثّر الحز ويخطئ المفصل .

ويوزع مناشير وآخر يعقد مؤتمراً وقيم احتفالات تشكك - ومن التبيح الواضح أن مسابقات وفوايز يقوم عليها هؤلاء الأدعياء بالدعم المتواصل، ويدعون أنها دينية وتنشر بصفة دورية في صحفنا اليومية - في الدعوة الإصلاحية السلفية ويطعن في دعائها وحماة راياتها قديما وحديثا .

(1) للتوسع انظر رحلة ابن بطوطة.

(2) خطط المقيزي ج 2 ص (294).

هذا الكلام من المصنف عن الاحتفالات والمسابقات والفوازير لا علاقة له بمحل البحث وهو التصوف، وما يقرب منه إلا كقرب الضفدع من الدغفل ونعتذر عن الخوض فيه.

وساعد على تحرك هذا الباطل وأعان على انتشاره، تخوف بعض الحاكمين في أغلب بلاد المسلمين من الدعوة السلفية التي أحيها بعد موتها في العالم الإسلامي الإمامان الجليلان أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في البلاد الشامية، ومحمد بن عبد الوهاب في الديار النجدية، إذ الأول نشر الله تعالى تراثه الفكري والعلمي والإصلاحي على أيدي الحكام السعوديين - جزاهم الله خيرا - وذلك بعد أن طوقها الزمان بأيدي دعاة التصوف والضلال، فأقبل طلبية العلم في كافة أنحاء العالم الإسلامي يقرأون لابن تيمية أفكاره الإصلاحية، ويتقمصون شخصيته السلفية الطاهرة، فأظهر الله دعوة الحق السلفية في كافة أرجاء العالم الإسلامي.

تحديد معنى السلفية

إن كانت السلفية هي اتباع كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهذا لا يختص به مسلم دون مسلم، وإن كان المسلمون يتفاوتون في حظهم من هذا الاتباع كل حسب إيمانه وعلمه، وعليه فلا سبب يجعل المصنف يقسم المسلمين إلى فرقتين، واحدة سلفية والأخرى غير سلفية، وأما إن كانت السلفية غير ما ذكرنا من اتباع الله ورسوله ﷺ فإننا نتركها عن طيب خاطر للمصنف.

هذا بالطبع إن لم يكن المقصود بالسلفية هو الأخذ بظواهر نصوص جاءت

في القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، وتلزمنا بالخوض في ما لا نعلم أو ندرك من صفات الله تعالى، ومحاولة إقناعنا أن السلف الصالح كان يعتقد أن الله مستويا على العرش بذاته فوق السماء، فهو تقدس محمول محصور، بل وتحت أرجل الواقف على الكرة الأرضية من الجهة السفلى المقابلة، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وأن لجنابه الأرفع الأقدس يدا ورجلا وجنبا وعينا وقدمي مما لم يطالب مخلوق باعتقاده أو الخوض فيه، والسلف من هذا براء، إذ غاية أمرهم ومذهبهم التسليم والسكوت.

ولهذا قال مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، والأوزاعي، وسفيان الثوري، والليث بن سعد: (أمروها كما جاءت بلا كيفية⁽¹⁾)، فهو أيضا تسمية من غير مسمى، ولولا الخوف من الخروج عن الموضوع لناقشناها بتوسع أكثر⁽²⁾.

الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رضي الله عنه

ونتمم المعلومات التي ذكرها المصنف عن ابن تيمية رحمه الله فنقول:

هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني من علماء القرن السابع الهجري، وكان قد تتلمذ للعديد من علماء عصره وأخذ عنهم، كابن المنجا، والمجد ابن عساكر، وابن عبد القوي، ووافق ذلك استيلاء التتار على بلده، ومن ثم قدم به أبوه مع أخويه إلى دمشق، وقد شارك في الحرب ضد التتار، ووضع العديد من المؤلفات منها «منهاج السنة النبوية» و«الصارم المسلول» و«الجواب الصحيح» و«الاختيارات الفقهية» و«الرد على المنطقيين» و«الفتاوى» و«معارج الوصول» وغيرها.

وقد تعرض في حياته للسجن بسبب عدة أقوال نسبت إليه كنزول الله

(1) كتاب الاعتقاد للمحدث الحافظ البيهقي ص (44).

(2) يلاحظ أننا لا نعترض على ما يسمى برأى السلف أو رأى الخلف، وإن كنا لا نوافقهما مما لا يعني الاعتراض أو النزاع، أما مذهبنا فهو الإيمان بها على مراد الله بها.

سبحانه بذاته إلى السماء الدنيا، والخط من شأن بعض الصحابة، والتفوه في حق أهل بيت الرسول ﷺ، وفتواه في الطلاق وغيرها من المسائل التي خالف فيها الجمهور⁽¹⁾، هذا في الوقت الذي كان العلماء يتجنبون فيه إثارة المسائل الخلافية حرصاً على وحدة المسلمين، وكانت تكفي كلمة واحدة عن أن الله في السماء السابعة بذاته مثلاً حتى يتعصب لها البعض ضد البعض، وتتفرق الفرق ويتشتت الجميع في وقت كانت أمة الإسلام أحوج ما تكون إلى جماعتها ووحدتها، ويحدثنا ابن بطوطة كشاهد عيان عن معركة حدثت في جامع بسبب كلام مثل هذا لابن تيمية فيقول: (حضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان في جملة ما قاله: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً⁽²⁾)، ولا ريب أن العديد من مثل هذه الممارك حدث قبل وبعد ابن بطوطة.

ونحن بخلاف ما يرى المصنف لا نرى ابن تيمية سلفياً بالمعنى الصحيح، بل نراه منحرفاً عما كان عليه السلف، وقد أشار إلى هذا العديد من علماء الإسلام، يقول شيخ الأزهر عبد الحليم محمود: (وتسلسلت فكرة الإمام أحمد فتمثلت في الإمام ابن تيمية الذي وضع لها المنطق، وأرسى لها القواعد والأصول، وانحرف بها إلى الشكل أكثر من الجوهر)، ثم يقول متحدثاً عن السلفية الأصلية: (وكان الشيخ محمد عبده من أهم العوامل في نشرها ملطفة خفيفة تكاد تخفى، أو تكاد تلبس ثوب السلفية الأولى الأصلية التي كانت قبل ابن تيمية ولا يمثلها ابن تيمية⁽³⁾).

ولنا على كل حال مذهب في هذه الأمور لا نحيد عنه قيد شعرة وهو: أن

(1) انظر حل المعاهد حاشية شرح العقائد، المولوي عبد الحليم الهندي.

(2) رحلة ابن بطوطة ص (95).

(3) قضية التصوف المنقذ من الضلال - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود ص (233).

كلُّ يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ونقف موقفا وسطا بين المصنف ومن يرى رأيه، وبين العديد من علماء المسلمين الذين لهم آراء أخرى في ابن تيمية، كالحافظ ابن حجر المكي⁽¹⁾، والمولوي عبد الحلیم الهندي⁽²⁾، والشيخ زاهد الكوثري⁽³⁾، فتأخذ ما وافق الكتاب والسنة وإجماع المسلمين من كلام ابن تيمية ونترك ما عداها، مع احترامنا الكامل له وعليه فإن خطأ المصنف يكمن في محاولته الإيحاء بأنه من خالف ابن تيمية أو محمد بن عبد الوهاب من آراء لا يؤخذ به لأنه لا يمثل هذه السلفية المزعومة التي يتحدث عنها.

وأعطف عليه قوله: إنهما أحيا الدعوة السلفية بعد موتها وكأنهما لم يأخذا العلم عن سبقيهما من المسلمين، أو نزل عليهما وحيا من السماء، ولكن في غياب المنطق تهاجر الحكمة.

وأما الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فحسبه أن أثمرت دعوته المملكة العربية السعودية، هذه المملكة التي احتضنت دعوته السلفية فبلغت بها من الكمال ما أصبحت به تحاكي دولة الراشدين السلفيين من الصحابة والتابعين.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ما قلناه عن الشيخ ابن تيمية نقوله عن الشيخ المستطاب محمد بن عبد الوهاب، فما وافق من كلامه كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وإجماع المسلمين أخذنا به، وما خالف تركناه، ونتخذ كذلك موقفا وسطا بين المصنف ومن يرى رأيه وبين العديد من علماء المسلمين الذين يخالف رأيهم رأي المصنف، مثل

(1) انظر كتاب الجواهر المنظم - ابن حجر المكي ص (13).

(2) انظر «حل المعاهد حاشية شرح العقائد» المولوي عبد الحلیم الهندي.

(3) انظر كتاب «التبصر في الدين» للإسفرابيني - تحقيق الشيخ زاهد الكوثري ص (116).

الزهاوي^(١)، والشيخ المحقق علوي حداد^(٢)، والشيخ سليمان بن عبد الوهاب أخيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(٣) الذي وضع كتاباً ذكر فيه العديد من المسائل التي خالف فيها الوهابية الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، مثل تكفير المسلمين لأسباب وأهية لم ترد عن الشارع فيقول:

(إن أهل العلم ذكروا في كل مذهب من المذاهب الأقوال والأفعال التي يكون بها المسلم مرتداً، ولم يقولوا: من نذر لغير الله فهو مرتد، ولم يقولوا: من طلب من غير الله فهو مرتد، ولم يقولوا: من ذبح لغير الله فهو مرتد، ولم يقولوا: من تمسح بالقبور وأخذ من ترابها فهو مرتد كما قلتم، فإن كان عندكم شيء فينبوّه فإنه لا يجوز كتم العلم، ولكنكم أخذتم هذا بمفاهيمكم وفارقتم الإجماع وكفرتهم أمة محمد ﷺ كلهم، حيث قلتم من فعل هذه الأفاعيل فهو كافر، ومن لم يكفره فهو كافر)^(٤).

وذكر الشيخ سليمان بن عبد الوهاب أيضاً أن أخاه محمد بن عبد الوهاب وأتباعه مخالفين حتى للإمام ابن تيمية وإن كانوا يظهرون اتباعه فيقول:

(وإن قلتم أخذنا ذلك من كلام بعض أهل العلم كابن تيمية وابن القيم لأنهم سموا ذلك شركاً، قلنا: هذا حق ونوافقكم على تقليد الشيخين أن هذا شرك، ولكن هم لم يقولوا كما قلتم إن هذا شرك أكبر يخرج من الإسلام وتجري على كل بلد هذا فيها أحكام أهل الردة، بل من لم يكفرهم عندكم فهو كافر تجري عليه أحكام أهل الردة، ولكنهم رحمهم الله ذكروا أن هذا شرك وشددوا فيه ونهوا عنه، ولكن ما قالوا كما قلتم ولا عشر معشاره ولكنكم أخذتم من قولهم ما جاز لكم دون غيره)^(٥).

(١) انظر كتاب الضياء الشارق - للشيخ سليمان السحمانى الرياضى.

(٢) انظر كتاب الأسنة الحداد - للشيخ سليمان السحمانى الرياضى.

(٣) انظر كتاب الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية - للشيخ سليمان بن عبد الوهاب.

(٤) الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية - الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ص (٧).

(٥) الصواعق الإلهية ص (٦).

ونحن أيضا لعلم المصنف - نعتبر الأقوال التي نسبت للشيخ محمد بن عبد الوهاب كانتقاصه للنبي ﷺ، بعبارات مختلفة مثل قوله: (إنه «طارش»، أي أن غاية أمره أنه كالطارش الذي يرسل إلى ناس فيبلغهم ثم ينصرف، وقوله: إني نظرت في قصة الحديبية فوجدت فيها كذا وكذا كذبة، بل وادعائه النبوة بعد الرسول ﷺ، وأيضا ما نسب إلى بعض أتباعه من القول بأن عصاي هذه خير من محمد، لأنه ينتفع بها بقتل الحية ونحوها، ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع أصلا⁽¹⁾، نعتبره كلاما غير مقطوع الصدور، ونجل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن مثل هذه الأقوال، ونكل حساب قائلها إلى الله العليم بذات الصدور.

والذي لا شك فيه أنه لو أن نصف هذا الكلام أو حتى عشر معشاره نسب إلى أحد السادة الصوفية كذبا وافتراء، لما كان نصيبه من المصنف وأمثاله إلا التثتم والرمي بأبشع التهم، على ما رأينا منه في الصفحات السابقة وما سيأتي مما هو أكبر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أعود فأقول: لقد ساعد على تحرك المتصوفة في هذه الأيام وإظهار دعوتهم تخوف بعض الحكام من بلاد المسلمين من الدعوة السلفية، إذ رأوا فيها ما يبعث على الانقلاب الفكري والروحي الذي قد يؤدي أخيرا إلى انقلاب إداري شامل، يقضي على مظاهر الفسق والفجور في ديار المسلمين، ويعود بالأمة الإسلامية إلى عهد سلفها الصالح، عهد تحكيم الكتاب والسنة والهجرة والجهاد، إلي أن تبلغ أمة الإسلام غاياتها في الطهر والصفاء والعزة والكرامة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. لهذا التخوف تحالف بعض جهال الحكام مع ضلال المتصوفة على

(1) كتاب الأسنة الحداد في رد شبهات علوي حداد - الشيخ سليمان السحمان الرياضي ص (15).

محاربة دعاة السلفية الإسلامية بين المسلمين، فترى بعضاً منهم لا يؤمنون بالله ولقائه لما أصاب قلوبهم من الإلحاد الماركسي، يساعدون على نشر التصوف الباطل فيسهلون في إقامة الحفلات الصوفية، ويسهلون أمور القائمين عليها ويحوظونهم بعناية وحماية، في الوقت الذي يضطهدون دعاة الإصلاح وينكلون بهم ويسكتونهم.

اللهم انطقنا بما فيه مرضاتك .

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي يختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفسرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

ومن هنا - أخي المسلم - وجب التنبيه بسرعة إلى خطر هذه الدعوة الصوفية الجديدة، وقبل استفحال أمرها وانتشار شرها بين المسلمين، والتي يخشى أن تضيع بلاد المسلمين مرة أخرى تحت وطأة الاستعمار بعد أن أنقدها الله تعالى بدعوة الإسلام، التي حمل رايتها السلفيون، وجهاد المسلمون تحتها حتى تحررت ديار المسلمين وبلادهم من الاستعمار الغربي الغاشم الظلوم.

لقد أعيت الحيلة في جعل المصنف يتكلم بالأدلة والبراهين ويترك التهويل والتكرار .

وقد قلنا سابقاً: إن التصوف هو روح الإسلام، ومتى خرجت الروح من هذا الجسد حتى تعود إليه من جديد، فما زال أهل التصوف العلماء العباد الزهاد الصالحون على ما تركهم عليه رسول الله ﷺ .

وأما بشأن محاربة الاستعمار وصده ودحره فقد تحدثنا في المقام بما يليق .

وقياما بهذا الواجب، أكتب هذه الرسالة وأنشرها بين المسلمين إعلاما لدعاة التصوف المزيف أن يكفوا دعوتهم فإنه لا مجال اليوم بين المسلمين لقبول هذه الدعوة الزائفة، وقد استضاءوا بنور الوحي واستناروا بهدي الكتاب والسنة واهتدوا عليهما.

موقف الصوفية من الانحراف والمنحرفين

الجواب على أوجه:

1- لا أدري متى كان سباب المسلم وشتمه ولعنه كما رأينا وسنرى واجبا يدعو إلى تأليف الكتب ونشرها.

2- إن كان المقصود بدعاة التصوف المزيف هم الذين انحرفوا عن منهج ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: 7)، وحادوا عن حقيقة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: 5)، وابتعدوا عن طريق ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: 16، 17)، وجفوا صراط ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ (لقمان: 15)، الذين ادعوا كثيرا، وأخلصوا قليلا وجلسوا على بساط التربية بالرسم، ورضوا من النسبة بمجرد الاسم فهؤلاء طائفة قد سبق السادة الصوفية غيرهم إلى نصحتهم ووعظهم وإرشادهم إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

وتحدث الشيخ عبد الحليم محمود عنهم فقال:

(ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ومن أساطين العارفين ومن عباقرة الملهمين⁽¹⁾، بل وبين السادة الصوفية

(1) قضية التصوف المنقذ من الضلال - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود ص (128).

الفارق الذي يعرف به المدعي من الصوفي، حتى لا يختلط الأمر ويذهب التراب بالتبر فيقول حجة الإسلام الغزالي:

(اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير ونحن نعرفك علامة له، وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصراراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واطب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض).

3- وكان للسادة الصوفية دور كبير في محاربة الفتن والبدع والمبتدعين، الذين يجدون عند الجهلة والسوقة سوقاً رائجة لتنتشر سمومهم وآفاتهم، ويشيرون القلائق والفتن ويشتمون جماعة المسلمين، وقد استنجد السلطان المريني بالشيخ محمد بن عيسى رضي الله عنه إثر فتنة قام بها أعجمي داخل بلاد المغرب، واستقر بثوات وادعى المعرفة وطريق القوم ولحاجة خبيثة في نفسه غير من أسماء أصحابه من اسمه أبو بكر أو عمر أو عليا، وأكثر الفساد حتى ضج الناس وذهبوا إلى القاضي، الذي حول الأمر بدوره إلى السلطان لعدم استطاعته القيام به، ويبدو أن السلطان هو الآخر خاف الفتنة أو وقوع حرب أهلية تعصف بالبلاد والعباد، طالما عانت الأمة من ويلاتها لكثرة أتباع هذا الدعي، فأرسل إلى الشيخ فكتب الشيخ إلى الأعجمي بكتاب جاء في آخره: «وإن لم تنب عن هذا الاعتقاد فالله يرسل لك دويبة تقتلك»، وبعث بالرسالة إلى الأعجمي الذي استهزأ بها ومزقها، فما أصبح الصبح إلا وقضى ذلك الأعجمي نحبه إثر لدغة من عقرب عدت عليه وهو نائم⁽¹⁾، وسنتكلم عن كرامات الأولياء وجواز وقوعها في حينه إن شاء الله.

4- ويبدو أن المصنف قد أكثر اللغظ فأكثر الغلط، فإنه يقول: «لا مجال اليوم بين المسلمين لقبول هذه الدعوة الزائفة، وقد استضاءوا بنور الوحي... إلخ».

(1) مختصر الغزال في سيرة الشيخ محمد بن عيسى المكناسي - الشيخ المهدي الغزال ص (40-41).

وعليه فإن كل المسلمين في السابق لم يستضيئوا بنور الوحي أو يستنبروا بهدي الكتاب والسنة، إذ رأيهم في التصوف غير رأي المصنف، فكل هؤلاء على خطأ والمصنف وحده على حق، وبالطبع فالنور والهدى اللذين يتحدث عنهما في هذه الورقات التي تكفلت بنشر هذا النور وهذا الهدى من كتابه الذي بين أيدينا.

وعرفوا ما أصابهم وما حل بديارهم من*الفتن والفتن قرونا طويلة من
جراء دعاة التصوف وما رموا به أمة الإسلام من قاصصات الظهر.

الفتن والاضطرابات في التاريخ الإسلامي

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما أقول عذلتكما

مما لا شك فيه أن للمصنف مصادر تاريخية لم يطلع عليها أحد إلا هو، وجد فيها هذه المعلومات الصحيحة القيمة، وإلا فالمصادر التي بين أيدينا خالية من هذه الحقائق الساطعة.

فمبلغ علمنا أن الفتن ظهرت في جسم المسلمين بمقتل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه بعد حصاره في داره عام 35هـ - 656م، ثم توالى الكوارث فكانت موقعة الجمل في نفس السنة، ثم معركة صفين عام 36هـ - 657م التي لم تسفر عن نتيجة حاسمة لكف الفتن، وفي 661 / 1 / 20، 17 رمضان 40هـ، استشهد سيدنا علي بن أبي طالب على يد الشقي عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، ومن ثم انتقلت الخلافة إلى بني أمية في الشام، الذين كانت في عهدهم عشرات الحروب والفتن بين أبناء الدين الواحد، ابتدأت بقتل سيدنا الحسين السبط رضي الله عنه في 10 محرم 61هـ - 680 / 10 / 10 بكربلاء.

ثم معركة الحرة التي استبيحت فيها حرمان المهاجرين والأنصار في مدينة رسول الله ﷺ وانتهكت أعراضهم واستبيحت نساؤهم، ثم تسلسلت الحروب والفتن من معركة دير الجاثليق إلى ضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل الصحابي عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه في 18 جمادى الآخرة 73هـ وصلبه بالكعبة المشرفة والتمثيل

به، ثم حروب الخوارج الشهيرة، ومعركة دير الجماجم بين ابن الأشعث وجيوش عبد الملك بن مروان، ثم استمرار حروب الخوارج بدون توقف تقريبا، إذ زادت عن خمسمائة معركة في مدة خمسمائة سنة، ثم معركة الزاب وقتل مروان بن محمد في «أبوصير».

وانتهت الدولة الأموية ليبدأ من يوم 25 / 1 / 750 - 26 ذو الحجة 132هـ تاريخ الدولة العباسية، واستمرت الفتن تخبو تارة وتنقذ تارة أخرى بين أبناء العقيدة الواحدة وتحت شعارات زائفة غالباً، ومحقة في أحيان قليلة، حتى كان دخول التتار إلى بغداد وذبح الخليفة المستنصر العباسي آخر خلفاء بني العباس، وسيطرة التتار على أجزاء من الدولة الإسلامية.

ثم دخول الدولة العثمانية مسرح الأحداث في القرن السادس عشر الميلادي لترث الدولة العباسية، ثم تتصل حلقات التاريخ إلى اقتسام تركة الرجل المريض بين الدول الأوروبية، وما كان من مقاومة العرب للمستعمرين الغزاة، وعلى رأسهم وبين صفوف مقدمتهم رجال التصوف مثل الأمير عبد القادر، وشيخ المجاهدين أسد الصحراء عمر المختار وكما سبق أن أوضحنا.

ونحن بالطبع لا نستطيع أن نسرد تاريخ ألف وأربعمائة سنة في صفحة واحدة، ولكننا قدمنا مختصراً موجزاً لأهم الفتن والاضطرابات بين المسلمين، ولم نعلم حتى الآن كيف رمى الصوفية أمة الإسلام بقاصمات الظاهر التي يتحدث عنها المصنف، اللهم إلا إذا كان عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله صوفياً، أو أن هولاءكو عليه غضب المولى ولعنته أحد مشائخ الطرق.

ولا أدري من أيهما أنا أشد عجباً، من علم المصنف بالتاريخ أم من قدرته على اختلاق التهم وقذف صالح المؤمنين بها؛ إن هو إلا ظن السوء وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، بل نحن مأمورون بتعظيم جرمات المسلمين وعدم إساءة الظن بهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: 12).

ولكن وكما قال الصادق المصدوق عليه السلام: «من يرد الله به خيراً يصب منه»^(١)، فله الحمد على كل حال.

(١) رواه البخاري.

وتحذير الأمة الإسلامية عن أن تنخدع مرة أخرى بشعارات التصوف
وبهرجه الكاذب وزخرفته الباطل، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

من كلام المصنف يتضح أن أمة الإسلام انخدعت قبل هذه المرة بشعارات
التصوف، ونحن نسأل المصنف: بما أنك تعترف أن الأمة الإسلامية قد انخدعت
—حاشاها— من قبل على حد تعبيرك، فهل كل هذه الأمة على خطأ وأنت --
حماك الله -- على صواب؟!.

ثم إنني لا أكاد أعلم باستثناء ابن حزم وقليل على مذهبه يرون وجوب
إجماع الجن بالإضافة ليتحقق للإنس الإجماع، على أن الإجماع القولي والفعلي
حجة شرعية، وذلك استنادا للعديد من الأدلة مثل قوله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على
خطأ»^(١)، وفي رواية «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، وقد أجمعت أمة الإسلام -- وهو
الحق -- باعتراف المصنف على التصوف، مما يدل بداهة على صواب أمة الإسلام
وخطئه الذي لا شك فيه ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ (الشورى: 24).

وحسبي أن أقول للجميع: إن التصوف إما أن يكون هو الإسلام أو
يكون غيره، فإن كان هو الإسلام فحسبنا الإسلام وإن كان غيره فلا
حاجة لنا به.

العلمونورون،

لا يخرج المصنف من حفرة إلا ليقع في هاوية، فباليتة أراح واستراح من
معالجة ما لا يستطيع، فبعد أن حدثنا عن قاصصات الظاهر التي حلت بأمة الإسلام

(١) رواه البخارى.

من الصوفية، ولم يأت بدليل نقلي واحد ولا حتى شبه دليل، انتقل إلى العقلي –ويا ليت ما فعل – فإن الدليل الذي جاء به من صنف فخرٌ عليهم السقف من تحتهم، فهو يقدم لنا قضية منطقية، والغريب أنه قد وضعها في الصفحة الأولى من كتابه، ثم كررها هنا متعمداً إبرازها كدليل قوي وحجة منطقية دامغة على صحة ادعاءاته، وما كنا نود له مثل هذا الخطأ الذي لا يأتيه من له إلمام بعلم المنطق أو حتى حسن التحدث.

ونأتي إلى التفصيل فنقول:

تنقسم القضايا المنطقية إلى شرطية وحملية، وتنقسم الشرطية إلى متصلة ومنفصلة، ثم تتشعب في شعب لا نود الخوض فيها لخروجها عن الموضوع.

والخلاصة: أن القضية المنطقية تتكون من مقدمة وتالي نتيجة للمقدمة، والمصنف يأتي بمقدمة تقول: إما أن يكون التصوف غير الإسلام، وبالطبع سنخلص في هذه الحالة إلى نتيجة تقول: أن ندع التصوف لأنه غير الإسلام، وإما أن يكون التصوف هو الإسلام وبالطبع سنخلص في هذه الحالة إلى نتيجة تقول: أن نتبع التصوف لأنه هو الإسلام، لأن النتيجة لا تصدقان معا ولا تكذبان معا، وبما أننا قد أسقطنا الأولى لزم أن تصدق الثانية، كأن تقول: إن هذا الثوب إما أبيض وإما أسود، فإن كان أبيض فهو ثوبي، وإن كان أسود فليس ثوبي، لأنه يستحيل أن يكون الثوب أبيض وأسود في نفس الوقت، هذا عند من له دراية بعلم المنطق ومن ثم يستطيع الاستشهاد به.

أما المصنف وهو العالم النحرير المتضلع في كل الفنون، والذي يجبرنا على أخذ أقواله مجرد أنه قالها، فإنه خلص إلى نتيجة لم يسبقه إليها أحد من العالمين، وهي أن النتيجة تكذبان معا، فإن كان التصوف هو الإسلام يرفضه، وإن كان غيره يرفضه أيضا، فيأله من منطق غريب وعجيب، والأغرب أن يقول: وإن كان هو الإسلام فحسبنا الإسلام.

ونعود فنقول: إنه بالنسبة للنقل فالحجة هي النص الصريح الصحيح،

وبالنسبة للعقل فهو طوع الدليل لا طوع الأكثر في القول، اللهم إلا عند العوام فإنهم ينظلي عليهم زخرف القول والكلام، وإن كان عقل العوام ليس بقياس عند القياس ولا بميزان عند الوزن.

روى المسعودي: (أن رجلاً رُفِعَ إلى الوالي بتهمة الزندقة فسأله عن مذهبه فقال: أنا مرجئٌ قدرني ناصبي رافضي، فلما سأله عن تفسير هذا قال: إنه يبغض معاوية بن الحظاب، الذي قاتل علي بن العاص، فقال له الوالي: ما أدري على أي شيء أحسدك، على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب⁽¹⁾).

وعليه فلا تصوف بعد اليوم ولكن الكتاب والسنة تعلمنا وعلمنا ودعونا، فهذا سبيل النجاة وطريقة الكمال والإسعاد لأمة الإسلام في الدنيا والآخرة.

التصوف هو التطبيق العملي للكتاب والسنة

أما وإن الكتاب والسنة هما سبيل النجاة وكل خير فهذا حق لا جدال فيه، وما قال الحق ولا شم ريح الحقيقة من قال غير هذا، أما أنه لا تصوف بعد اليوم ولكن كتاب وسنة، فقد شرحنا بما يزيد عن الكفاية أن التصوف هو العمل بالكتاب والسنة، وبهذا عمل أهل التصوف وبهذا تكلموا.

قال محمد بن عيسى رضي الله عنه: (طريقتنا تتبع العلم بالعمل، وإجراء حكم الشريعة، والسنة تجمعنا، والبدعة تفرقنا).

وقال الشيخ عبد القادر عيسى عن التصوف: (إنه التطبيق العملي للإسلام، وإنه يهتم بإصلاح ظاهر العبد وعمارة باطنه وتقويم خلقه وتصحيح عباداته ومعاملاته⁽²⁾، بل والعلم شرط في التصوف.

(1) مروج الذهب - للمسعودي ص (25).

(2) حقائق عن التصوف - الشيخ عبد القادر عيسى ص (39).

يقول الشيخ عبد الواحد يحيى⁽¹⁾ رحمه الله: (قد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف وإن كان جهله لا يبرر إنكاره، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعي أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة).

ويعني فيقول: (إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء، إنه يشيده على أساس، وكل فكرة لا تركز على السنة الصحيحة إنما هي بناء في الهواء على غير أساس⁽²⁾)، وعلى كل حال قد سبق وأن تكلمنا عن هذا الموضوع بما فيه الكفاية فليراجع في موضعه.

وحتى يكون المسلمون على بصيرة من التصوف وشعاراته الزائفة ودعاوى دعائه الباطلة، فلا يقعوا في مصائد دعائه وحبائل حاملي شعاراته الكاذبة، أقدم لهم في الصفحات التالية صورة واضحة للتصوف المخدّر منه والمنبه إلى خطره، حتى إذا ما عرفوا ابتعدوا عنه، وبذلك يسلمون من شره وينجون من خطره.

نحن سائرون صحبة القارئ الكريم إلى الصفحات التالية ليبين لنا المصنف الشعارات الزائفة والدعاوى الباطلة، حتى لا نقع في المصائد ونسلم من الشر وننجو من الخطر، كيف لا وهو الذي أتى بالعجب العجيب في الصفحات السابقة، وأوضح لنا بالدليل العقلي والنقلي بما لا مزيد عليه فساد التصوف وسلامة رأيه وجودة فهمه.

(1) الشيخ عبد الواحد يحيى هو صوفي فرنسي، كان اسمه رينيه جينو - هز إسلامه معاقل الكاثوليكية في سويسرا وفرنسا لمكانته العلمية الكبيرة، وكان سببا في إسلام الكثير من النصارى والمشركيين في أوروبا، وله مؤلفات ترجمت إلى معظم لغات العالم، وقد حرمت الكنيسة قراءة كتبه.

(2) قضية التصوف المنقذ من الضلال - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود (135-133).

كما أقدم لهم أخيراً صفحات مشرقة هي البديل عن التصوف المنبوذ الذي حذرناهم منه ونبهناهم إلى خطره بما يعرفون به الطريق إلى الله تعالى والسير إليه فيكملون بطاعته، ويصفون بذكراه، ويسعدون بأنسه والقرب منه، حقق اللهم لي ولهم ذلك إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

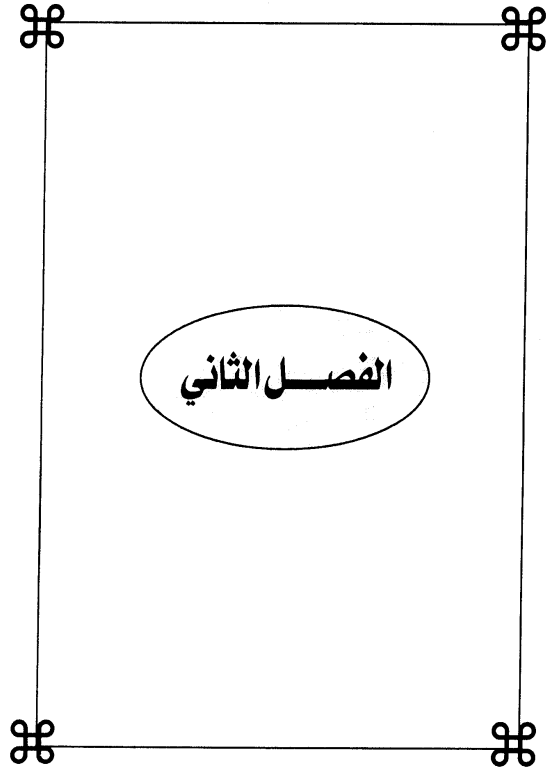
اضطراب وتناقض

لله در المصنف كل أمره عجيب، يشن هجوماً على التصوف ويصول ويجول ويقذف بأبشع التهم، ويرمي بأقبح الأوصاف ليقنعنا بفساد التصوف وأهله، ثم يعود ليضع لنا تصوفاً آخر، ومما لا ريب فيه أنه سيقنعنا بأن ما يراه واجب الاتباع، وما يراه الآخرون ليس بشيء حسب عادته .

ولا أدري كيف يتصور أن يجمع إنسان كل هذه التناقضات في جملة واحدة، وكيف يجعل من نفسه حكماً، ما ارتضاه يكون وما لم يرضه يترك، وكيف يجعل من نفسه مصيباً فلا يخطئ، ومن الآخرين جميعهم مخطئين لا يصيبون، تالله لا مرجع لنا ولا حكماً نرتضيه إلا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: 59) .

وقد عرضنا التصوف على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فوجدناه لا يخرج عنهما قيد شعرة، فهل نتركهما لغيرهما، نحن في غنى عن هذه البدائل التي ليس وراءها من طائل .





التصوف وأصوله

(أ) التصوف - ما هو التصوف؟ لقد اختلف منتحلوه في وضع حد له حتى بلغت تعاريفهم له نحواً من ألفي تعريف كلها حدود ورسوم لا واقع لها في الخارج، والتعريف الصحيح للتصوف هو أنه: بدعة ضلالة من أشبر البدع وأكثرها إضلالاً وأكبرها ضلالة.

قاتل الله الغفلة، يقول ابن قتيبة: (ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتوه العرب خصيصاً من الله) (1).

ويقول الإمام الشافعي: (ولسان العرب أوسع الألسن مذهبا وأكثرها ألفاظا، لا يحيط بجميع علمه فيما نعلمه إنسان غير نبي) (2).

ولا تساع مجال هذه اللغة ومتانتها نجد تعدد التعريفات والأسماء حتى للمسمى الواحد الملموس، فنجد للجمل والفرس والأسد مثلاً مئات الأسماء، فما بالك بالتصوف الذي هو حال وجداني لا يهتم أهله بالتعابير والألفاظ قدر اهتمامهم بالحقائق والأسس.

تعريف التصوف

حد التصوف: هو علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس وصفاتها المذمومة، كالحقد، والحسد، والعلو وحب الثناء، والكبر، والرياء، والبخل وغيرها.

ومبناه: على التمسك بآداب الشرع، والتباعد عن الشبهات، وحفظ الخواص، وعد الأنفاس، والتحرز من الغفلات.

وموضوعه: أفعال القلب والخواص من حيث التصفية والتركية.

(1) صون المنطق والكلام ج 1 ص (57).

(2) الرسالة - للإمام الشافعي ص (27).

وفائدته: إصلاح الإنسان ظاهراً وباطناً.

هذا على المجمل، أما على التفصيل: فإن كل التعريفات ترجع لنتيجة واحدة وإن تعددت، وسبب التعدد أن كل من عرفه تكلم على قدر مثاله منه علماً أو عملاً أو حالاً أو ذوقاً، فأصبح والحال هكذا من المحال النطق بتعريف مطابق لغيره لاختلاف المعرفين في المثال والأحوال، فحدث الاتفاق في المعنى دون اللفظ.

قال معروف الكرخي: (التصوف الأخذ بالحقائق والبأس مما في أيدي الخلائق، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف)⁽¹⁾.

وقال أبو تراب النخشيبي: (الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء)⁽²⁾.

وقال سهل بن عبد الله التستري: (الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر)⁽³⁾.

وقال ذو النون المصري: (الصوفي من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب)⁽⁴⁾.

وقال أبو الحسن النوري: (التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها)⁽⁵⁾.

وقال عمر الأصفهاني: (التصوف التبصري عمن دونه والتخلي عمن سواه)⁽⁶⁾.

وقال أبو محمد الجريري: (التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني)⁽⁷⁾.

(1) عوارف المعارف - السهروردي ص (41).

(2) المصدر السابق ص (43).

(3) تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار ج 1 ص (264).

(4) عوارف المعارف - السهروردي ص (43).

(5) تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار ص (32).

(6) المصدر السابق.

(7) الرسالة القشيرية ص (138).

وقال الكتاني : (التصوف خلق، فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك في الصفاء)⁽¹⁾.

وقال الشبلي : (التصوف ضبط القوى ومراعاة الأنفاس)⁽²⁾.

وقال أيضا : (التصوف هو الجلوس مع الله بلا هم)⁽³⁾.

وقال الجنيد : (التصوف بيت والشرعة باب)⁽⁴⁾.

وقال السري السقطي : (التصوف اسم لثلاثة معان : هو الذي لا يطفى نور معرفته ورعه، ولا يتكلم بباطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله)⁽⁵⁾.

وقال أبو سعيد الخراز : (الصوفي من صفى ربه قلبه فامتلا نورا، ومن حل في عين اللذة بذكر الله)⁽⁶⁾.

ويلاحظ القارئ الفطن بسهولة تعدد التعريفات ووحدة المعنى وكأنهم جماعة أحاطت بمبنى شامخ فوصفه كل منهم بحسب ما رأى منه، وهذا هو السبب في تعدد تعريفات التصوف كما قلنا.

أما قول المصنف - سامحه الله - : إنه لا واقع لهذه التعريفات في الخارج، فهذا راجع بلا شك لغزير علمه، وإلا فهذا كتاب الحلية لأبي نعيم، وطبقات السلمى، ورسالة القشيري وغيرها من كتب السادة الصوفية وقد حوت تراجم الآلاف منهم تشهد كلها بغير ما قطع به، ولكننا قلنا في أول الحديث : قاتل الله الغفلة.

(1) المصدر السابق ص (138).

(2) المصدر السابق ص (139).

(3) تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار.

(4) الرسالة القشيرية ص (139).

(5) المصدر السابق.

(6) تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار.

وأما تعريفه للتصوف بأنه بدعة من شر البدع... إلخ، فنحجب عنه بكلامه هو، فقد قال: إن تعاريف التصوف بلغت ألفين، وبما أنها كلها قالت عكس ما قال، فأصبح من الواجب أن نأخذ بقول الألفين لاستحالة جهلهم وتواطئهم على الكذب وهم في أزمدة مختلفة، وترك تعريفه الذي انفرد به.

إذ لم يعرف التصوف قبل نزول الوحي ولا بعده، وإلى أن انقرض من شاهد نزول الوحي المحمدي وعاصر نبينه ﷺ، فلم يرد لفظ التصوف على لسان رسول الله ﷺ قط، ولم يحدث عنه ولم يخبر به.

التصوف لفظاً وحالاً

إن المصنف في سبيل تأكيد رأيه قال ما يصح وما لا سبيل إلى صحته البتة، ونحن نسأله، هل كل ما نستعمله من الفاظ الآن وردت على لسان رسول الله ﷺ؟ وهل هذا دليل على بطلانها؟ بل ونقلب عليه السؤال فنقول: هل ورد لفظ السلفية التي يدعو لها على لسانه الشريف ﷺ أو على لسان أحد من صحابته؟ أو من التابعين؟ وهل هناك حديث واحد يتلفظ فيه رسول الله ﷺ بهذه السلفية المزعومة؟ أو بمدحها أو بدمها؟

وكيف ترجأ لفصل القضا ولم تصب الحكم من نفسكا

فإن كان المصنف يرى أن أي لفظ لم يرد على لسانه ﷺ دليل على عدم شرعيته، فليبادر إلى حذف كلمة السلفية التي حدثنا عنها في كتابه الذي بين يدينا، بل نرجو منه أن يحذف لفظ المذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنفي، والمذهب الحنبلي من كتب الإسلام والمسلمين، إذ لم يرد عنه ﷺ أو عن أحد من صحابته أنه قال: إن مذهبه مالكي أو شافعي أو حنفي أو حنبلي: ونرجو منه أيضاً أن لا ينسى حذف كل الاصطلاحات التي استحدثت بعده ﷺ كالنحو،

والفقه، والمنطق، وعلم الحديث دراية ورواية، وعلم الجرح والتعديل، بل وحتى مصطلحات العلوم الطبيعية كالجغرافيا والفلك والكيمياء وعلم الطبيعة، ففي الحقيقة أن كل الاصطلاحات التي نستعملها الآن في مجال العلوم الإسلامية وغيرها ما عرفها الصحابة ولا نطقوا بها.

ولو سألنا كل صحابته عليهم السلام عن الفرق بين الفعل المعتل والفعل الصحيح في اللغة، أو بين المهمل والمبهم في الحديث، أو عن الجنس والطباق في البيان أو التورية، لظنوا أننا نتحدث معهم بلغة أهل الصين، وعدم معرفتهم بما قلنا لا يعني جهلهم، فاللغة ينطقونها صحيحة بالسليقة، ويعرفون أن الكلام إن لم يعين اسم قائله بالتحديد لا يؤخذ به وإن لم يسموه المهمل، ويعرفون أن ما لم يسم قائله البتة متروك لا يقام له وزنا وإن لم يسموه مبهما، ويستعملون البديع في حديثهم وأشعارهم وإن لم يقرأوا حاشية السجاعي أو يحفظوا متن السلم أو يستوعبوا حاشية المنيأوي ويعملون بالتصوف وإن لم يسموه باسمه، فمثل هذه الحقائق مركوزة في أذهانهم رضوان الله عليهم، بل وفي أذهان أهل كل لغة.

ولكن سامح الله المصنف، يحاول أن يجعل من الباطل حقاً ومن الوهم دليلاً، بل ومن السراب ما يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فما سمعنا أن أحداً من كل فرق المسلمين سنة كانوا أم شيعة، خوارجاً كانوا أم معتزلة جعل من عدم تلفظ النبي صلى الله عليه وسلم دليلاً على المشروعية أم عدمها.

ونحن على كل حال إذ نتكلم عن التصوف فإننا نقصد به تركية النفوس، وصفاء القلوب، وإصلاح الأخلاق، والوصول إلى مرتبة الإحسان، ولك أن تطلق عليه أي لفظ مما يتفق مع حقيقته ومعناه، فسمه بمقام الرضا، أو الإحسان، أو علم القلوب ومعالجتها، إلا أن الأمة توارثت تسميته بالتصوف، فنحن نسميه بما سمته به الأمة.

وكما قلنا سابقاً: فإن - ولسوء حظ المصنف - التصوف كان موجوداً عند

كبار الصحابة والتابعين برسمه وإن غاب اسمه وبحقيقته وإن غاب لفظه، وإلى هذه الحقيقة أشار ابن خلدون بقوله: (وهذا العلم - يعني التصوف - من العلوم الشرعية الحادثة في الأمة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهة في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية⁽¹⁾ .

ويقول العلامة أحمد علوش: (قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر الإسلام وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين .

والجواب عن هذا: أنه لم تكن من حاجة إليها في العصر الأول لأن أهل هذا العصر كانوا أهل تقوى وورع وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة لطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علما يرشدهم إلى أمرهم قائمون به فعلاً... إلى أن يقول: فالصحابه والتابعون - وإن لم يتسموا باسم المتصوفين - كانوا صوفية فعلاً⁽²⁾ .

ولولا طلبنا للاختصار لنقلنا العديد من هذه النصوص عن أكابر علماء الأمة، ولكن المصنف - غفر الله له - يرى أن الحجة تكون بالتأليب والتنفير والاحتجاج على البحر بماء الغدير، مما يباه الدين والعقل والضمير .

(1) مقدمة ابن خلدون ص (329).

(2) انظر حقائق عن التصوف - للشيخ عبد القادر عيسى ص (19).

اللهم إلا ما كان من تحذيره ﷺ من البدع والإحداث في الدين مثل قوله: (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)، وقوله: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، فإنه قطعاً يدخل في البدع والمحدثات التي أشار إليها الحديث النبوي الشريف، وكما أن النبي ﷺ لم يحدث به ولم يخبر عنه فضلاً عن أن يشرعه ويدعو إليه، فإن الصحابة رضوان الله عليهم لم يؤثر عن أحد منهم أنه عرف التصوف أو نطق به، وكذا التابعون من أبناء الصحابة وأبناء أبنائهم، وهم أهل القرون المشهود لهم بالخيرية والفضل في قول الرسول ﷺ: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)، فإنه لم يعرف بينهم ولم يؤثر عن أحد منهم لا بالعبارة ولا بالإشارة، فلذا هو بدعة قطعاً، ولا شك في بدعته وإحداثه.

أما حديث المصنف عن عدم نطق الصحابة بلفظ التصوف فقد أجابنا عنه، وكذلك نقلنا أقوال كبار المؤرخين عن تصوف الصحابة وكبار السلف، أما قوله: إن التصوف بدعة، فلنا عنده وقفة لا لنرد عليه قوله، فإن التصوف ليس ببدعة إلا عند من لم يفهم معنى البدعة ولا حقيقتها في الشرع الحمدي الخفيف، ولكن لنشرح ما تعنيه هذه الكلمة التي كثر استعمالها وأسيئ فهمها، والطامة الكبرى أن مثل هذه الألفاظ تجد لها سوقاً رائجة عند العامة والبسطاء، فتجدهم يرددون ببلاهة أن هذا الأمر أو ذاك بدعة وأن الرسول ﷺ لم يفعله فهو ضلالة، ويحدث من جراء هذا ما الله به أعلم من تشتت وتفرق للمسلمين إن لم يحدث ما هو أسوأ.

وإني لأرجو الله أيها المسلم البصير أن يوفقك لاستيعاب وفهم ما سنذكره لك عن البدعة، ومن ثم تساعد بما قدرك الله تعالى على تصحيح وتصويب هذا المفهوم بين إخوانك من المسلمين حتى تجتمع الأمة على كلمة سواء.

البدعة

وقبل أن نتكلم عن البدعة يجب أن نتكلم عن السنة بداهة أن الابتداء لا يكون إلا بمخالفتها، وقد أمرنا الله سبحانه بطاعة واتباع واحترام رسوله صلوات الله وسلامه عليه، والتسليم له، وعدم الخروج عن توجيهاته في العديد من الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: 63).

كذلك تفضل الرسول ﷺ بتوضيح أهمية اتباعه فقال: «والذي نفسي بيده لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرده على الله كشراد البعير، قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»⁽¹⁾.

والسنة تنقسم إلى:

- أ) سنة القول وهي: كل قول صح إسناده إلى حضرة المصطفى ﷺ.
- ب) سنة الفعل وهي: ما صح عن الرسول ﷺ فعله باستثناء ما اختص به كتحريم الزكاة، وصدقة التطوع عليه، واستبدال زوجاته، ونكاح الأمة، وعدم توريثه، ومواصلة الصيام ونحوها.
- ج) سنة الترك وهي: ما تركه النبي ﷺ مطلقاً ولم يتكلم فيه رحمة بالأمة وحكمه العفو، أو ما تركه لسبب خاص كالرائحة الكريهة في الثوم، أو النفور الطبيعي من لحم الضب لأنه لم يكن بأرض قومه.

- د) سنة الإقرار وهي: أن يسكت النبي ﷺ عن إنكار فعل رآه أو سمعه.
- وحديث «إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» الذي أورده المصنف، والذي كثر الاستدلال به في غير موضعه والاستشهاد به بمناسبة أو بدونها هو جزء من حديث صحيح رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل،

(1) رواه ابن حبان، ورواه الهيثمي عن الطبراني في مجمع الزوائد.

ورواه أيضاً الترمذي وعلق عليه بقوله: «حديث حسن صحيح»، ورواه الحاكم وحكم بصحته الذهبي، ورواه أحمد، ورواه ابن حبان، ورواه الدارمي، ورواه ابن ماجه وزاد فيه: «فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد» وهو من حديث الصحابي الجليل العرياض بن سارية أحد أهل الصفة رضي الله عنهم قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ - والغالب أنها صلاة صبح - ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعبث منكم بعدي فسيروا اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

ونوضح الأمر فنقول: إن لفظ كلمة بدعة ضلالة لم يرد على الإطلاق، وإنما سبقه الأمر بالتمسك بسنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين، مما يدل بوضوح على أن البدع التي وصفها الرسول ﷺ بالضلالة هي المخالفة للسنة المخرجة عن الاتباع، وذلك لا ينفي أن ما لا يخالف السنة وما ليس بضلالة لا ينطبق عليه لفظ البدعة الضلالة.

ونعطي مثالا على ذلك فنقول: إن الرسول ﷺ قال: «من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽¹⁾ ترغيبا فقط ولم يأمر في صلاة القيام -التراويح - بشيء، بل إنه صلى ثلاث ليال بالمسجد، وفي كل ليلة يزداد عدد المصلين حتى كانت الليلة الرابعة كثر المصلون حتى عجز المسجد عن أهله، ولم يخرج لهم رسول الله ﷺ حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: «أما بعد: فإنه لم يخف على مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»⁽²⁾، واستمر الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر

(1) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي.

(2) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود.

وصدرا من خلافة عمر، ثم إن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ذات ليلة من ليالي رمضان مع عبد الرحمن القاري فإذا الناس أوزاع - أي جماعات - متفرقون يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي ابن كعب، ثم خرج والناس يصلون بصلاة قارئهم فقال عمر: (نعم البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون - يقصد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله)⁽¹⁾.

فنلاحظ من هذا الحديث أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سمي هذا العمل بدعة، وبالرغم من ذلك حسنه.

ونأخذ مثلاً آخر، فبالسند عن الأعرج أنه قال: سألت ابن عمر عن صلاة الضحى فقال: (بدعة ونعمت البدعة هي)⁽²⁾، فابن عمر رضي الله عنهما أقر السائل على أن صلاة الضحى بدعة، ثم أوضح أن ليس كل ما ابتدئ مذموماً فنراه ثني بمحدها، بل إنه قال عنها: (لقد قتل عثمان وما أحد يسبحها، وما أحدث الناس شيئاً أحب إلي منها)⁽³⁾، فدل الحديث على أن الناس قد أحدثوا في ذلك الوقت العديد من المحدثات لقوله: وما أحدث الناس... إلخ، ولا يخفى أن الناس في ذلك الوقت هم الصحابة والتابعون، ودل أيضاً على أن ليس كل محدث ضلالة.

ومن هذا نفهم قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: (البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم)⁽⁴⁾.

(1) رواه البخاري، والموطأ.

(2) فتح الباري ابن حجر العسقلاني ج 3 ص (795).

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق ج 17 ص (10).

بل ويذهب العلامة ابن حجر إلى أن البدعة هي فقط ما خالف الشرع فيقول: (البدعة شرعا ما أحدث على خلاف أمر الشرع ودليله الخاص والعام)⁽¹⁾.

وعليه فالذي يفهم من كل ما سبق أن لفظ بدعة لم يقصد به كل ما جاء بعد النبي ﷺ، بل فقط كل ما ليس له أصل من السنة المكرمة، وتنقسم البدعة إلى فعل وترك:

فالفعل: مثل ما هو موجود بين المسلمين الآن، كابتداع القول بالتجسيم والتشبيه في حق الباري جل وعلا، والتشريع المخالف للكتاب والسنة، وزني النساء الخارج عما أمر به الشارع وغيرها.

والترك: هو الترك الداخر تحت الاختيار فقط، كترك المباح من نكاح وطعام وشراب وملبس، وبالجملة ترك العمل بأحكام الشريعة.

وأما ما له أصل في الدين ولم يأت نص من القرآن والسنة بإباحته أو عدمها فلا يسمى بدعة، وذلك لأن الشريعة الإسلامية ختمت كل الشرائع التي سبقتها، وهي صالحة لكل زمان ومكان، فلو أننا اقتصرنا على ما كان يفعله الرسول ﷺ وصحابته بعينه فقط لما كانت الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، كيف والحياة تتغير وتتطور ولا تكاد تتوقف وتستقر، ومن هذا نفهم قول الإمام الغزالي: (وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهياً عنه، بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته، بل الإبداع يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب)⁽²⁾.

ولو نظرنا اليوم إلى أمة الإسلام وكيفية حياتها ومعاشها لوجدنا فيها الكثير من الأمور التي استحدثت بعد النبي ﷺ كجمع المصحف، وكذلك جمع حديث رسول الله ﷺ حيث منع النبي ﷺ تدوين حديثه مخافة أن يختلط بالقرآن، وصلاة التراويح جماعة بالمساجد، وشق الطرق ورصفها، وبناء العمارات الشاهقة

(1) فتح الباري ج 17 ص (9).

(2) إحياء علوم الدين - حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ج 2 ص (3).

واستعمال التكيف والأثاث المريح الوثير في المساكن، ومد شبكات المياه والكهرباء، والأجهزة المرئية والسمعية، وكل هذه الأمور ليست بالطبع ضلالة لأنه لم يرد في الكتاب والسنة نص بتحريمها.

ويؤكد هذا الشيخ الدهلوي فيقول: (اعلم أن كل ما ظهر بعد رسول الله ﷺ بدعة، وكل ما وافق أصول سنته وقواعدها أو قيس عليها فهو بدعة حسنة، وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة⁽¹⁾).

وفي خاتمة المطاف يحدد العلامة الزركشي البدعة بدقة فيقول: (البدعة في الشرع موضوعة للحادث المذموم)⁽²⁾.

وبهذا يتضح أن الحادث المذموم فقط هو المعني بقوله ﷺ: كل بدعة ضلالة، وهذا كما رأينا هو رأي كبار علماء الأمة - وهو الحق - فلو أطلقنا كلمة ضلالة على كل ما استحدث بعده ﷺ فعلى الإسلام والمسلمين السلام.

ونعود لنسأل المصنف، ما الذي يراه في التصوف قد أتى فيه حكم بالتحريم أو حتى بالكراهة، هل هو مداومة ذكر الله، أم المراقبة، أم الورع، أم التقوى في السر والعلانية، أم التوكل والصفاء حتى يسمى بدعة، ثم إنه ينتشر في بلاد المسلمين من البدع ما لا يطيق اللسان أن يذكره ولا القلم أن يكتبه ولا الأوراق أن تقله، وتوحيد الجهود لمحاربتها والقضاء عليها أولى وأجدى بكثير من قذف صالح المؤمنين الذين عرفوا فاعترفوا، وأخلصوا فخلصوا ورميهم بالابتداع وتسميتهم بالمتدعين.

وأنه إن كان الاتهام مع عدم الدليل من أشنع المهازيل والنقائص فإن الاتهام مع وجود الدليل على البطلان أشنع شناعة وأشد.

(1) كشف اصطلاحات الفنون ج 1.

(2) التبيين بشرح الأربعين - ابن حجر الهيتمي ص (221).

وحتى أهل اللسان العربي أنكروا أن يكون لفظ التصوف عربياً، إذ صيغة التفعّل لا بد وأن تكون مشتقة من فعل لازم يؤتى بها لأغراض كالمطاعة مثلاً، أو التكلف كالتعلم والتشجيع من فعلي علم وشجع اللازمين، والتصوف ما هو الفعل المشتق منه، هل فعله صفا يصفو، أو صف يصف، والجواب: لا، فلم يرد من صفا التصوف ولا من صف كذلك، ولذا التصوف بدعة في شكلها وموضوعها يابها الكتاب والسنة ولغتهما معا.

مصدر كلمة تصوف

يقول شيخ الأزهر عبد الحليم محمود رضي الله عنه: (لقد رأى هؤلاء الزهاد من ناحية الملبس في الصوف ما يحقق أهدافهم التي تتصل بالتقشف والشغل والخشونة، فهو متين رخيص لا يحتاج الإنسان معه في الشتاء إلى غيره، ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً، ذلك أنه لا يبلى بسرعة، فتصوفوا أي لبسوا الصوف)⁽¹⁾.
ونسبة التصوف إلى لبس الصوف هي أصح ما قيل في هذا الشأن، وبه قال كل المحققين ومن بينهم ابن تيمية كما جاء في كتابه الفرقان.
والمصنف مأمون من تعمد الكذب وانتهاج العناد والمكابرة ولذلك سننسب قوله: «إن لفظ التصوف غير عربي» إلى الغفلة، ونحن في أشد الخجل منك أيها القارئ - إذ تركنا الجوهر وناقشنا القشر، ولكن لا بد مما ليس منه بد.
فنقول: إنه من المعروف عند من له أدنى إلمام باللغة العربية أن يقال لمن لبس القميص تقمص، ولمن لبس الكساء تكسى، ومنه قول الشاعر سعد بن الصيفي
574 هـ المعروف بحيص بيص:

(1) قضية التصوف المنقذ من الضلال - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود ص (43).

تشربس أو تقمص أو تقبى فلن تزداد عندي قط حبا

تملك بعض حبك كل قلبي فإن ترد الزيادة هات قلباً⁽¹⁾

ومنه أيضاً قولنا لمن ليس الصوف تصوف: أي ليس الصوف، وهو أمر معروف ومشهود عند أهل اللسان العربي حقيقة، لا الذين يتحدث عنهم المصنف الذي تتسنى له القطوع بمنتهى السهولة والبساطة، فيحذف من الدين واللغة ما يشاء ويقر ما يريد، والآخرى بالمسلم أن يقول لما لا يعرف: لا أعلم، وليس في هذا ما يعيب، ولكن سامح الله بفضلته وكرمه من يأبى إلا القطع وإن كان بدون معرفة. وقد قيل الكثير عن اشتقاق كلمة التصوف، فالبعض يرى أنه جاء من «صوفة» وهو اسم لرجل يدعى «الغوث بن مر»، وكان قد انقطع لخدمة الله تعالى عند البيت الحرام وذريته من بعده، فمن عمل عمله فهو صوفي.

وقال ابن الجوزي، والزمخشري في أسس البلاغة، وينفس المعنى تقريباً في القاموس للفيروزبادي وغيرهم: (إنه كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوف انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية)⁽²⁾.

وللشيخ حسن رضوان رضي الله عنه اجتهاد جميل في الموضوع إذ يقول: «الصاد صرف الهممة القوية، والواو وقوفه على الحدود، والفاء للفتوة»، وقال غيره: «الصاد صفاء، والواو وفاء والفاء فناء، والياء بمن وبركة».

ولفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رأي آخر - ولشدة سوء حظ المصنف - هو مثل ما سبق من جيد اللغة فيقول مرجعاً مصدر الكلمة للمصفاة: (صوفي فلان أي صافاً ربه فصافاه، فيكون فلان صوفي أي أصبح فعل، لكن الناس تأخذها نسبة للاسم فتقول: لا إنه صوفي أي قبل الله صفاءه له بصفاء الله له، أي أنه أصبح الآن مصافاً فنقولها صوفي، عندنا «ال» تدخل على الفعل فتعطيه اسم موصول، ونستطيع أن نمثل ببيت الشعر الذي يقول:

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان - تحقيق إحسان عباس ج 6 ص (125).

(2) انظر القاموس المحيط للفيروزبادي ج 3 ص (164).

ما أنت بالحكم الترضي حكومته .

فإذا رفعنا «ال» ووضعنا «الذي» أصبح ما أنت بالحكم الذي ترضي حكومته، بالقياس على هذا الأساس تكون «ال» حرف موصول وليست «ال» تعريفية، وما دامت «ال» حرف موصول نستطيع أن نرفعها ونضع مكانها اسم موصول حتى يتضح المعنى فنقول: فلان هذا «الصوفي» أي الذي صوفي وتكون «ال» هنا اسمها موصول حرفي، وهذا الموصول صلته إما أن يكون فعل أو مشتق، والصوفي هو الذي صوفي من الله⁽¹⁾.

وبعد كل هذه الآراء فأين - أيها المصنف - أهل اللسان العربي الذين أنكروا أن يكون لفظ التصوف عربياً؟ أجب وبالجواب الصريح الصحيح .

وقد ذكر السلمي، والقشيري، وأحمد زروق وغيرهم معظم الآراء التي قيلت في أصل اشتقاق كلمة تصوف، وبينوا ما لا يصح منها، ومن بينها صف وصفا المذكورتان سابقا من قبل المصنف، ولو أنه رجع إليها لوجد فيها ما كان يوفّر عليه عناء كثيراً .

ونحن كما قلنا ننسب كلامه للغفلة فقط، ونعلمه بأن الاستعمار الذي حدثنا عن أكله للحم والعظم في الصفحات السابقة لا يطمع وفق نظرياته الحديثة في أكثر مما قاله، فالاستعمار الثقافي وهو أخطر أنواع الاستعمار أهم دعامة فيه تقوم على سلب الشعوب المستعمرة علومها وثقافتها، وجعلها بلا هوية فتتقاد وتتبع كل ناعق وزاعق، ولهذا وعندما أنشئت الجامعة المصرية القديمة واستدعي «سانتلاتا» وهو أحد كبار علماء الفلسفة لتدريس المذاهب الفلسفية استفتح درسه بقوله: (إن العلوم الإسلامية مؤسسة منذ بدء نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان، بل وعلى أوهام اليونان)⁽²⁾، والغريب هو اقتناع بعضهم وترديده لهذه الأفكار .

(1) مشوار حياتي آراء وأفكار - فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوي ص (36).

(2) التفكير الفلسفي في الإسلام - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود ص (254).

مصادر التصوف المزعومة

ولهذا فالتصوف قد أخذناه عن الغنصوية والثيوصوفية الغربية، إذ ربما ذهب الإمام الجنيد صحبة أستاذه السري السقطي إلى اليونان في دورة علمية تخصصية لدراسة المذهب الأيوني في فلسفة فيثاغورس، وللإطلاع على المذهب الإسكندراني عند أفلوطين، وإلا فبالتأكيد أننا أخذناه عن «المستيسم» المسيحي حتى ولو كان هذا المستيسم المزعوم ليس له مدلول في اللغة العربية، ولا يمكن ترجمته إلى أي لفظ عربي على الإطلاق، ولا بأس أيضاً بأن يكون من الحكمة اليونانية إذ وجدت، وإذ إنهم يطلقون لفظ «صوفيا» بمعنى حكيم، الذي ربما يكون قد حرف مع الزمن إلى كلمة صوفي، ولا يهم كون هذا مخالفاً للأصول المعتادة للتعريب عند العرب.

وبما أنه قد قام على العناصر السابقة، فمما لا شك فيه أنه قد تأثر بطريقة غير معروفة بعد بالفلسفة الهندوكية والنرفانا التناسخية، غير ناسين لدور البراهمة وعقيدتهم في «آتمان»، فإن هناك علاقة بين أسلوب تفكير يوينشاد وابن عربي، وبالطبع كون ابن عربي من الأندلس ويوينشاد من أقاصي آسيا وبينهما مئات السنين أمر لا ينظر إليه، إذ من الواضح لكل ذي عيان وجنان أنهما يجسمان نظرية «براجاتي».

وفي هذه المعمة المنطقية يدلي السيد براتراند راسل برأي وجيه يجب عدم إسقاطه، وهو أن (الفلسفة الدينية عند المتصوفة جميعاً هي مزيج من العقائد الفارسية القديمة⁽¹⁾)، وعليه فالتصوف مر على كفار فارس ليلتقي بزرادشت، ولا غرابة في هذا، فبعض رجال التصوف ينحدرون من سلالات فارسية كآبي يزيد البسطامي، وإبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي، وهذا بنفسه مبرر كاف ومقنع جداً، وإن كان سيسقط كل كتب الحديث والتفسير، لأن معظم كتابها غير عرب، وخاتمة المطاف أن يفتخر أحدهم قائلاً: (كنت أول من أشار إلى هذا العنصر من

(1) تاريخ الفلسفة الغربية - ترجمة نجيب محمود ج2 ص (196).

عناصر التصوف الإسلامي، ثم بدا لي مع الأيام أنه أشد أثراً مما بدا في الوهلة الأولى، أن تنظيم التصوف في الإسلام يرجع إلى أسس وقواعد صينية^(١).

والحقيقة التي تقال هي: يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإن المصدر الوحيد للتصوف الإسلامي هو القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، وما هو في حقيقته إلا تطبيق عملي لهما رغم أنف جولد زيهر، وماسينون، وراسل، وغيرهم ممن ينطق بلساننا ويفكر براء وسهم.

ويكفي للدلالة على سخف وضلال هذا الأسلوب في التفكير أن انتهجه مشركو قريش فقالوا: إن رسول الله يختلف إلى بلعام بن قين، وقيل: أبي اليسر النصراني ليتعلم منه، فكان جواب الله تعالى بسيطاً ومحكماً في نفس الوقت: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: 103).

ونحن أيضاً نقول: إن من تنسبون التصوف لهم أعاجم، وهذا لسان عربي مبين، فلماذا تأبون إلا أن تعجموه؟.

ثم إن هؤلاء المستشرقين ومن سار على نهجهم، بعد أن نسبوا التصوف إلى جهات الدنيا الأربع عادوا فقالوا: إن الطب هو الآخر قد أخذناه عن اليونان، بدليل أن العرب قد ترجموا كتب جالينوس وأبقراط، وكذلك الفلسفة عن أرسطو وسقراط، وما الكندي والفارابي وابن رشد إلا من أتباع المذهب الأبيقوري، أو رأى اكسنوفانسي الأيلي أو بروديكوسي السوفسطائي، وكان علماءنا هم فقط آلة كاتبة لا تتأثر ولا تؤثر، وكل علم هو أجنبي مكتوب بلغة العرب، فلا أصالة ولا عبقرية لهم.

فما أجدرنا بالانتباه والتصدي لمثل هذه الدسائس الهدامة، فإنها جرائم قاتلة موضوعة بيننا، مهمتها غسل أدمغتنا وتحقير عقولنا.

(١) تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون - دكتور/ عمر فروخ ص (474).

وغير ضائرنا قول أحد اللاهثين في الدعوة إلى التصوف في هذه الأيام - هو عبد القادر عيسى شيخ الطريقة الشاذلية بالشام في كتابه حقائق عن التصوف، الذي دلس فيه وغش أمة الإسلام بحيث لم يذكر من التصوف إلا الوجه المشرق، وأخفى عن علم الوجه المظلم المليء بالشرك والبدع المحرمة والكفریات - إن إنكار بعض الناس لفظ «التصوف» بأنه لم يسمع في عهد الصحابة والتابعين مردود، إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة، واستعملت ولم تنكر كالتحو والفقه والمنطق.

الشيخ عبد القادر عيسى

إن الشيخ الفاضل السيد عبد القادر عيسى هو أحد علماء الإسلام الدالين على الله بالحال والمقال، وكتابه حقائق عن التصوف يدل على فضله وعلمه، وأما وصفه بأنه من اللاهثين وقذفه بالتدليس والغش فإننا ما كنا نود للمصنف أن يصدر منه مثل هذا، وإذ نزل إلى ساحة السباب والشتائم والشتآن فماذا ترك للرعاع والدهماء، إذ يجب على كل مسلم توقير واحترام أخيه المسلم، قال رسول الله ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»⁽¹⁾، وأرجو أن أكون مأذونا من الله تعالى في أن أقول للمصنف نيابة عن السيد عبد القادر عيسى: سامحك الله وغفر لك بمنه وكرمه.

وأما إنه ذكر من التصوف الوجه المشرق وأخفى... إلخ، فإننا نقول: إن التصوف الذي نعرفه هو الذي ذكره السيد عبد القادر عيسى في كتابه حقائق عن التصوف، وهو الموجود في كتب الصوفية كمؤلفات الغزالي، وعوارف المعارف، والرسالة القشيرية ومؤلفات ابن عطاء الله السكندري وغيرها.

(1) رواه مسلم.

وأما الوجه المظلم الملقى بالشرك فلا وجود له إلا في وهم المصنف، ووهم المصنف ليس بحجة على أحد، والأمر المحير هو أن يترك المصنف وأمثاله - سامحهم الله - الكتب الصوفية المعترف بها الشارحة للتصوف وعلومه، بعد أن يعترفوا بأن بها الوجه المشرق ويهرعوا لالتقاط كلمة من هنا وعبرة من هناك، ويسموها الوجه المظلم... فلا يكاد ينقطع العجب من غرابة هذا المسلك.

وفات هذا الشيخ أن إنكار السلفيين لفظ التصوف ومعناه أن التصوف استعمال معولا لهدم الإسلام، وتفتيت عقائده وإبطال شرائعه وأحكامه، وأما لفظ النحو والفقه فقد استعمال لحفظ الإسلام والإبقاء عليه، ولفهمه ومعرفة ما جاء به من الهدى والنور والخير والشر، وشتان ما بين الاصطلاحين، إن الأول للهدم والتخريب، والثاني وضع للبناء والتعمير، ومن يسوي بين ما يبني وما يهدم، إن التصوف أخي المسلم ليس كما يقول دعاة باطلا وزورا: إنه علم تعرف به أحوال تركية النفس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية، ولا هو استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق ديني، ولا هو ما عرفوه به ووضعوا له من حدود ورسوم لا تعدو كونها حبرا على ورق.

لله در المصنف، طالما يكرر ويتعب نفسه من تكرير ما كرر، وكل ما قاله سبق وأن تحدثنا فيه بما لا مزيد عليه، فليعفنا القارئ الكريم من إعادة ما قلنا.

وإنما هو بحسب واقع المتصوفين منذ أن نشأ التصوف في القرن الرابع، واستغله الزنادقة والباطنية وغلاة الحاقدين على الإسلام من يهود ومجوس وصليبيين، بضرب العقيدة الإسلامية ووحدة المسلمين وقوتهم،

إنما هو أي التصوف أسلوب من الاحتيال والنصب والتدجيل، يستدئ
بذكر الله وينتهي بالكفر والعباد بالله، أوله اتباع وآخره ابتداء، ظاهره
التقوى والطهر وباطنه الفجرة والعهر.

نشأة التصوف

إن المصنف - أرشده الله - في سبيل تأكيد ما يقول خالف كل معقول
ومنقول، ثم ذهب إلى أبعد من هذا فخالف بل ناقض كلامه، الأمر الذي يؤكد
سوء فهمه وعدم الاطلاع الصحيح على ما يكتب عنه، مما يجعلنا ننصحه بعدم
التسرع لما قد يؤدي إليه التسرع وسوء الفهم من إحقاق باطل أو إبطال حق، وكما
قيل: أسأت فهما فأسأت جوابا، ولأن التصوف كما قلنا وكررنا حتى كَلَّ البراع
ومَلَّ الذراع هو التطبيق العملي للإسلام، وهو ما كان عليه صحابته رضي الله عنهم، بل
واشتهر أهل الفضل والصلاح بهذا الاسم حتى قبل الإسلام، ولأن كلام المصنف
عن نشأة التصوف في القرن الرابع، في محاولة ساذجة منه لإثبات عدم أصالة
التصوف وأنه لم يعهد عن كبار سلف الأمة وعلى رأسهم الصحابة، وكان الحقائق
تبطل بالدعاوى الفارغة الضالة المضلة، لا أساس له من الصحة، بل لم يعرف إلى
الصحة سبيلا، فسنجيب عليه بكلامه هو.

وسيرى القارئ الكريم في كتابه هذا الذي بين أيدينا أن المصنف قد نسب
أقوالا إلى الإمام الجنيد، والسيدة رابعة العدوية - وهما براء منها كما سنبين في
حينه - في ظاهرها مخالفة للشرعية ليدلل عن طريقها على رأيه المعروف المرفوض
في التصوف وأهله، على أساس أنه لا يجادل أحد في كونهما - وهو الصحيح -
من كبار المتصوفة.

والأمر الغريب العجيب أن كل من له أدنى إلمام بمثل هذه العلوم يعرف أن
الإمام الجنيد توفي في 270هـ، أي أنه عاش وتوفي في القرن الثالث، والأغرب

الأعجب أن السيدة أم الخير رابعة العدوية توفيت في 135هـ على أصح الأقوال، وفي 185هـ على أضعف الروايات أي في القرن الثاني .

فكيف يا أيها المصنف نستطيع أن نجتمع بين هذين القولين المختلفين، وكيف يصح أن يولد الابن قبل الأب والحفيد قبل الجد .

بعض من صوفية القرون الخيرية الأولى

هذا عدا الكثير غير من ذكرت، ويعرف كل من له ولو شبهة علم أنهم من الصوفية، كمحمد بن واسع 123هـ، ومالك بن دينار 131هـ، وداود بن نصير الطائي 165هـ، والفضيل بن عياض 187هـ، وشقيق البلخي 194هـ، ومعروف الكرخي 200هـ، وأبي سليمان الداراني 215هـ، وبشر الحافي 227هـ، وحاتم بن عنوان الأصب 237هـ، والحارث المحاسبي 243هـ، وذو النون المصري 245هـ، وسري بن مغلس السقطي 253هـ، وأبي يزيد البسطامي 261هـ، ويحيى بن معاذ الرازي 258هـ، وسهل بن عبد الله التستري 283هـ، والمئات قبلهم وبعدهم .

عودة إلى لفظ التصوف

بل وحتى لفظ التصوف ذاته عرف قبل القرن الرابع الهجري بكثير . يقول الكندي متحدثاً عن سنة 201هـ: (وظهرت بالأسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر)⁽¹⁾ ، ويقول أيضاً: (وكانت بمصر جماعة من الصوفية يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر، وكان ابن المنكر منهم)⁽²⁾ ، وكان جابر بن حيان المتوفى في 190هـ يسمى بجابر الوصفي، وكذلك أبو هاشم الصوفي المتوفى في 150هـ، والجاحظ المتوفى في شهر محرم من سنة 255هـ يضع عنواناً لأحد فصول كتابه أسماء « الصوفية من النساك ممن كان يجيد

(أ. 2) الولاة والقضاة - محمد بن يوسف الكندي ص (162-163، 440).

الكلام»^(١)، مما يدل بداهة على أن الصوفية قد عرفوا قبل ذلك التاريخ بكثير، بل وجمع حديث من يتقن علم الكلام منهم.

روى المسعودي عن يحيى بن أكثم: (أن المأمون لجالس إذ دخل عليه عليّ ابن صالح الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين! رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ويطلب الدخول للمناظرة، فقلت، إنه بعض الصوفية، فأردت بأن أشير ألا يؤذن له فبدأ المأمون فقال: ائذن له، فدخل رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله في يده فوقف على طرف البساط فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: وعليك السلام، فقال: أتأذن لي في الدنو منك، قال: ادن، فدنا، ثم قال: اجلس فجلس، ثم قال: أتأذن في كلامك، فقال: تكلم بما تعلم أن الله فيه رضا، قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته، أبا اجتماع من المسلمين عليك ورضا منك أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك... إلخ)⁽²⁾.

وإذا علمنا أن المأمون بويح بالخلافة يوم الخميس ٥ صفر ١٩٨هـ وتوفي في ٨ رجب ٢١٨هـ اتضح أن محاولات الهزوء والسخرية بعقل القارئ التي يتعمدها البعض، كإقناعه بأن التصوف قد طرأ على الأمة محاولات لا تنطلي إلا على السذج والبلهاء.

وقال الحسن البصري رحمه الله المتوفى في ١١٠هـ: (رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا لم يأخذه وقال: معي أربعة دنانير فيكفيني ما معي)⁽³⁾.

وجاء في كتاب أخبار مكة: أن قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف، وعليه فإن هذا الاسم كان يطلق كما قلنا على أهل الفضل والصلاح حتى قبل الإسلام.

(١) البيان والتبيين - الجاحظ، مقدمة الجزء الأول ص (١٣).

(٢) مروج الذهب - للمسعودي ج ١ ص (٣٤١).

(٣) اللمع - للسراج الطوسي.

الله الله يا عباد الله، كم عانت أمة الإسلام من الفرقة والانقسامات بسببه، وكم ضيقت ونالها من الشر والسوء على يد دعااته ومتبنيه، استعان به الاستعمار على فتح الدار وإلحاق العار، ثم اتخذ العدو المداهم لبلاد المسلمين من الشرق والغرب من عيون تدله على ضعف المسلمين وعوراتهم، وألسن تخبره عما يخفيه المسلمون عن عدوهم من أمور حربهم وسلمهم وذلك من مشايخ الطرق والتصوف، والتاريخ حافل بهذه المخازي وصفحاته تقرر بذلك ولا تنكره، وتعترف به وتشهد عليه.

ما قام للحق عمود، ولا أخضر للحقيقة عود إلا بإقامة الدليل واستحضار الحجة، وكل ما قاله المصنف - سامحه الله - لا يساوي المداد الذي كتب به لخلوه من البرهان.

حقائق من التاريخ

وأما حديثه عن صفحات التاريخ، فإنه من المؤكد وقد رأينا اتساع دائرة معلوماته التاريخية أن لديه مصادر خاصة به، وجد فيها مثل هذه الحقائق والوثائق، وعلى كل حال ليسمح لنا بأن ننقل له مما بين أيدينا من مصادر التاريخ أقل القليل من مآثر السادة الصوفية التي سطرت لهم بأحرف من نور في مصادر التاريخ الإسلامي المعروفة المعتمدة.

فيتحدث الأمير شكيب أرسلان في مرجعه الإسلامي الكبير حاضر العالم الإسلامي عن أتباع الطريقة القادرية فيقول: «هم أحسن مبشري الدين الإسلامي في غربي أفريقيا من السينغال إلى بنين التي بقرب مصب النيجر، وهم ينشرون الإسلام بطريقة سلمية بالتجارة والتعليم، وتجد التجار الذين من السونينكة والماندجولة المنتشرين على مدن النيجر وفي بلاد كارتا وماسينه كلهم من مريدي الطريقة القادرية، ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم، ويفتحون كشافات ليس في زوايا الطريقة فقط بل كل القرى، فيلقنون صغار الزنح الدين

الإسلامي أثناء التعليم ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين أي أساتذة، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان»⁽¹⁾.

ويفيض في التحدث عن النهضة الإسلامية في أفريقيا ويختم حديثه قائلاً:
(وأكثر أسباب النهضة الأخيرة راجعة إلى التصوف والاعتقاد بالأولياء)⁽²⁾.

ويقول فنستان مونتاي: «إنه في سنة ١٩٤٩م قدم قس للتبشير في شمال داهومي، ووصل بعد ثلاث سنوات داعية متصوف لنشر الإسلام، وبعد مضي عشر سنوات لم يستطع القس أن ينصر سوى عشرة أشخاص، في حين دخل نصف القرية الدين الإسلامي على يد ذلك الصوفي»⁽³⁾، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ويفيض العلامة الندوي في كتاب «المسلمون في الهند» في الحديث عن مواعظ رجال التصوف ونصحهم للعامة، الذي يؤدي إلى تعطيل تجارة الخمر في كلكتا وهي كبرى مدن الهند ومراكز الإنجليز، فكسدت سوقها وأقفر الحانات واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة متعللين بكساد وتعطل تجارة الخمر»⁽⁴⁾.

ويقول الأستاذ صبري عابدين: (رأيت على حدود الحبشة والسودان وأريتريا بعثة سويدية للتبشير، وجدت إلى جانبهم أكواخاً أقامها الصوفيون وأفسدوا على المبشرين السويديين إقامتهم أربعين سنة، ولذلك أرجو أن نتعاون لإخماد هذه الحركات التي تؤذي ديننا وسياسياً، وإن الذين يحملون على الصوفية ليسوا فوق مستوى الشبهات، بل هم غارقون في الشبهات)⁽⁵⁾.

(2-1) حاضرم العالم الإسلامي ج2 ص (396).

(3) مجلة تراث الشعب الليبية ص (106)، نقله الأستاذ عبد الحميد الهرامة عن مجلة كلية الآداب العدد الثالث ص (114).

(4) المسلمون في الهند - أبو الحسن الندوي ص (140).

(5) نقله الشيخ عبد القادر عيسى في كتاب حقائق عن التصوف ص (347)، عن مجلة لواء الإسلام - السنة التاسعة - العدد العاشر ص (645).

ولا يخفى أن انتشار الإسلام في أفريقيا وآسيا على وجه الخصوص والعالم عامة، كان للسادة الصوفية فيه اليد الطولى والطريقة المثلى، ولولا ما نحاول جاهدين الالتزام به من الاختصار لذكرنا الكثير من مثل هذه الحقائق التاريخية، لا الادعاءات الجوفاء.

وسوف نذكر صوراً حية وأمثلة صادقة عند ذكر كل أصل من أصول التصوف التي ظاهرها مشرق وباطنها محرق، والتي ما زال المضللون والمخدوعون والمغرورون يعرضون الوجه المشرق منها ويخفون الوجه المظلم المحرق.

لغيرك الجهل أيها المصنف، إن هذا الإصرار منك على تكرير عبارة الوجه المظلم، والذي لم نعلم به إلا ببركة علومك يدفعنا إلى أن نطرح السؤال التالي: بما أنك تُقر أن للتصوف وجهاً مشرقاً يظهره الصوفية ويخفون المظلم، فكيف عرفت هذا الوجه المظلم وهم يخفونه باعترافك، فإن كنت قد علمته فمن المؤكد أنه علمه غيرك بالإضافة لك، مما لا يجعله مخفياً، وإن كنت لا تعلمه فكيف تقرر بوجوده؟ ما هذه الغفلة أرشدك الله.

ولا أدري ما يحملهم على ذلك، ألم يكن في هدى الله ورسوله من فنون التربية وأنواع العبادة ما يزكي النفوس ويظهر الأرواح، ويهذب الأخلاق، ويوصل العبد إلى حضرة القدس، ويذيقه طعم الأُنس بربه سبحانه وتعالى؟ بلى إن في ذلك لغنى كبيراً عن شطحات التصوف وخيالات المتصوفين ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

يبدو أنه لدى المصنف معلومات أخرى مؤكدة، تفيد أن الصوفية يتعبدون ربهم بغير هدى الله ورسوله ﷺ، وربما كانوا يؤمنون بأمون أو حورس أو رع كقدماء المصريين، بدلاً من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، أو يصلون بالوقوف وقت طلوع الشمس وغروبها كما يفعل البيزيدية عبدة الشيطان، عوضاً عن الصلاة المكتوبة، أو يصومون كالفرقة البهائية الكافرة في الشهر التاسع الذي يلي أيام الضيافة عندهم بدلاً من صوم شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، أو يحجون إلى الدار التي ولد بها البهاء كما يفعل البابية المارقين الكفرة عوضاً عن الحج إلى بيت الله الحرام، فالعلم بهذا عند الله ثم عند المصنف .

ب) أصول التصوف: إن للتصوف أصولاً تواضع عليها أهل هذه البدعة من نشأتها، فلا تعرف حقيقة التصوف إلا بالنظر في تلك الأصول، والوقوف على ما فيها من حق وباطل وخطأ وصواب، وسنكتفي بذكر أصول منها وهي أهمها، ومن خلال استعراضها نتبين ما جرته هذه البدعة على أمة الإسلام من أضرار وأخطار، والغرض من هذا كله تنبيه أمة الإسلام وتحذيرها من الوقوع في حبال هذه البدعة مرة أخرى، حيث نشط اليوم دعائها من أدعيائها والمغرورين ببهرجاتها وزخرف القول فيها، ولا يبعد أن يكون المحرك لأدعياء التصوف في هذه الأيام أصابع الماسونية العالمية، لما رأيت من تحرك الشباب المسلم نحو الإسلام وإقباله على التدين الصحيح المستقى من الوحيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فخافت من عاقبة هذه الصحو أن تنقلب نهضة إصلاحية شاملة، فتتخذ العالم الإسلامي من سيطرتها وتخلصه من أنيابها، وتنشله من أظفارها الناشبة فيه، منذ أن أردته صريعاً بسكين التصوف البغيض، وها هي تلك الأصول نستعرضها أصلاً بعد أصل، لنرى ما تحمله من خراب ودمار لأمة الإسلام الخيرية الكريمة .

أصول التصوف

إن ما ذكره المصنف عن أصول التصوف سنوافقه عليه على سبيل المجازاة فقط، وأما أصول التصوف التي نص عليها القوم قد حددها الإمام النووي إمام أهل الحديث فقال: أصوف التصوف خمسة:

- 1- تقوى الله في السر والعلانية.
 - 2- اتباع السنة في الأقوال والأفعال.
 - 3- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.
 - 4- الرضا عن الله في القليل والكثير.
 - 5- الرجوع إلى الله في السراء والضراء⁽¹⁾.
- وذكر سهل التستري رضي الله عنه نفس هذه الأصول بتفصيل أكثر فقال:
- أصولنا سبعة أشياء:

- 1- التمسك بكتاب الله.
- 2- الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ.
- 3- أكل الحلال.
- 4- كف الأذى.
- 5- اجتناب المعاصي.
- 6- التوبة.
- 7- أداء الحقوق⁽²⁾.

وقال الشيخ سعيد المغربي: (أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمان المشايخ، وإقامة المعاذير للخلق، والمداومة على

(1) رسالة المقاصد - الإمام النووي ص (20).
(2) الطبقات الكبرى - الإمام عبد الوهاب الشعراني ج 1 ص (66).

الأوراد، وترك الرخص والتأويلات وما ضل عن هذا الطريق إلا انحط من مقام الرجال^(١).

فهذه إجمالاً هي الأصول التي يقصدها الصوفية عند كلامهم عن أصول التصوف، وهو أمر متداول ومعروف ومشروح بتوسع في كتبهم، وأما التي ذكر المصنف فكما قلنا: سنجاريه في تسميتها بالأصول نزولاً على رأيه، وأما باقي كلامه عن الأنبياء والسكاكين والأطافر والماسونية، فهي من باب السباب والشتائم وليس لهما عندنا رد.

الأصل الأول

الطريقة: ما تعني كلمة الطريقة، أنها تعني اتصال المريد - المراد بالمريد من يريد الوصول إلى الله تعالى بطريق الأذكار والحفاظة عليها.

المريد

إكمالاً للمعلومات المصنف عن المريد نقول: إن كلمة مريد تصدق على كل من أراد الوصول إلى الله، والوصول إلى الله هو الوصول إلى المعرفة به، وللمريد صفات وآداب معروفة عند القوم منها: الانشغال بالله والإعراض عما سواه، وحب كل ما أحب الله، وبغض كل ما أبغضه، وغض الطرف عن المحارم، وترك فضول الحلال، وإدامة الطهارة فإنها نور، وعدم الطمع في ما في أيدي الناس، ومداومة الذكر سرراً وجهراً وفكراً، والاجتهاد في تحصيل وأكل الحلال، إذ إنه من أهم الأصول، والكف عن الحرام والتواضع والنظافة الظاهرة والباطنة والصبر والشكر وتجديد التوبة عند كل هفوة أو زلة.

(١) تحفة السالكين - الشيخ محمود بشير القادري ص (٩).

الإمام الشاذلي ودوره الإصلاحي

نعم هذا صحيح، ولا بأس من إلقاء الضوء على بعض جوانب الدور
الإصلاحي للإمام الشاذلي رضي الله عنه ولأتباعه من بعده في أمة الإسلام، وإن
كان هذا الدور غني عن التعريف، ولكن ما باليد حيلة فنقول: إن الهبوط
والانحلال والفساد كان هو السمة السائدة للفترة التي سبقت مجيء الإمام
الشاذلي إلى مصر، ومن مظاهره:

1- على صعيد الحكم: تولى حكم مصر «العاذل أبو بكر الكامل» وقد
حكم إلى 638هـ - 1240م واشتهر عهده بالفوضى والاضطراب والتأخر والانحلال،
وكان شابا مستهترا يخالط الشبان ويقتل معهم وقته في اللهو واللعب، فخلت
خزانة الدولة من المال وعم الفقر البلاد.

2- ولا ننسى الدولة العبيدية، وكانت في الفترة التي سبقت مجيء الشاذلي
إلى مصر والتي سقطت في 567هـ - 1171م، قد زعزعت بحكم العقيدة التي قامت
عليها الكثير من القيم والمبادئ الإسلامية، وانحرفت عن أركان وأسس الإسلام
السمحة، لتدخل في عقول الناس قيما وأفكاراً تتلائم مع طبيعة تكوينها ومبادئها
التي قامت على اعتقاد حلول الله سبحانه وتعالى في السلطان العبيدي واعتقاد
ألوهيته، وجملة من مثل هذه العقائد الباطلة المشوشة، وقد كان الحكام العبيديون
يشجعونها ويجيزون من اعتقد أو ساعد على نشر هذه الأباطيل، قال محمد
البديل يمدح عبید الله بن المهدي لما قدم رقادة:

حل برقادة المسيح	حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى	حل بها الكبش والذبيح

حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ربح⁽¹⁾

وبلغ الأمر أن جعل بعض أتباعهم صيغة الإيمان والقسم عندهم : (وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برفادة⁽²⁾)، وجعل البعض من السلطان العبيدي قبلة يصلون إليها⁽³⁾، والآخر يتصدى لعبيد بن المهدي قائلا : (ارق إلى السماء كم تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق)⁽⁴⁾.

ومدح ابن هاني الأندلسي المعز العبيدي بقوله :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فكان أن نتج عن هذا الانحراف عن مبادئ الإسلام أن تأثر الكثير من عامة الشعب وخاصتهم بهذه الأفكار، وكثر انتشارها في أوساط الأمة، ومن هنا نرى ما يعنيه كون الإمام الشاذلي مسلما على مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى مذهب الإمام مالك في الفقه، وعلى العقيدة الإسلامية السليمة، ومن هنا نعرف لماذا كان اهتمامه بتدريس كتب الحديث والفقه والتفسير، ونفهم ما يعنيه بقوله : (من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعي)⁽⁵⁾، بل وإن كل أحزابه ما هي إلا دعوة لكل قارئ لها إلى معرفة الله سبحانه المعرفة الإسلامية الصحيحة النابعة من الكتاب والسنة وعبادته تعالى كما أمر.

بل إن مشائخ التصوف دأبوا على تأليف وترتيب الأحزاب لأتباعهم، إذ إنها تخاطبهم ببساطة وتدلهم على بارئهم بسهولة خاصة، إذا علمنا أنهم كانوا دائما يخاطبون تلك الفئة كثيرة العدد عامية الثقافة، وهم أفراد الأمة البسطاء من صانع وتاجر وفلاح وغيرهم، هذا فضلا عما أودعه الله تعالى في أحزابهم وأورادهم من بركة يعرفها ذوو البصائر.

(1) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - ابن عذاري المركشي ج 1 ص (160).

(2) المصدر السابق ج 1 ص (160).

(3) المصدر السابق ج 1 ص (186).

(4) المصدر السابق ج 1 ص (186).

(5) الأنوار القدسية - الشيخ محمد ظاهر المدني ص (131).

3- انتشار الفقر والفقر والمعارك في تلك الأحياء بين المسلمين من حكام، وهم الأيوبيون وخليط المماليك والرعية، كما حدث في الثورة المشهورة التي قادها الشريف حصن الدين ضد أولئك الحكام.

4- وأدت كل هذه العوامل مجتمعة إلى هبوط المستوى الأخلاقي والوابع الديني، واتسمت أخلاق المجتمع بالتحلل والمجون والخلاعة والاستهزاء بمبادئ الدين الحنيف، ويعطينا ابن إياس صورة مظلمة ومخيفة عن تلك الفترة فيقول في تاريخه: «ودخلت سنة 665، فيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر بإحراقها وخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمر وأراقها، ومنع الحانات والخواطى، واستتاب العلوق واللواطى، وعم هذه الأمور سائر الجهات المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك في سائر الجهات الشامية»⁽¹⁾.

وينقل أيضا عن ابن دانيال قوله: «وهزم أمر السلطان جيش الشيطان، وتولى الخوان والي القاهرة إراقة الخمر، وإحراق الحشيش، وتبديد المزور، واستتاب العلوق واللواطى، وحجر البغاة والخواطى، وشاعت بذلك الأخبار ووضع الإنكار، وضلب ابن الكازروني⁽²⁾ وفي رقبته نبيذية، فدعاني بعض أصدقائي إلى محله وأنزلني من عياله وأهله، واعتذر إليّ عن تقصيره في الإكرام إذ لم يأتني بمدام وقال: قد غلب على ظني أن أبا مرة⁽³⁾ قد مات وعد في الرفات، فقم بنا نبيكه ونصف الحال ونثره، فابتدأت وقلت في معنى هذه الواقعة التي وقعت:

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه ربه المأنوس⁽⁴⁾

وبالجملة فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الربى وانحطت أخلاق المجتمع، وأصبح

(1) بدائع الزهور - ابن إياس ج 1 ص (104).

(2) صلب الظاهر بيبرس ابن الكازروني بعد أن أتى به إليه في حالة سكر بعد القرار المشار إليه، وعلق برقبته جرة الخمر والقذح، وتركه في المراء مصلوبا مما كان له أثره في ردع الناس.

(3) أبو مرة كنية الشيطان لعنه الله.

(4) بدائع الزهور - ابن إياس ج 1 ص (106).

عمل أصحاب المجون والفجور وارتكاب الموبقات وشرب الخمر هو السمة الغالبة على ذلك العصر، وشمل هذا الانحطاط حتى العلماء، ومن يقرأ كتاب وفيات الأعيان، وبتيمة الدهر، وطبقات السبكي يجد الكثير مما ذكرنا، وتعدى الأمر الممارسة الشخصية إلى استهانة من لا يخشى الله من أدياء العلم بالإسلام والاستهتار بتعاليمه الغراء، وفضح الإمام السبكي مشكورا مثابا إن شاء الله تعالى الكثير من حيلهم وفتاويهم ورخصهم التي قالوا بها للأمراء دون غيرهم حتى قال قائلهم:

الشافعي من الأئمة قائل اللعب بالشطرنج غير حرام
وأبو حنيفة قال وهو مصدق في كل ما يروى من الأحكام
شرب المثلث والمربع جائز فاشرب على أمن من الآثام
وقال الآخر:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به وأكتمه كتمان لي أسلم
فإن حنفيا قلت قالوا بأنني أبيع الطلا وهو الشراب المحرم
وإن مالكيًا قلت قالوا بأنني أبيع لهم أكل الكلاب وهم هم
وإن شافعيًا قلت قالوا بأنني أبيع نكاح البنت والبنت تحرم
وإن حنبليًا قلت قالوا بأنني ثقیل حلولي بغیض مجسم
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه يقولون تيس ليس يدري ويفهم⁽¹⁾

وفي وسط هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، وحالك الدلجة ومطلق العتمة وفساد الواقع والحال، ظهر ذلك النور الإيماني العظيم، والمجدد والمصلح الكريم، الداعي إلى الله على بصيرة وهدى من الكتاب المنير، الإمام أبو الحسن الشاذلي، فدعا الناس إلى الالتزام بتعاليم دينهم والاقتداء بنبيهم، أمراً لهم بالمعروف، ناهياً عن المنكر بأسلوب يخالف ما اعتادوا من جهل واستهتار، به

(1) انظر الكشف للزمخشري ج 3 من (301).

الكثير من الإيمان والشفافية النقية والروحانية الملائكية، وتحدث معهم عن الرضا والتوكل واليقين، وقرع أسماعهم بعبارات التوحيد والصدق والنقاء والإخلاص والتمكين، فأفاقت القلوب من غفلتها وكفت الجوارح عن التماذي في معصيتها، وأقلعت النفوس عن عاداتها وانقادت لهذا الإمام الكريم، تستمع إلى وعظه وتهتدي وتتوب على يديه وتلتزم على علومه، فانتقلت من الضعف إلى القوة ومن التشتت إلى الوحدة، ومن الجهل والاستهتار إلى الالتزام والعلم والإيمان، فانتصرت في أقسى المعارك وأعنفها على أعداء الدين واللسان في حروب صليبية آثمة، واستمرت هذه الصحوة في الزيادة والسمو فأصبحت تلك البقعة خاصة بفضلها الأندلس بعد سقوط الأندلس، وبغداد بعد سقوط بغداد، وانبث ورثة هذا الشيخ في مجتمعات المسلمين يأخذون بأيديهم وقلوبهم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة.

وهذا في الحقيقة مختصر متواضع ومتواضع جداً لجليل علم وعمل هذا الإمام الكريم، ولكننا أردنا فقط أن نعرف من لا يعرف، ويسمع من لم يسمع بالإمام الشاذلي(*) .

وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره، يلتزم به بموجب عقد بينه وبين الشيخ، وهذا العقد يعرف بالعهد، وصورته أن يتعهد الطرف الأول وهو الشيخ بأن يخلص المريد من كل شدة، ويخرجه من كل محنة متى ناداه مستغيثاً به، كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة، ويتعهد الطرف الثاني وهو المريد بأن يلتزم بالورد وآدابه ولا يتركه مدى الحياة، كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها من سائر الطرق.

(*) تناول العديد من الكتاب والباحثين قديماً وحديثاً الإمام الشاذلي، ولمن أراد التوسع ننصح بكتاب «لطائف المنن» لابن عطاء الله السكندري، وكتاب «أبو الحسن الشاذلي» لشيخ الأزهر عبد الحلیم محمود.

أوردها سعد وسعد مشتمل وما هكذا تورد يا سعد الإبل

وما هكذا أيها المصنف - ساعدك الله - تورد الإبل .

قد سبرت كل ما وقع في يدي من كتب التصوف فما وجدت لهذا التعريف ذكر أو أثر، وقد جرت العادة بأن يذكر الناقل المصدر الذي نقل عنه، ولكن المصنف لم يلتزم في معظم كتابه الذي بين أيدينا بهذا الأسلوب العلمي الموثوق به، وأثر أسلوب الهذمة والضوضاء، والغالب أنه وصل إلى هذا التعريف عن طريق ما فهمه من قراءته للتصوف، وفهمه إن جاز تسمية الوهم فهماً لا يجوز أن يتعداه إلى من سواه .

التعريف الصحيح للطريقة

الطريق والصراط والمنهج ألفاظ مترادفة براد بها ما يوصل إلى المقصد آمناً سالكه على نفسه، وإن السالك يفارق ذميم الحال ليصل إلى حميد المآل، ولا يتسنى له ذلك ما دام واقفاً عند كل خلق ذميم ووصف لئيم، ولهذا فهو يسير في الطريق المؤدية للكمال، ومن هنا جاء لفظ طريق أو طريقة، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦)، أي لو استقام القاسطون على طريق الحق والاستقامة لأسقيناهم بالاستقامة ماء غدقا .

ويقول ابن عجيبة رضي الله عنه : (طريق الصوفية وهي الموضوع لكيفية تهذيب القلوب، وتصفيته من الرذائل وتحليتها بالفضائل، لتنتهي بذلك لمعرفة الحق تعالى المعرفة الحقيقية)^(١).

ويتكلم الشيخ عبد الواحد يحيى عن الطريقة بوضوح أكثر فيقول : (إن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط، وهذه الخطوط التي لا تحصى تنتهي كلها إلى المركز، إنها الطرق وهي طرق تختلف تبعا لا اختلاف الطبائع البشرية ولهذا يقال : إن الطرق

(١) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية - أحمد بن عجيبة ص (36).

إلى الله كنفوس بني آدم) ومهما اختلفت فالهدف واحد، لأنه لا يوجد إلا مركز واحد وإلا حقيقة واحدة⁽¹⁾.

ويقول الشيخ محمد ظافر المدني متحدثاً عن سبب تعدد الطرق وأساليبها: لكل طريقة اصطلاح وقتي يوضع لمناسبة الزمان والمكان والإخوان⁽²⁾.

ثم إن هذا السلوك على الطريق لا يتأتى بالتصنع والتكسب، بل هو موهبة من عند الله، فكما أنك لا تستطيع أن تجعل من إنسان شاعراً وإن علمته علم العروض وديوان المتنبي، وشرحت له مختارات التليسي، أو أديباً وإن حفظ عن ظهر قلب كل مؤلفات الجاحظ، وعبرات المنفلوطي ونظراته، وعبد الرازق البصير وأدبياته، كذلك لا تستطيع أن تجعل منه صوفياً ولو قرأ كل ما كتب عن التصوف.

ويشير الشيخ محمد بن عيسى إلى هذه الحقيقة فيقول:

(طريقتنا هذه لا تدخل في قلب قاس، ولا في جسم عاص، ولا في عقل جاهل، ولا تدرك بالقياس، ولا هي خارجة عن الكتاب والسنة، بل هي حكمة علمية وموهبة لدنية على السنة والنية، مساقاة على أثر الأنبياء والأولياء، مع دوام ظاهر صاحبها على الاستقامة، فمن عمل على هذا فهو من حزيننا ومحسوب علينا ومنسوب إلينا، ومن لم يكن مشهوراً ظاهراً أمره على هذا فتحن براء منه وهو بريء منا)⁽³⁾.

هذه هي الطريقة عند المتصوفة، وهي أحد أصول التصوف عند أصحابه، وهذا بيان ما فيها من الباطل والشر والفساد.

(1) قضية التصوف المنقذ من الضلال - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود ص (110).

(2) الأنوار القدسية - محمد ظافر المدني ص (5).

(3) شرح وظيفة محمد بن عيسى - الشيخ أحمد المسعودي الصيد - ص ل بترتيب حروف الهجاء في المقدمة.

وإن تعجب فعجب أن يخترع المصنف - عفى الله عنه - تعريفه المذكور ليصل منه إلى هذه النتيجة، مما جعله في جهة والحق في جهة، ولا زلنا نجل المصنف عن أن يصدق فيه قول شوقي:

وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى ومن الغرور فسمه التضليلا

١) تقسيم أمة المسلمين بين مشائخ ضلال جهال يستغلونهم ويتحكمون فيهم، ويحرمونهم من نعمة الوحدة الإيمانية والأخوة الإسلامية، إذ المعروف أن العداوة متأصلة بين طوائف الطرق إلى حد أن بعضهم لا يجالس البعض ولا يؤاكله ولا يشاربه، بل ولا يزوجه ولا يتعاون معه، ويقول: هذا ليس بأخي من الشيخ، وكفى بهذه التفرقة بين المسلمين باطلاً وشرراً وفساداً.

التصوف وأدعيائه

أولاً: إن كان المقصود بالمشائخ الضلال هم كبار العارفين، كالإمام الشاذلي، وأبي العباس المرسى، وابن عطاء الله السكندري، والجزولي، وأحمد زروق، ومحمد ابن عيسى، وعبد السلام الأسمر، وحسن رضوان وغيرهم من الذين اشتهر عند القاصي والداني فضلهم وعلمهم وقرأ كل من يقرأ مؤلفات من كتب منهم، أو وقف على كلامهم ولطيف إشاراتهم ودقيق عباراتهم فهذا اكتشاف جديد، وقول فريد لم يسبق المصنف إليه سابق ولن يلحقه عليه لاحق، إذ ما من مؤيد أو معارض إلا واعترف بغزير علمهم وسعة اطلاعهم.

وأما إن كان المقصود هم المشائخ الذين أتوا بعد هؤلاء الكمل العارفين، فإننا ننبه إلى أنه ليس كل من تصدر أو تقدم للطريق هو من مشائخها ولا حتى من أهلها.

والشيوخ ثلاثة: شيخ التلقين، وشيخ الخرقة، وشيخ الصحة والافتداء، وهو الذي عليه الاعتماد في تحقيق الوصول لله لا سيما عند السادة الشاذلية عموماً، والتي تكاد تكون هي الطريقة الأكثر انتشاراً في العالم قاطبة، وينقسم شيخ الصحة والافتداء إلى مرب، ومرق، وسنتحدث عن الشيخ وعلاقته بالمريد في حينه إن شاء الله تعالى.

والخلاصة أن للشيخ المتصدر للإرشاد شروطاً دقيقة، وصفات حق وحقيقة، فإن توفرت فيه فهو المقصود بلفظ الشيخ عند الحديث، وإلا ما هو إلا دعي كذاب، قال أحد أهل الطريق:

وللشيخ آيات إذا لم تكن له فما هو إلا في ليالي الهوى يسري
إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجة البحر
وإن كان إلا أنه غير جامع لوصفيهما جمعا على أكمل الأمر
فأقرب أحوال العليل إلى الردى إذا لم يكن منها الطبيب على خير
وآيته أن لا يميل إلى هوى فدنيه في طي وأخراه في نشر⁽¹⁾

وعلى هذا فلا يصدق لفظ الشيخ إلا على كل عالم عامل، ولكن المصنف الذي لا تحصى غفلاته يحاول جهده إلصاق كل عيب تصل إليه يده بالصوفية، فيا أيها المصنف لا يفوتك الخير ويتركك العدل.

فما كل النيران كنار موسى ولا كل الفواطم كالبترول
وما كل من تصدر شيخ، أو تقدم إمام، ولا تثريب على من لا يستطيع
التفرقة بين البحر واليابس.

وأما ما قاله عن عدم مؤاكلة ومشاركة وتعاون بعض أبناء الطرق فهذا يستحيل وجوده بداهة، إذ لو جاع الإنسان قد يأكل حتى مع قاتل أبيه، وأما ما قاله

(1) كتاب منهل الورد - الشيخ جابر أحمد معمر - ص (346).

عن عدم المزاوجة فلنا عنده توضيح نرى أنه لا بد منه : وهو أن التصوف حقائق معروفة وسمات معينة وحدود محددة، فمن سار عليها فهو سالك في الطريق الصوفي، سائر على منهجه، أما من تركها فإن كان متعمداً فهذا أمر معروف ومألوف وموجود في كل الميادين العلمية بأنواعها والمهنية بأصنافها، وكما لا يضر العلم أن ينتسب إليه هؤلاء الأدعياء، فكذلك لا يضر التصوف أن ينتسب إليه هؤلاء، ونكل أمرهم إلى العلیم بذات الصدور، ولكن الغالب أن يكون الخروج عن المسار نتيجة إما لطبع إنساني غالب، ويجب أن نكون واقعيين ولا نطالب بصوفي مثالي نموذجي لا ينطق عن الهوى، وإما نتيجة لجهل وعدم معرفة، وكل من ينتسب للطرق الصوفية اليوم هم نتاج للمجتمع الذي يحوي الفاضل والعالم والجاهل والبسيط والأمي، فبعض هؤلاء من أهل العلم سار على المنهج الصوفي في اتباع العلم بالعمل، وبعضهم كان محدود المؤهلات والقدرات فبقى على ما هو عليه .

نعم أذكر أنني سمعت عن بعض من أتباع أحد الطرق أنهم يمنعون الزواج من غير طريقتهم، وبالتحديد في منطقة غرب أفريقيا وهذا أمر لا دخل للطريقة فيه بل يرجع للأسباب الآتية :

1- انتشار الجهل بأحكام الدين وتعاليمه بين الغالبية العظمى في تلك المنطقة، وأذكر أنني رأيت في مكة المكرمة عند ذهابي لأداء فريضة الحج عام 1983م، وكان معي حبيبنا في الله السيد منصف العوكللي بعضاً من الأفارقة المسلمين يغتسلون عراة في أحد الأماكن العامة .

2- أن الإسلام وقد انتشر في أفريقيا الغربية في القرنين الخامس والسادس الهجري على أيدي الصوفية، واعتنقته الطبقات الحاكمة في عدد من الدول « كالمالدينا » في مالي وولايات الهوسا في شمال نيجيريا، وكذلك في المناطق المحاذية للساحل الغربي ونهر السنغال، وبقي محصوراً في الغالب حتى القرن التاسع

عشر الميلادي في الطبقات الحاكمة ثم انتشر ليشمل باقي الفئات عقب ثورة الفولاني.

3- وفي شرق أفريقيا منعت المملكة المسيحية في بلاد النوبة انتشار الإسلام، وحدت من نشاط دعاته، وبالتالي لم يدخلها الإسلام إلا بصورة متدرجة على أيدي الصوفية والتجار المسلمين، وتستثنى الصومال في تلك المنطقة، إذ انتشر بها الإسلام منذ وقت مبكر.

4- وعليه فإن الإسلام وقد انتشر في أفريقيا على أيدي الصوفية ممن كانوا في الغالب من أبناء الطرق الصوفية المعاصرة، انحصر في مدن وقبائل بعينها، جعل المزاوجة محصورة بين أفراد هذه القبائل أو المدن ممن كانوا يتبعون هذه الطريقة إذ لا تجوز مناكحة غير المسلم، فأنتج هذا منع المزاوجة مع غيرهم وإن كانوا مسلمين خوف الوقوع في المحذور.

وهذا الأمر كما قلنا محصور في جنوب غرب أفريقيا، ولا وجود له في المناطق العريقة في الإسلام كالوطن العربي والدول الإسلامية عموماً، والغالب أنه في طريقه للزوال الآن.

ولقد قلنا سابقاً: إنه ليس كل من ليس معطفاً أبيض طيباً، ولا كل من أمسك قلماً أديباً، كذلك ليس كل من انتسب لطريق القوم صار صوفياً، وهذا هو وجه الخلاف بيننا وبين من يتخذون من هؤلاء ذرائع وأسباباً للإنكار على التصوف وأهله، فإن هذا ياباه الشرع لقوله ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (النجم: 38)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ (المدثر: 38)، وياباه العقل لقبح أن يقاد عمرو بما فعل زيد، وتختلف معهم أيضاً في أسلوب العلاج، فهم يتبعون أسلوب التشهير والإغلاظ في القول، والرمي بتهمة الكفر والشرك والقسوة عموماً، ونتبع نحن الأسلوب الذي سار عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، والرحمة بضعاف المسلمين وعامتهم والشفقة عليهم، قال ﷺ: «خاب عبد وخسر لم

يجعل الله في قلبه رحمة للناس⁽¹⁾، الأسلوب الذي أمر الله سبحانه رسله بأن يخاطبوا به حتى أقسى الجبابة وأعتى الكافرين، فقال لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام في حق فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: 44).

وعلى هذا درج الصوفية الكرام، وعلى هذا ربوا أتباعهم، فيوصي الشيخ محمد بن عيسى أتباعه: (بأن يجعلوا المسلمين في حل ويكفوا ألسنتهم عن أذيتهم)⁽²⁾، ويمر أحدهم بمركب على ظهرها جماعة ماجنة تجاهر بالمعاصي، يلهون ويصيحون فقال له من معه: يا سيدي ادع عليهم، فيبسط يديه قائلا: اللهم كما أسعدتهم في الدنيا أسعدهم في الآخرة.

قال الأستاذ كمال أحمد عون: (شاهدت أثناء زيارة لمولانا رسول الله ﷺ بموسم الحج ثلاث سيدات يبدو أنهن سودانيات بملايسهن الفضفاضة البيضاء يسجدن مستدبرات القبلة مستقبلات للقبر الشريف، فأشرت إليهن بطرف ثوبي قائلا: إن السجود لله وحده فقمي مسرعات مستقبلات للتوجه)⁽³⁾.

فواللهفاه على من يعمل جهده لدعوة المسلمين إلى طريق الحق والرشاد صابرا محتسبا بحنو ورقة ورأفة وحنانة.

وواشوقاه إلى أولئك الصالحين الطيبين ذوي الصدور الحليمة والقلوب الرحيمة الذين يسهرون على إرشاد وتوجيه المسلمين، كما تسهر الأم الحنون على ولدها، والمرضع الرؤوم على فطيمها بحسن سياسة وجميل حكمة وحيلة.

(1) رواه البيهقي.

(2) مختصر الشيخ الغزال في سيرة الشيخ محمد بن عيسى - تأليف أحمد الغزال ص (14).

(3) أولياء الله بين الجافين والموالين - الأستاذ كمال أحمد عون ص (70).

2) تفريق أمة الإسلام وتمزيق وحدتها، إذ ما قامت الطرق إلا على أساس تفرقة المسلمين وتجزئتهم، وتكفيك عرى وحدتهم الروحية والسياسية وقهرهم، والتسلط عليهم كما حصل لهم في عهود الاستعمار البائدة، وما هي ذي آثار ذلك باقية إلى اليوم، فامة الإسلام أم ودولتهم دول، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد زادت غفلة المصنف عن الحد وخرجت عن المألوف، ولو ابتلي بغيرنا لقال فيه الكثير مما يجب أن يقال في من يتهم المسلمين ويقذفهم، ويشنع عليهم بدون دليل ولا بينة كما في الشرع الكريم، ولكننا لا نزيد على قولنا: سامحه الله وغفر له بمنه وكرمه فما عرفنا الصوفية إلا دعاة إلى وحدة المسلمين وجماعتهم.

ثم ما هذا الكلام الذي ما شم ريح الحق عن تفرقة أمة الإسلام إلى أم ودولتهم إلى دول، فإنه منذ صدر الإسلام وانتهاء الخلافة الراشدة كانت دائما هناك دول عدة، وإن جمعها لفظ الإسلام والمسلمين، فقد كان ابن الزبير في مكة يسلم عليه بالخلافة، ويزيد بن معاوية، ثم معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم، ثم عبد الملك بن مروان في الشام يسلم على المتولي منهم بالخلافة.

ثم الدولة العباسية ببغداد، والأمويون ومن بعدهم من ملوك الطوائف بالاندلس، والأغالبة والأدارسة العبيديون والموحدون والمرابطون وغيرهم في الشمال الأفريقي، حتى قال الشاعر وقد ضاق ذرعا بهذا التشتت:

وتفرقوا شيعا فكل جزيرة فيها أمير المؤمنين ومنبر

والدولة الغزنوية والسلجوقية والبويهية بآسيا، ثم العثمانيون في تركيا، والمماليك ومحمد علي في مصر، والمعنيون بالشام، والقره مانليون بليبيا، والباي بتونس، والداي بالجزائر، والأشراف بالمغرب، هذا عدا العشرات من الدول التي قامت في جسم الدول الإسلامية ولم تعمر وتشتهر كالسابقة مما لا يتسع المجال لذكرها جميعها، فأرشدنا يا أيها المصنف - أرشدك الله وساعدك - إلى دور

الصوفية في هذا من قريب أو بعيد، وإنما لترضى منك حتى برائحة الدليل ومقدار الذرة من البرهان، ووزن النملة من التبيان، فالشكوى إلى الله من هذا الباطل .

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة ولكن تفيض الكاس عند امتلائها

ثم - وباللهسذاجة التي لا تحد - إنه من المعروف حتى عند من لم يقرأ سوى عشر صفحات من بقايا كتاب تاريخ وجده ملقى على قارعة الطريق، أنه باستثناء أواخر عهد معاوية بن أبي سفيان لم يكن هناك أبدا اجتماع لكل المسلمين ولا حتى نصفهم تحت حكم خليفة واحد منذ استشهاد الخليفة عثمان بن عفان، فكيف أفسد الصوفية أو غير الصوفية شيئاً لم يكن أصلاً .

ولكن غفلة المصنف تبادت حتى طفق يكتب ما لم يكن، وينفرد بما لا يصح وإن باين الحق وخالف اليقين وعارض أبسط البديهيات، فالمسلمون ما اتفقوا حتى هذه السنة على يوم واحد يبدأون فيه صومهم في شهر رمضان فضلاً عن أن يتحدوا، ولا زلنا بالرغم من وجود المراصد الضخمة القادرة على تحديد مكان وزمان الرؤية نسمع عن فتوى اختلاف المطالع المؤدي لا محالة لاختلاف القلوب، فالامر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

افتراء الشيخ على المريد بأن يخلصه من الشدائد وينقذه من المهالك متى استعان به وناداه، كما يحضر له عند الموت فيلقنه الشهاداتين ويخاصم عند قبره الملكين، وأخيراً يشفع له يوم القيامة فيجوز على الصراط بمعية الشيخ، ويدخل الجنة بشفاعته، فهذا من الشيخ زيادة على أنه افتراء وكذب لا يحل مثله ولا يجوز بحال من الأحوال، فإن فيه تضليل المسلم والتفريير به وحمله على اعتقاد الباطل والعمل بموجبه، الأمر الذي قد يفضي به إلى الشرك والكفر والعباد بالله تعالى وتضليل المسلم وغشه وخداعه من أعظم الذنوب وأكبر الآثام.

١- وأخيرا وصلنا إلى أن تضليل المسلم وغشه وخداعه من أعظم الذنوب وأكبر الآثام، وبما يسمي المصنف كل أقاويله وادعاءاته السابقة والآتية؟ أليست هي التضليل بعينه والغش بذاته للمسلمين، وإيهامهم بأن النور ظلمة والغش صدق.

2- لا يجوز أن يتحدث عن السادة المشايخ الكُمل بمثل كلمة افتراء أو تغرير أو كذب لأنهم أجلّ من ذلك وأكبر.

3- إن تخلص الشيخ للمريد عند الشدائد وإنقاذه، وتلقينه الشهادات عند النزاع، وسؤال الملوك وما شابهها مسألة علمية بحثية، اعتقدها البعض بأدلة علمية وخالفها البعض الآخر، ولا يجوز أن يقال في المسائل الخلافية إنها تؤدي إلى الشرك أو إنها شرك، وإلا لكفر من يقبض يديه في الصلاة من يسدل، ومن يأتي بالبسملة من لا يفعل، ولذهب المسلمون واندثر الإسلام.

المقدرة بالله

ولو أننا سألنا أي مسلم سواء أكان من العامة أو المتعلمين أو كبار العلماء: هل يستطيع الرسول ﷺ أو أحد صحابته أو التابعين أو صالح المؤمنين عموما أن يفعل أي فعل كان مستقلا عن قدرة الله تعالى ومنفردا به دونه سبحانه؟ لأجاب بالنفي، فما من مسلم يشك في اقتصار الألوهية بما تقتضيه وتستوجبه على الله تعالى وحده، وهذا هو لب الأمر وجوهره.

إذ إن استعانة المريد بالشيخ، والاستغاثة به في الشدائد، ومقدرة الشيخ على الغوث ليست من جنس أن يفعل المستغاث به الأمر من ذاته، ولكنه مفاض عليه من الله تعالى بإقداره وإيجاده وإمداده، ولهذا لا تكاد تجد في ديار الإسلام من لا يعتقد الاستغاثة بالأولياء، وهم وإن كانوا لا يحسنون الكلام في مسائل التوحيد، إلا أنهم لا يتصورون البتة، ولا يخطر على بالهم أن يفعل الولي الغوث بدون إقدار الله تعالى وإمداده، والمريد عندما يستغيث بالشيخ فهذا لاعتقاده -وهو الحق- أن لهذا الشيخ وجاهة عند الله ومنزلة، ومنه قوله تعالى في حق موسى

عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبُهَا﴾ (الأحزاب: 69)، وقوله في حق عيسى ابن مريم: ﴿وَجِبُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (آل عمران: 45) فوجهة المخلوق الصالح لا جدال فيها، بل وفي صالح المؤمنين من لو أقسم على الله لأبره، ولهذا تكون الاستغاثة بمن يعتقد صلاحه، ولم نسمع أن أحداً استغاث بفاسق أو فاجر.

ثم إنه لا نزاع بين عاقلين في جواز الاستعانة والاستغاث بالحي في ما يقدر عليه، فانهصر النزاع والحال هكذا في المسائل الآتية:

1- هل الميت أفضل من الحي.

2- ما الذي يستطيعه الحي ولا يستطيعه الميت.

3- هل استطاع الحي الغوث بحوله وقدرته أم بحول الله تعالى وقدرته.

أما كون الميت أفضل من الحي أو العكس فهذا ساقط، بدهة أن الميت لا يزداد شأنًا بالموت، غاية ما في الأمر أنه باق على ما كان عليه قبل مماته، فإن كان حال حياته عبداً صالحاً ذا كراماً ظهرت عليه علامات الولاية والكرامة والصلاح، فمن المنطقي أن يبقى كذلك بعد موته، ولهذا تواترت الأدلة عقلاً ونقلاً على جواز زيارة الرسول ﷺ وصحابته بعد موتهم، وإرسال السلام إليهم وما شابه ذلك، إذ إنه ﷺ باق على شرفه وفضله قبل وبعد موته وكذلك صحابته.

وأما بالنسبة لاستطاعة الحي دون الميت، فإننا نقول: إنه إذا اعتقد مسلم أن الحي قد فعل الفعل وإن كان حقيراً مستقلاً عن الله ويقوته وقدرته دون حول الله وقوته فقد أشرك حقيقة، إذ لا حول ولا قوة لمخلوق إلا بالخالق، ولا كلام لنا مع من اعتقد هذا، إذ لا شك أنه لا يعتقده إلا مجنون فضلاً عن كافر، إذ إن الأخير قد يحل الطبيعة أو الغريزة محل الله تعالى.

وإما إن كان قد فعل الفعل بإفاضة الله تعالى وإمداده - وهو الصحيح - فتصبح إغاثة الشيخ الحي لمريده وتخليصه من الشدائد وإنقاذه من المهالك لا جدال فيها، إذ لا حد لإقدار الله تعالى للعبد ولا مدى.

إذ يحول الله وقوته أحيا سيدنا عيسى عليه السلام الموتى، وأبرأ الأكمه والابرص، وسمع سارية ببلاد العجم صوت عمرين الخطاب وهو بالمدينة المنورة، وشفى الله تعالى العديد من الصحابة بإمرار الرسول ﷺ يده الكريمة عليهم وبريقه الشريف أحيانا، بل وبالله تعالى فإن أضعف مخلوق قادر على أن يسلب أعني وأقوى الجبابرة ما يشاء، قال تعالى: ﴿وَأَن يَسْلِبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: 73).

وجاء آصف بن برخيا بعرض بلقيس ملكة سبا من اليمن إلى فلسطين قبل أن يرتد طرف سيدنا سليمان إليه، وألقى مدعي النبوة الكذاب الأسود العنسي الذي غلب على صنعاء أبا مسلم الخولاني رضي الله عنه في النار لتصديقه النبي ﷺ فلم تضره⁽¹⁾ وشرب سيدنا خالد بن الوليد السم فما أثر فيه ولا ضره⁽²⁾، ومات فرس لصلة بن أشيم في الغزو فأحياه بدعائه، حتى إذا رجع إلى بيته قال لابنه: يا بني خذ السرج فإنه عارية، فاخذ سرجه فعات الفرس⁽³⁾، ومات حمار لشيبان النخعي فأحياه الله تعالى له⁽⁴⁾.

وبالجملة لا حدّ تقف عنده قدرة الله تعالى، وكل من ذكرنا فعلوا بقدرته سبحانه، فأصبح الحال هكذا لا داعي ولا سبب للطعن في مقدرة أولياء الله الصالحين بالله.

وإن كان النزاع في إقدار الله للحَيِّ دون الميت، فهو نزاع في غير محله إذ لا حجة لمن قال إنه سبحانه يقدر الحي ويعجز عن إقدار الميت، فما بالك ونحن نعتقد كمسلمين أن الموت لا يعنينا التلاشي، وغاية أمره أنه حياة من نوع آخر

(1) الفرقان لابن تيمية ص (45).

(2) المصدر السابق ص (143).

(3) المصدر السابق ص (164).

(4) الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر المسقلاني ج 2 ص (164) ترجمة رقم (4992).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: 169، 170)، فأنشأت سبحانه للشهداء خمس صفات وهي: الحياة، وعند ربهم، ويرزقون، وفرحين، ويستبشرون، وبالطبع فإن هذه الحياة لا يختص بها الشهداء وحدهم بل كل صالح المؤمنين، إذ ليس من المعقول أن يحوزها الشهيد ويمنعها الرسول ﷺ لأنه مات على فراشه، أو أبا بكر الصديق، والذي يفهم أن طلب وزن شعرة من غيره سبحانه وتعالى على جهة الاستقلال سواء كان المطلوب منه حيا أو ميتا هو كفر لا جدال فيه، وطلب وزن الجبال من الولي الصالح على أنه بإيجاد الله وإمداده وإيقائه لا غائلة فيه، على أن يكون جنس المطلوب مما يعقل طلبه كالشفاء وتفريج الكربات والإنقاذ من المهالك، لا أن يطلب من الولي حيا أو ميتا خلق مخلوق ولو كان حبة رمل، أو ذرة من تراب، أو إدخال من مات على الكفر إلى الجنة، فهذا لا يعقله أو يقول به ذو عقل أو حتى نصف أو ربع عقل.

فإن قال قائل: إن الله تعالى يقدر الولي الحي دون الميت، فيجاب عليه بأن من أقدر الحي لا يعجز عن إقدار الميت، خاصة إذا علمنا أن الروح تزداد قوة بالموت بتحررها من أسر البدن وشهوات النفس.

يقول ابن القيم - ونحن لا نجهل ما يعنيه ابن القيم عند المصنف والوهابيين عموما -: (للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه في التصرف والقوة والنفوذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله تعالى والتعلق بالله، ما ليس للروح المهيمنة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها، فكيف إذا تجردت عنه وفارقت، واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل نشأتها روحا عليا زكية كبيرة ذات همة عالية، فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر، وقد تواردت الرؤى في أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن، في هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل

ونحو ذلك، وكم قد رثي النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر في النوم، قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم، فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعددهم وضعف المؤمنين وقلتهم⁽¹⁾ وما قاله ابن القيم رحمه الله هو ما صح في العقل والنقل.

فالصحابي الجليل سيدنا ثابت بن قيس (قاتل يوم اليمامة حتى قتل، وكان عليه درع نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فاخذها، فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت بن قيس في منامه فقال له: إني أوصيك بوصية فأياك أن تقول: هذا حلم فتضييعه، إني لما قتلته أخذ درعي فلان ومنزله في أقصى الناس، وعند خبائه فرس تستن، وقد كفى على الدرع برمة وفوقها رحل، فأتت خالدًا فمره فليأخذها وليقل لأبي بكر: إن علي من الدين كذا وكذا وفلان عتيق، فاستيقظ الرجل فأتى خالدًا فاخبره فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته⁽²⁾، وفي إجازة وصيته بعد موته من قبل الصديق رضي الله عنه ما فيها لكل ذي عينين ولسان وشفتين.

وزيد بن خارجة رضي الله عنه تكلم بعد موته⁽³⁾، قال البيهقي: (شهد بعد ما مات للرسول ﷺ بالرسالة⁽⁴⁾)، وأخى الرسول ﷺ بين عوف بن مالك والصعب ابن جثامة فقال كل منهما للآخر: (إن مت قبلي فترأى لي، فمات الصعب قبل عوف فترأى له⁽⁵⁾).

وكانت امرأة اسمها الرباب قد تعاهدت هي وزوجها أيهما مات قبل الآخر لا يتزوج الذي يبقى حتى يموت، فمات فأقامت مدة فزوجها أبوها فرأت في تلك

(1) كتاب الروح - ابن القيم ص (103-102).

(2) رواه البخاري مختصراً، ورواه الطبراني والبيهقي مطولاً، قال ابن القيم في كتاب الروح: اتفق خالد وأبو بكر والصحاب على العمل بهذه الرؤيا.

(3) رواه البخاري.

(4) كتاب الاعتقاد - للمحدث الحافظ البيهقي ص (150).

(5) الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني ج 2 ص (178) ترجمة رقم (4065).

الليلة زوجها وأنشدها أبياتا من الشعر فأصبحت مذعورة، وقصت على النبي ﷺ القصة فأمرها أن تستأنس بالوحدة حتى تموت، وأمر زوجها بفراقها ففعلت ذلك⁽¹⁾.

وأوصى أهبان بن صيفي الغفاري أن يكفن في ثوبين، فكفنه في ثلاثة فأصبحوا فوجدوا الثوب الثالث على السرير⁽²⁾.

وارتفع عامر بن فهيرة بجسده لما قتله المشركون بين الأرض والسماء كأنه معلق⁽³⁾.

وكل هذا كان بإقدار الله تعالى لهؤلاء بعد موتهم، وما يصدر عن أولياء الله تعالى في هذا المجال كثير، ولولا خوف الإطالة لذكرنا الكثير مما ثبت نقله عن الصالحين، بل وحتى مما رأيناه بأمر أعيننا من كراماتهم أحياء وأمواتا، والأمة الإسلامية قاطبة قد أجمعت على جواز كرامة الأولياء، وما الكرامة في حقيقتها إلا إقدار الله تعالى للعبد على فعل أو أمر.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (فالواجب عليك اتباعهم والإقرار بكرامتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال)⁽⁴⁾، نسأل الله أن لا يجعلنا من أهل البدع والضلال.

فإنقاذ المريد من المهلكات، وتخليصه من الشدائد من ضمن الكرامات التي أجمعت الأمة على جواز وقوعها، والاستغاثة بالولي كما قلنا هي استغاثة به على ما أقدره الله عليه ولا شبهة في هذا، قال ﷺ: «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا - ثلاثا - فإن لله حاضرا سيحييه»⁽⁵⁾.

(1) الإصابة ج 4 ص (293) ترجمة رقم (410) قسم النساء.

(2) رواء الطبراني.

(3) الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني ج 2 ص (247)، وابن تيمية في الفرقان ص (142).

(4) كشف الشبهات في التوحيد - محمد بن عبد الوهاب ص (8).

(5) رواء الحاكم، ورواه أبو عوانة، ورواه البزار بسند صحيح، والنووي في الأذكار، وابن السني.

فهذا دليل صريح على جواز الاستغاثه، إذ إن رسول الله ﷺ ينصح من ضاق به الحال إذا انفلتت دابته وهو أحوج ما يكون إليها بأن يستغيث بمن لا يرى ولا يعلم أن يمسك له دابته، فهل هذا المستغاث به هو الذي أمسك بقدرته أم بإقدار الله تعالى له.

وعلق النووي على الحديث بقوله: (حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم- وناهيك بمن يقول عنه النووي إنه من شيوخنا الكبار في العلم- أنه أفلتت له دابة أظنها بغلة وكان يعرف هذا الحديث فقال له فحبسها الله عليهم في الحال⁽¹⁾، ويضيف متحدثاً عن نفسه: (وكنيت أنا مرة مع جماعة فانفلتت منا بهيمة وعجزوا عنها فقلته، فوقفت في الحال بغير سبب سوى هذا الكلام⁽²⁾).

وروى ابن مفلح هذا الحديث في الآداب وعلق عليه بقوله: (قال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج فضلت الطرق في حجة وكنيت ماشياً فجعلت أقول: يا عباد الله دلونا على الطريق، فلم أزل أقول يا عباد الله دلونا على الطريق، فلم أزل أقول حتى وقعت على الطريق⁽³⁾).

دل هذا الحديث على جواز الاستغاثه، وأن هناك من أقدره الله تعالى على الإنقاذ من المهالك والشدائد بكيفيات عدة منها: التحكم في المستغيث، وتوجيهه حتى يصل مأمنه.

وعز أبو موسى النابغة الجعدي الصحابي الشاعر المعروف بسيماط فأنشد:

فيا قبر النبي وصاحبيه ألا يا غوثنا لو تسمعونا

ألا صلى إلهكم عليكم ولا صلى على الأمراء فينا⁽⁴⁾

والنابغة وأبو موسى الأشعري من جلة الصحابة، فلو كان في الاستغاثه حتى شبه كراهة لما قال هذا وأقر ذلك.

(2-1) كتاب الأذكار - النووي ص (201).

(3) كتاب الآداب لابن مفلح.

(4) الاستيعاب.

وخطب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما إلى عائشة أم المؤمنين فاطمعتة وقالت: أين المذهب عنك يا عمر، ورفضت أم كلثوم وقالت: والله لئن فعلت لأخرجن إلى رسول الله ﷺ ولا يصحن به، فأرسلت السيدة عائشة مع عمرو بن العاص تعتذر^(١)، وكان هذا بعد موت النبي ﷺ وبمراى من عائشة وعمرو، فهل تراهم سكتوا عن باطل، أم أن أم كلثوم بنت الصديق وأخت عائشة وأسماء ذات النطاقين من المشركات، والمصنف - ساعده الله - من كبار المؤمنين.

وفي البخاري من حديث الشفاعة قوله ﷺ: «فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد».

وفي صحيح البخاري أيضا ما ذكره الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ في معرض حديثه عن السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل عليهما السلام: «أنها لما أدركها وولدها العطش، جعلت تسعى في طلب الماء فسمعت صوتا ولا ترى شخصا فقالت: أغث إن كان عندك غوث»، وعليه فمن استغاث بالأنبياء في حديث الشفاعة، ومعهم السيدة هاجر زوجة خليل الله وأم إسماعيل من المشركين، وإلى مثل هذه النتائج تؤدي المقدمات الفاسدة.

وخير ما نختم به موضوعنا ما جاء في كتب السير والمغازي، إذ ذكروا أن شعار الصحابة والتابعين في قتالهم لمسيلمة كان «وامحمداه وامحمداه»، وما جاء عن الصحابي بلال بن الحرث في عام الرمادة إذ ذبح شاة فوجدها في غاية الهزال والضعف فصاح «وامحمداه وامحمداه».

الشفاعة

وأما قول المصنف: «إن شفاعة الشيخ في مريده افتراء وكذب... إلخ»،

(١) انظر هذا الحديث وغيره في الموضوع في كتاب شهيد المحراب عمر بن الخطاب للأستاذ عمر التلمساني رحمه الله، إذ عقد فصلا خاصا في إثبات جواز الاستغاثة ص (221-234).

فالجواب عليه: إن شفاعة الشيخ لمريده التي وصفها بهذه الأوصاف - مع شديد احترامنا له ولعلمه - من الأمور التي تواترت الأدلة بشبوتها.

وقد تحدث القرآن الكريم عن الشفاعة وبين أنها لا تكون إلا بإذنه فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: 255)، ولا تكون إلا لمن ارتضى فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: 28)، وأنها لا تكون للمشركين فقال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: 48).

والمقصود بالشفاعة هو:

سؤال الله الخير للناس في الآخرة فهي نوع من الدعاء المستجاب، والشفاعة العظمى لا تكون إلا لسيدنا محمد ﷺ، وهي المقام المحمود المعني بقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: 79)، وقال ﷺ: «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدبر»⁽¹⁾.

وهناك غير الشفاعة العظمى التي هي خاصة بالنبي ﷺ، وما يلزمها من كونه أول شافع ومقبول الشفاعة، شفاعة الأخيار من المرسلين، قال شيخ الإسلام البيجوري: (يشفع وغيره ﷺ ممن ارتضاه الله من الأخيار، كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصحابة والشهداء والعلماء العاملين والأولياء)⁽²⁾، قال اللقاني في جوهرة التوحيد:

وواجب شفاعة المشفع محمد مقدما لا تمنع

وغيره من مرتضى الأخيار يشفع كما جاء في الأخبار

والشفاعة في حقيقتها مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل بمن شاء إلا المشركين، فإنه وإن جاز عقلا إلا أنه منع سمعا، والشفاعة تنقسم إلى:

(1) رواه البيهقي، وابن شاهين، والطبراني في الأوسط.

(2) تحفة المريد على جوهرة التوحيد - إبراهيم البيجوري ص (117).

- 1- شفاعة الرسول ﷺ لأهل المحشر عامة وهي من أعظم الشفاعات .
- 2- وإدخاله بإذن الله طائفة من أمته الجنة بغير حساب .
- 3- شفاعته ﷺ والأنبياء والملائكة والصالحين في إخراج الموحيدين من النار .
- 4- شفاعته ﷺ والأنبياء والصالحين في من استحق دخول النار أن لا يدخلها .

قال ﷺ : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »⁽¹⁾ ، وقال عبد الرحمن بن بريد بن جابر : (بلغنا أن النبي ﷺ قال : « يكون في أمتي رجل يقال له : صلة ، يدخل الجنة بشفاعته كذا وكذا »⁽²⁾ ، وقال ﷺ : « يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتي أكثر من بني غنم »⁽³⁾ .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : (وأيضاً فإن الشفاعة أعطيها غير النبي ﷺ ، فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراط يشفعون ، والأولياء يشفعون)⁽⁴⁾ . ومن غرائب الاتفاق إن كان بالإمكان تسمية الاضطراب اتفاقاً أن المصنف قال في كتابه (عقيدة المؤمن) الذي أشرنا إليه سابقاً : (الشفاعة المثبتة قسمان : القسم الأول : شفاعات النبي محمد ﷺ ، والقسم الثاني : شفاعات غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله تعالى)⁽⁵⁾ .

فلا ينتهي الاستغراب إلا لبيدأ من جديد من غرابة هذا المسلك الحير ، فكيف نثبت الشفاعة للنبي أو الولي الصالح ثم نمنع طلبها منه ، وأي شفاعة هذه ؟ وقد صح في الحديث أن الأولين والآخرين يأتون لسيدنا محمد ﷺ يقولون له :

(1) رواه البزار، وابن ماجه .
(2) حلية الأولياء - أبو نعيم ج2 ص (241) .
(3) انظر تخريجه في الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني ج4 ص (38) ترجمة رقم (225) في الكنى .
(4) كشف الشبهات في التوحيد - محمد بن عبد الوهاب ص (7) .
(5) كتاب عقيدة المؤمن - للمصنف ص (195) .

(يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه)⁽¹⁾، فيشفع لهم.

نعم جاء عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن طلب الشفاعة من الصالحين عبادة لهم⁽²⁾، والمصنف بالتطبيع أو بالتطبيع يرى هذا الرأي، وكما قلنا: لكل أحد مطلق الحرية في أن يتبع أي رأي يريد وأي اجتهاد يشاء، ما دام لا يخرج عن أسس وقواعد الإسلام، ولكننا نرفض هذا التعصب لمذهب بعينه وإن خالف الشرع، واعتقاد أنه وحده على صواب وكل مخالف على خطأ، ورميه بالشرك وما إليه، ونراه فسادا ونقصا جوهريا في فهم وتطبيق مبادئ الإسلام، فالتفوق المذهبي والتعصب الأعمى لمذهب بعينه بدعة لا تقاس بها بدعة.

4) قطع المريد عن كل ما سوى شيخ الطريقة، وذلك لاستغلاله والتحكم فيه، حتى إنهم ليحظرون عليه أن يزور أي ولي حيا كان أو ميتا، فقد جاء في كتاب الطائفة التيجانية (الرماح) ما نصه: الثاني من شروط الطريقة عدم زيارة واحد من الأولياء الأحياء والأموات.

وجوب الانقياد للشيخ في طاعة الله

قد عرفت كما مر بك أن العلم شرط من شروط الطريق للمريد وكيف يتأتى له العلم إن لم يذهب إلى مشائخ العلم ويتلقى عنهم وفي تراجم الصوفية ما يزيد عن الحاجة في هذا المجال.

نعم إن كان المقصود بهذا القطع ما نص عليه القوم من وجوب التسليم للشيخ العارف بالله، الذي زكت نفسه وانجلت مرآة قلبه فانعكس فيها نور الله

(1) متفق عليه.

(2) انظر كتاب كشف الشبهات عن التوحيد - محمد بن عبد الوهاب ص (7).

تعالى، فهذا إذا بايعه المريد وغيب بصره في بصره، وبصيرته في بصيرته، وتادب بأدابه، أخذت روحه من روح الشيخ قبس، وانتقل حال الشيخ إليه بالصحة واستماع المقال وسريان الحال.

قال ابن عطاء الله السكندري: (ليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك من سرت فيك إشارته، وليس شيخك من واجهك مقالته، وإنما شيخك من نهض بك حاله⁽¹⁾)، فيكون المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، لا يأتي فعلاً إلا بإذنه ولا يقدم على أمر عظيم أو حقير إلا برأيه، حتى تتألف روح الشيخ بروحه تألفاً ربانياً، قال عطاء الله: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»⁽²⁾.

ويتخلق بأخلاق الشيخ وعباداته ومجاهداته، فينتقل ميراثه إليه، والشيخ لا يورث درهما ولا دينارا بل علماً وعملاً، فيستنير قلب المريد بأنوار المشاهدة والمجاهدة بالمعرفة، فتتحقق عبودية الرضا والمحبة، وإلى هذا أشار أبو الدرداء رضي الله عنه حين مرَّ به سيرة بن فاتك بقوله: (إن مع سيرة نورا من نور محمد ﷺ)⁽³⁾.

وانشغال المريد بشيخه لا يعني انقطاعه عن أموره الخاصة والتزاماته، وإن كان من الضروري أن يبقى ملتزماً بصحبة الأخيار قال محمد بن عيسى رضي الله عنه: (ما أفلح من أفلح إلا بمجالسة من أفلح، ومخالطة الخواص تكسب ثلاث خصال: العلم، وصفاء القلب، وسلامة الصدر، والعكس بالعكس والصدق مع الله نور، والمعرفة برهان، والالتفات إلى غيره بهتان، وإضاعة حقوقه كفران، والغفلة عن ذكره خسران)⁽⁴⁾.

(1) لطائف المنن - ابن عطاء الله السكندري.

(2) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود.

(3) رواه الطبراني.

(4) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس - للشريف مولاي عبد الرحمن بن زيدان ج 4 ص (11).

ولا يخفى على عاقل أن المريض إذا ذهب كل يوم إلى طبيب وأخذ كل مرة علاجاً مختلفاً ربما زاد مرضه وساءت أحواله وأهلك نفسه، وهذا هو المقصود بالقطع، لا أن المرید يقطع عن العلم أو الانتفاع والتحصيل.

التجانية وزيارة الأولياء

وأما ما نقله المصنف عن كتاب (الرماح) من عدم الزيارة للأحياء من الأولياء والأموات:

فأولاً: إنه لا يمثل رأي كل أهل التصوف، والجميع يعلم أن المشهور عنهم غير ذلك، وجاهل هذا يعد في سرب القطا ومراتع الغزلان إن وجد.

ثانياً: إن هذا القول مما يتفق مع آراء المصنف، فقد قال في كتابه المشار إليه سابقاً: (إن ما يفعله جهال المسلمين من شد الرحال إلى زيارة قبر فلان، أو ضريح فلان من سيد أو صالح، وإقامة الحفلات حولها، والنزول بساحتها، والعكوف والإقامة الليلة والليلتين عندها باسم التبرك، كل هذا باطل منهي عنه ولم يشرع فعله للمسلمين، وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع، وقد أدى إلى الشرك والعباد بالله⁽¹⁾).

وعليه فهذا الشرط كما قلنا يتفق مع رأي المصنف في عدم مشروعية زيارة الأولياء الأموات، فتراه شاركتهم في الفعل وأفردهم بالتعجب.

وكان الأحرى أن يبدي موافقته عليه بدلاً من الإنكار، ولكن رأس المشكلة أن المصنف لا يهتم إلا التشنيع والتهويل والقبح ظلماً وافتياتاً في التصوف وأهله، فكل ما يأتونه باطل وإن كان هو نفسه يعتقد، فسبحان من أعطاه القدرة على مدح الشيء وذمه في نفس واحد، ويا للعجب المتبوع بعجب من إصدار الأحكام وفق الأهواء والأغراض.

ثالثاً: إن هذا الشرط كما قلنا انفرد به بعض أتباع الشيخ التجاني رضي الله

(1) عقيدة المؤمن - للمصنف ص (132).

عنه، أخذاً بظاهر نص ورد في بعض المصادر عن الشيخ التجاني، وربما كان له ما يبرره، مثل ما يحدث عند القبور من اجتماع الرجال بالنساء، وتلطيف مقابر المسلمين ببقايا الأطعمة والنفايات، إلى غير هذا من المنكرات المعروفة التي تمتنع وتحرم في ذاتها، ولا تحرم الزيارة إن خلت منها، وكذلك ظهور الكثيرين في تلك الفترة أثناء حياة الشيخ التجاني رضي الله عنه ممن يدعون الولاية والصالح كذبا وبهتاناً، ويشيعون الباطل والفساد، حتى إن الشيخ التجاني كان يقول عن بعضهم: (إنه شيطان هذه الأمة) ⁽¹⁾، لما بلغه عنه من قبيح الأفعال ودنيئتها.

ويؤكد هذا أن الشيخ التجاني رضي الله عنه كان كثير الزيارة لقبر مولاي إدريس رضي الله عنه بفاس ⁽²⁾، وكان يذهب أيضاً إلى صحراء توات على بعد المسافة بين محل إقامته بفاس وبينها لزيارة أهل الخير بها ⁽³⁾، ويزور قبر عبد السلام ابن مشيش ⁽⁴⁾، بل وعندما تعرض مصحح كتاب كشف الحجاب وهو من الكتب التي حوت تراجم الكثير ممن عاصروا الشيخ التجاني وأخذوا عنه لهذا الشرط بالذات، علق عليه بقوله: (ليس على سبيل المنع ولكنه كالاكتفاء بطبيب واحد) ⁽⁵⁾، وأرسل الشيخ التجاني رضي الله عنه رسالة إلى بعض أصحابه جاء في آخرها: (أما الزيارة للأولياء، أما الأموات فالقدوم إليهم أي إلى ضريح الولي فهو مطلوب، وأما الأحياء فبحسب أحوالهم وأحوال الزائرين، فمنهم من القدوم إلى محله أولى... إلخ) ⁽⁶⁾.

ويعتبر برسالة أخرى جاء فيها: (فعظموا حرمة الأولياء الأحياء والأموات،

(1) كشف الحجاب - للقاضي أحمد العياشي ص (221).

(2) المصدر السابق ص (451).

(3) المصدر السابق ص (451).

(4) المصدر السابق ص (295).

(5) المصدر السابق ص (423 - 398 - 529).

(6) المصدر السابق ص (534).

فإن من عظم حرمتهم عظم الله حرمتهم، ومن أهانتهم أذله الله وغضب عليه، ولا تستهينوا بحرمة الأولياء والسلام⁽¹⁾.

نعم أذكر أنني سمعت من بعض أتباع الطريقة التجانية قولهم بعدم زيارة الأولياء أحياء وأمواتا، ويبدو أنهم أخذوا ذلك من ظاهر النص الذي نقله المصنف عن (الرماح) أو غيره، والأمر على كل حال ليس ذا شأن كبير، وليس أكثر من خلاف في مسألة فرعية، ولا تشكل خروجاً عن حكم إسلامي أو تركاً لأمر شرعي. ولكن وقد علمت أن ما كان عليه الشيخ التجاني رضي الله عنه هو غير ذلك، وعلمت أيضاً أنه لا يؤخذ مخلوق بجريرة غيره، أصبح الاعتراض إن كان ثمة اعتراض على من يرى هذا الرأي فقط.

الأصل الثاني

الشيخ المأذون له... إن من أصول أصحاب الطريق من مشائخ المتصوفة ضرورة وجود شيخ مأذون له.

ضرورة أخذ التصوف عن شيخ

نعم أجمع أهل التصوف على وجوب أخذ التصوف عن شيخ عارف بالله، بصير بعيوب النفس، مطلع على دقائق أمراضها، عالم بالعقائد الإسلامية وعلم العبادات والمعاملات، قد أخذ التصوف بدوره عن شيخ عارف مرب، عرف الطريق وخبر مآمنها ومهلكها، أناب إلى الله ورجع إليه في كل أموره، ففي اتباع مثل هذا الشيخ التزام بقول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ (لقمان 15)، وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا

(1) كشف الحجاب ص (467).

تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ (الكهف: 28).

وقد أجمع أهل العلم بدون استثناء على وجوب الاقتداء بأهل الفضل
والمعرفة، وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه: «سقى في علم الله القديم ألا يدخل
لحضرته أحد إلا على يد أحد من عبيده».

مأذون في إعطاء الورد للمريد أو من يتوب عنه من خليفة للشيخ، أو
مقدم في الطريق.

سنتكلم عن الورد في حينه إن شاء الله تعالى، ولكن الذي يفهم أن الشيخ
مثله كممثل الطبيب، قد عرف الطب أولاً والمقدرة على التطبيق ثانياً، قادر على
قطع حديث النفس واقتلاع أمراضها ومفاسدها، عالم بكيفية إحلال
الأوصاف الحميدة محلها، على قدم النبي ﷺ في تربيته لصحابته وتأديبهم
بالآداب الروحية السامية.

ولا علاقة مباشرة بين إعطاء الورد ووجوب اتخاذ الشيخ، يقول ابن عطاء الله
السكندري رضي الله عنه: «وينبغي لمن عزم على الاسترسال وسلوك طريق الرشاد
أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك الطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في
خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينته عما نهى عنه وزجر»^(١)، فدور
الشيخ المربي هو النهوض بالخال والدلالة بالمقال.

والورد هو كل ما يواظب عليه من وظائف، كالصلاة والصوم والأذكار،
فمنها ما لا انفكاك لمسلم عنه كالصلاة المفروضة وصوم رمضان مثلاً، ومنها ما
يكون كالدواء، كما يقال حال الكرب ودفع الهم والحزن، وما يذكر عند الخوف

(١) مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح - ابن عطاء الله السكندري ص (30).

واستصعاب أمر أو لقضاء دين وغيرها، فلكل ذكر من الأذكار فائدة يعرفها أرباب القلوب والمعرفة، فيأمر الشيخ مريده بما يراه مناسباً له من أوامر وآداب، بعد أن يشخص أمراض قلبه ويعرف عيوب عمله ورعونات نفسه .

ولعمر الله إحدى الوسائل التي يستعملها مشايخ الطرق لصيد عوام المسلمين وجهالهم، من أجل تسخيرهم واستغلال كل طاقتهم المالية والبدنية، لخدمة الشيخ ونائبه، من مقدم أو غيره، وبيان هذه الوسيلة أنها من باب كلمة حق أريد بها باطل، فاتخاذ شيخ عارف بالله تعالى وبالطريق إلى الله تعالى من أجل التعلم عنه والاقتداء به في كمالاته الروحية، والأخذ بتربيته الإسلامية أمر محمود ومأمور به، إذ لا يمكن لأي أحد أن يعرف الله تعالى ويعرف محابه ومساخطه ويعرف كيف يعبدّه ويتقرب إليه إلا إذا تتلمذ لمشايخ العلم، وتعلم منهم وتربى تحت رعايتهم وكامل عنايتهم .

وأخيراً آت المصنف إلى الحق وعرف ضرورة الأخذ عن شيخ عارف بالله، وأنه لا يمكن لأحد أن يعرف الله تعالى إلا إذا تتلمذ لمشايخ العلم وتربى تحت رعايتهم وكامل عنايتهم .

وقد كررنا حتى مللنا، أن وجوب الأخذ عن شيخ من الأمور الضرورية عند أهل الطريق، وبما أن المصنف قد رجع إلى ما قلنا فقد أصبح النزاع بغير منازع والحديث بدون محدث .

ولو كان أمياً جاهلاً، وهذا هو الواقع، إذ جل مشايخ الطرق أميون، ومن علم منهم فعلمه محدود جداً لا يتجاوز معرفة بعض أركان الإسلام كالصلاة مثلاً .

علم مشائخ الطرق

إن المصنف يحاول جاداً إخفاء الشمس حال الصحو في فصل الصيف عن صحيح النظر، ويبدو وأنه قد أتخم نفسه بكثرة الأكل فنشأ عن ذلك صور وأوهام ظنها حقيقة فبادر إلى كتابتها.

فقلوله - عفى الله عنه - : « إن جل مشائخ الطرق أميون، ومن علم منهم فعلمه محدود جداً »، يوهم بأنه قد عرف جلهم ومن ثم أصدر هذا الحكم الشامل المعمم. وليسلمح لنا بسؤال واحد فقط وهو: هل عرف مقدار واحد في كل عشرة آلاف منهم حتى يصدر مثل هذا الحكم القطعي؟ كلا ولا أظنه قد عرف حتى عشر معشار هذه النسبة، بل ويقع في خاطري أنه حتى كتابته لكتابه هذا الذي بين أيدينا لم يعرف أحداً ممن يصدق عليه لفظ الشيخ.

ثم إن هؤلاء موجودون في طول بلاد العالم وعرضه، فهل اجتمع بهم المصنف جميعاً كل في بلده أو مدينته أو قريته أو باديته وتحدث معهم في أمور العلم ودارسهم في فروعه وأصوله، حتى عرف أنهم أميون، ومن علم منهم فبالكاد يعرف الصلاة مثلاً.

عجيب أمر المصنف، كم يعوم ولا يحسن السبح، ويهوم ولا يدري المدح، ألا ما أوسع نطاق اطلاعه، وما أحكم تثبته في إصدار الأحكام.

ثم إن كل منصف يعرف أن مشائخ التصوف العارفين الحاملين للواء الإسلام عبر العصور هم أكثر علماء الأمة علماً، وأوضحهم نهجاً وأعظمهم فضلاً، وأسراهم في الأمة روحاً، كم هدى الله بهم من ضال، وأيد بهم من حق، وحمى بهم عرين الإسلام، ودفع بهم الأعداء قديماً وحديثاً، هل حضر المصنف مجالس علمهم وحديثهم واستدلالاتهم وخوضهم في بحار المعرفة بسفن البصيرة، والتقاطهم للآلئ الحقائق ويواقيت المعاني، وهل جلس إلى هؤلاء المشائخ في وقتنا هذا واحداً بعد واحد وكابراً بعد كابر، واستمع إلى مقالاتهم في العقائد والعبادات

والآداب والأصول والحديث والسير والخلق ومختلف العلوم، حتى عرف غزارة علمهم أو جهلهم؟

ولئن قورنت معارفهم النقية وعلومهم الربانية بغيرهم ممن لم يعرف من العلم إلا ظاهراً أقوال ونصوص وردت في الشرع، فعمد إلى ما جاء من أوصاف للمشركين في القرآن الكريم والحديث الشريف فوضعها في المسلمين، فكفرهم وجعل دارهم دار حرب واستحل أموالهم ودماءهم، وضع وضوح الضوء في التبراس العالم من المتعالم والمبصر من المتباصر.

وقد قلنا سابقاً: إن سخافة القول تكمن في الكلام بدون تريث وإصدار الأحكام جزافاً بلا تثبيت.

ولكن الخطأ في اشتراط أن يكون الشيخ مأذوناً له في إعطاء الورد وسلوك الطريق، إنهم لا يعنون بالإذن أكثر من أن يكون من نصب نفسه شيخاً للطريقة قد خدم شيخاً مثله في سلسلة مشايخ الطريقة خدمة طويلة، فوهبه ذلك الشيخ الوارث لقب الشيخ، وأعطاه الإذن بإعطاء الورد والمشيخة على كل أتباع الطريقة.

تعريف الإذن

إن المقصود بكلمة الإذن هو الأهلية للإرشاد وحيازة الصفات المطلوبة له، والإذن شرط في كل فنون، فمن المعروف أنه في كل اختصاص مختصون يجيزون من أخذ عنهم اختصاصهم ويشهدون بأهليته له، فلا يصح مثلاً لمن لا يكون مجازاً في الطب حاملاً لشهادته حائزاً لصفات الطبيب أن يزاوّل هذه المهنة، أو من لم يكن مجازاً في علم الاقتصاد مطلعاً على علومه حاملاً لمؤهله أن يزاوّل هذه المهنة، وقس عليه سائر التخصصات كالهندسة والصيدلة والتعليم، وإلا لكان الفساد أكثر من النفع والضرر أكثر من الإصلاح.

كذلك لا يتصدر الطريق من لم يأخذ أدبه عن المتأدين المؤهلين فيأخذ عنهم علومهم وصفاتهم من صدق وعلم وذوق وهمة عالية وأنس بالله، ويتحقق بعلمهم حتى يصبح مآذونا في تربية غيره وإرشاده، فيريه المسالك ويقيه المهالك ويدله على الله، ويأخذه إليه ويضعه بين يديه، ويصحبه من الفرق إلى الجمع ومن الجمع إلى الفرق، قال ابن عطاء الله السكندري: « سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد الوصول إليه »^(١). وهذا هو المقصود بالإذن، فسمه إن شئت شهادة، أو إجازة، أو موافقة، أو غيرها، فالاسم لا يغير من حقيقة المعنى.

ومن هنا أصبحوا يدعون أن طرائقهم الباطلة ذات سند مسلسل إلى الحضرة النبوية، سبحانك هذا بهتان عظيم.

في المسلسل والسند

إن وجود السند المسلسل إلى النبي ﷺ هو شيء ثابت ومعروف عند كل من له أدنى إلمام بالعلوم الإسلامية، فبالإضافة إلى الأحاديث الصحيحة المعروفة والموجودة في كتب الصحاح والسنن، المتصلة من الراوي إلى الرسول ﷺ، توجد أيضا الأحاديث المسلسلة.

والتسلسل نوع من أنواع السماع الظاهر الذي لا غبار عليه، وهو إما أن يكون في صفة التحديث، أو في صفة المحدث، أو في صفة مكان التحديث، أو في صفة وقت التحديث، ومن فضيلة التسلسل اشتتماله على مزيد من الضبط من الرواة، وفي وقتنا هذا يوجد منه ما يقرب من المائتين حديثا، منها على سبيل المثال حديث الرحمة المسلسل بالأولية، إذ جرت العادة بتقديمه على غيره، وحديث

(١) لطائف المنن - ابن عطاء الله السكندري.

المصافحة، وحديث المشابكة وغيرها، وأصح حديث مسلسل يروى في الدنيا في وقتنا هذا هو الحديث المسلسل بقراءة سورة الصف .

فإن كان المصنف ينفي وجود التسلسل إلى الحضرة النبوية الشريفة، فهذا قول باطل لا يقره العلم ولا حتى شبه العلم، وإن كان الاعتراض على كون التصوف مسلسل إلى الجناح النبوي الكريم فهذا أبطل وأبطل، فقد قلنا سابقاً: إن التصوف علم وعمل، ومعنى هذا هو تعلم ما صح عن النبي ﷺ وتحويل هذا العلم إلى واقع معاش يلتزم به الصوفي طوال حياته قدر ما مكنه الله، وهذا العلم لا بد وأن يؤخذ عن عالم أخذ بدوره عن قبله بداهة أن العلم لا يكون إلا هكذا .

وأسانيد السادة الصوفية في العلم والعمل، المتسلسلة إلى المقام النبوي العالي لا يتسع المجال بالطبع لتحقيقها في هذا الكتاب ولكنها موجودة في كتب التراجم والتاريخ وغيرها من المصادر المعروفة، والقدرح فيها لا يكون بمثل هذا الأسلوب الساذج البسيط بل بطرق التثبت المعروفة، مثل إمكانية اللقيا وتواريخ الميلاد والوفاة والرحلات وغيرها، وكم كنا نتمنى أن المصنف ارتفع إلى هذا المستوى العلمي الصحيح السليم لتحقيق اتصال الأسانيد الصوفية إلى الرسول ﷺ من عدمه، خاصة وأنه قد أشار إلى اطلاعه على كتاب حقائق عن التصوف، وبه سند الطريقة الشاذلية والقادرية من الشيخ عبد القادر عيسى إلى الرسول ﷺ على سبيل المثال، فبهذا يكون النقاش العلمي الصحيح والحدث النافع المفيد، بعد التروي وإحكام البحث والاستقصاء وإخلاص النية في العمل لله تعالى، والمجال ما زال مفتوحاً أمامه وأمام غيره للبحث العلمي الصحيح .

ولكن المصنف - ساعده الله - يابى إلا الحديث هكذا وبكل بساطة، فيظن نفسه قد أتى بأم البراهين ودليل الأدلة في عدم اتصال الأسانيد الصوفية إلى النبي ﷺ فقط بقوله: «إنها غير صحيحة»، مما لا يفعله حتى الأطفال، وربما كان هذا راجعاً إلى صعوبة التمكن من علم الرجال والجرح والتعديل ودراسة التاريخ والأسانيد .

ومنهم من يدعي عدم الحاجة إلى تسلسل السند، فهو قد أخذ طريقته عن النبي ﷺ مباشرة يقظة لا مناما كالشيخ أحمد بن محمد التجاني، إذ جاء في كتابه جواهر المعاني صفحة 97 ما نصه: وأما سند الطريقة المحمدية (التجانية) فإنه أخبرني قال: «إنا أخذنا عن مشايخ عدة فلم يقض الله منهم بتحصيل المقصود، وإنما سيدنا وأستاذنا في هذا الطريق عن سيد الوجود ﷺ، فقد قضى الله بفتحنا ووصولنا على يديه ﷺ، فليس لغيره من الشيخ فينا تصرف».

التدليس

أولاً: نُذَكِّرُ المصنف بأنه قد أخبرنا في الصفحات السابقة عن قبح التدليس والغش وخطورتهما، ثم ها هو ويا للعجب العجيب يدلّس في حديثه، وتعريف التدليس في عرف أهل الحديث هو الإيهام بأمر مع العلم بخلافه، ومما لا ريب فيه أن المصنف وقد اطلع على كتاب جواهر المعاني حتى استطاع تحديد رقم الصفحة التي بها الفقرة المذكورة فقرات أخرى ستأتي فيما بعد، فلا ريب أنه قد عرف أن مؤلفه هو «علي حرازم» وليس الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه، فقلوه: كالشيخ أحمد التجاني إذ جاء في كتابه جواهر المعاني... إلخ، الذي أورده في الفقرة السابقة هو تدليس قصد به الإيهام بأن الكتاب المذكور للشيخ أحمد التجاني حتى يحمله تبعه كل ما جاء في الكتاب.

وما هكذا يا سعد تورّد الإبل

وقد قال فريق من المحدثين: من عرف بارتكاب التدليس ولو مرة صار مجروحاً مردوداً في الرواية⁽¹⁾.

(1) مصطلح الحديث - الشيخ عبد الفتي محمود ص (25).

الأخذ عن النبي ﷺ

وإن كان الاعتراض على أخذ الشيخ التجاني عن النبي ﷺ فليس في هذا ما يستغرب، فهذا من الكرامات التي يختص بها الله تعالى من يشاء من أوليائه الصالحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، (وعن سعيد بن العاص - وهو أحد السابقين للإسلام - أن سبب إسلامه كان رؤيا. رآها أنه على شعب نار، فأراد أبوه أن يرميه فيها فإذا النبي ﷺ قد أخذ بحجزته، فأصبح فأتى أبا بكر فقال: اتبع محمدا فإنه رسول الله⁽¹⁾).

وحتى المشرك قد يكتشف يقظة بالملأ الأعلى، فما بالك بالمسلم (فإن شجرة النصرى شهد حنيننا مع هوازن مشركا، فلما انهزموا جاء فأسلم وقال للمسلمين: أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم الثياب البيض، ما كنا نراكم فيهم إلا كالشامة؟ قالوا: تلك الملائكة⁽²⁾).

فهذه رؤيا للملائكة يقظة، كانت السبب في إسلام هذا الرجل، وأما عن مكاشفات صالح المؤمنين فحدث ولا حرج، فقد دخل الصحابي شريك بن حناشة النميري الجنة يقظة وتناول ورقة من شجرة بها، وأحضرها لسيدها عمر بن الخطاب فقال: أشهد أن هذا هو الحق، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخله من هذه الأمة رجل - يقصد بشر - من أهل الجنة، وأصبح شعار بني نضير خضرة بهذه الورقة»⁽³⁾.

وكان هذا يقظة لا مناما، فالرجل كان يحمل ورقة من الجنة، ولولا خوف الإطالة لذكرنا الكثير من هذه المكاشفات كتسليم الملائكة، على عمران بن الحصين وسماعه ذلك منهم، ورؤية أسيد بن حضير للملائكة وهو يقرأ سورة الكهف، وغيرها الكثير ولكن فيما قلنا الكفاية، وستتناول الموضوع بتفصيل أكثر فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

(1) الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر المسقلاني ج 1 ص (406).

(2) الإصابة ج 2 ص (137) ترجمة رقم (3842).

(3) رواه الطبراني.

وإن كان الاعتراض على الشيخ التجاني لقوله: إن سيدنا وأستاذنا في هذا الطريق هو النبي ﷺ فهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، إذ ما من شك أن كل مسلم صادق في إيمانه يتأسى ويقتدي بالرسول ﷺ كأستاذ ومعلم، يريه الحق من الضلال والرشاد من الفساد، بل ما من مسلم إلا وهو مأمور بأن يصلي كما رأى النبي ﷺ يصلي، لقوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»⁽¹⁾ فمنهم من رآه رؤية علمية، ومنهم من رآه رؤية حقيقية بأعينه وهو من باب الممكن.

وقد رأى النبي ﷺ موسى في قبره مصلياً، وفي حديث المعراج أنه ﷺ رأى آدم وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء، بل ووصفهم لأصحابه بأجسادهم، فهذا كفلان من الصحابة، والآخر كأنه من أزد شنوءة، والآخر أشبه الناس بالنبي ﷺ، وما إليه مما هو معلوم في باب.

وقد اشتهر برؤية النبي ﷺ الكثير من الصالحين (حتى إن الشيخ عبد الوهاب القيسي المدفون بأطرابلس كان لا يفعل فعلاً إلا بإشارته ﷺ)⁽²⁾.

وقد نص جماعة من أئمة الإسلام على أن من كرامة الولي أن يرى النبي ﷺ في اليقظة ويأخذ عنه ما شاء الله له من معارف ومواهب منهم:

الغزالي، والبارزي، التاج ابن السبكي، والعفيف البافعي، والجلال السيوطي، والقرطبي المالكي، وابن أبي جمرة، وابن الحاج في المدخل، والفقيه ابن العربي، والعز بن عبد السلام وغيرهم الكثير مما يخرج عن الحصر.

وأما فضل أتباعه - يريد الشيخ التجاني - فقد أخبرني سيد الوجود ﷺ أن كل من أحبه فهو حبيب النبي ﷺ، ولا يموت حتى يكون ولياً قطعاً، فانظر أيها المسلم البصير كيف يفتري القوم الكذب على الله ورسوله والمؤمنين بدون حياء ولا خوف ولا وجل.

(1) رواه البخاري، والنسائي، وأبو داود.

(2) نفحات النسرین والريحان - أحمد النائب الأنصاري ص (82) وكتاب الإشارات عبد السلام الفيتوري ص (14).

حقيقة الحب في الله

من المعلوم أن كل من أحب صالحاً من المسلمين فإنه يحبه لصلاحه وتقواه، لا لدنيا يصيبها أو مغنم يحصل عليه، وهذه هي المحبة الموصوفة بحلاوة الإيمان حسب ما بين الرسول ﷺ بقوله: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يقدف في النار»⁽¹⁾، وأوضح الرسول ﷺ أهمية هذا الحب فقال: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله»⁽²⁾.

دلت هذه الأحاديث والكثير غيرها مما هو معلوم في بابيه أن الحب في الله عبادة من أهم وأكبر العبادات وأوثق عرى الإيمان، ومن المعلوم كما قلنا سابقاً: إن من أحب الشيخ التجاني فقد أحبه الله تعالى، إذ ليس هناك بالطبع من مارب آخر، فلم يكن الشيخ التجاني من أهل الدنيا ولا كان ذا مال ولا تجارة، فأصبحت محبته محبة لله ورسوله وامتنالاً لامره وإحياءاً لسنة ﷺ المشار إليها بقوله: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»⁽³⁾، وقوله: «المرء مع من أحب»⁽⁴⁾.

فكل من أحب أولياء الله أحب الرسول ﷺ، وأحب الله تعالى بالضرورة، وهذا بالطبع يصدق على من أحب في الله حقيقة.

وأما قول الشيخ التجاني رضي الله عنه: لا يموت حتى يكون ولياً، فإن كل مؤمن تقي هو من أولياء الله، هذا ثابت بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: 62، 63).

فحقيقة الولاية هو الإيمان والتقوى، فإن قصده أن من سار على ما أنا عليه

(1) متفق عليه.

(2) رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند، ورواه الطبراني، وهو حديث حسن.

(3) رواه الترمذي، وهو حديث حسن صحيح.

(4) متفق عليه.

من أحبتي واقتفى أثري بجد واجتهاد سيصدق عليه لفظ الولاية، أي الإيمان والتقوى فيحظى بمحبة النبي ﷺ، وهذا كما قلنا لا يصدق إلا على كل مجتهد جمع الإيمان والتقوى، أما من انتسب للشيخ التجاني رضي الله عنه ولم يسر على المنهج المتمثل في الالتزام بالكتاب والسنة، فأمره متروك إلى الله سبحانه، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ومن يغفر الذنوب إلا الله .

ومن العجيب ما رأينا من افتراءات المتصوفة، أن شيخ الطريقة الشاذلية بالديار الشامية عبد القادر عيسى قد ذكر عن مورثه الطريقة الشاذلية، وهو الشيخ محمد الهاشمي التلمساني الجزائري في كتابه حقائق عن التصوف، الذي ضلل فيه المسلمين حيث ذكر الوجه الجميل للتصوف، وأغفل عن عمد الوجه القبيح - ذكر سلسلة مشائخ الطريقة منه إلى النبي ﷺ، وهي سلسلة ضمت كثيرا من غلاة الباطنية ودجاجة المتصوفة والعياذ بالله تعالى، والسلسلة مشتركة بين أربع طرق: القادرية، والشاذلية، والدرقاوية، والعلوية .

عودة للشيخ عبد القادر عيسى

قلنا سابقا: إنه لا يصح أن يقال عن الشيخ الفاضل السيد عبد القادر عيسى ألفاظ مثل: ضلل وأغفل عن عمد وما إليها، لأن الإغفال عن عمد لا يعلمه إلا علام القلوب، ولأن الشيخ عبد القادر عيسى هو من علماء المسلمين الذين أدوا واجبه في الدعوة إلى الله تعالى، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويكفي للدلالة على عظيم مرتبته، وعلو همته وسمو فضله كتاب (حقائق عن التصوف) الذي وفق فيه إلى إظهار الإسلام نقيا من شوائب الدس والتضليل التي يحاول البعض دسها بين سطوره، فانفتحت لهذا الكتاب مغاليق القلوب،

وانشرفت صدور المسلمين بفضل لظلال الأنس بالله تعالى ونعيم مناجاته وسعادة
قربه، ولا أدري ما الباعث للمصنف على العودة المرة بعد المرة للنيل من هذا العالم
العلم النبيل الجليل.

يا من يحاول أن تكون صفاته كصفات عبد الله أنصت واسمع
فلأنصحك في المشورة والذي حج الحجيج إليه فاسمع أو دع
اصدق وعف وبر واصبر واحتمل واصفح وكاف ودار واحلم واشجع
والطف ولن وتأن وارفق واتمد واحزم وجد وحام واحمل وادفع
فلقد محضتك إن قبلت نصيحتي وهديت للنهج الأسد المهيح

وأما عن شيخه السيد محمد الهاشمي فكفاه فضلاً وشرفاً أن ربي مثل
السيد عبد القادر عيسى، وبالإضافة إلى هذا هو من العلماء العاملين أهل الصلاح
والتقوى والعلم والفتوى، وله ما يقارب العشر مؤلفات تتلخص كلها في الدعوة
إلى الله وإرشاد العباد إلى بارئهم وتصويب عقائدهم⁽¹⁾.

والغريب أن المصنف لم يكتف بالنيل من السيد عبد القادر عيسى المرة تلو
المرة، بل تعداه إلى نيز المشائخ الكرام بأنهم من غلاة الباطنية والدجاجة، ويبدو أن
المصنف قد نسي أنه كتب على غلاف كتابه الذي بين أيدينا أنه مدرّس بالجامعة
الإسلامية وواعظ بالمسجد النبوي الشريف، فأين الوعظ؟ وأين التدريس؟.

قال ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»⁽²⁾ وعلى كل
حال سامح الله المصنف وأبدله بكل حرف قاله في صالح المؤمنين ألف حسنة، وما
ذلك على الله بعزير.

(1) ترجم الشيخ عبد القادر عيسى للشيخ محمد الهاشمي رضى الله عنه في كتاب حقائق عن
التصوف ص (618 - 626) فانظره.

(2) رواه البخاري.

ومن أفضع الكذب وشرها أن ترفع إلى رسول الله ﷺ ويكون الرسول فيها فداه أبي وأمي محابياً لثلاثة من أصحابه وهم: أبو بكر الصديق، وأنس بن مالك، وعلي بن أبي طالب دون سائر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، اللهم إنا نبرأ إليك من الكذب على رسولك واتهامه بالمحاباة والتحيز في إبلاغ الهدى، وبيان سبيل الرشاد، ونشهد أن محمداً ﷺ قد بلغ كل ما أوحيته إليه وأمرته بإبلاغه.

اختصاص بعض الصحابة بعلوم دون غيرهم

أربع على نفسك أيها المصنف، فالحقائق لا تثبت بالدعاوى المجردة، والعبادات الجوفاء، والكلام البراق المخادع.

أولاً: إن تعريف الصحابي هو كل من لقي النبي مؤمناً به ومات على الإسلام، وقد توفي الرسول ﷺ ومن رآه وسمع منه أكثر من مائة، وقيل: مائة وأربعة عشر ألفاً من رجل وامرأة، كلهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية، وهذا عدد الرواة فقط دون غيرهم، وأما من اشتهر وجاء له ذكر في كتب الأحاديث والسنن والتراجم حتى بأضعف الروايات والأسانيد عن النبي ﷺ فهم سبعة آلاف وخمسمائة وأربعون نفساً، وقيل: أكثر من ذلك على خلاف في تعريف الصحابي، فهل يعقل أن يستوي كل هذا العدد من الصحابة في مقدار الأخذ عن النبي ﷺ؟

ولا يختلف اثنان على أن بعض كبار الصحابة كالحلفاء الراشدين مثلاً، لا يلحق بهم لاحق في غزارة العلم، وكثرة المعرفة دون غيرهم من الصحابة، وهذا العلم الذي اختصوا به لا يرجع لمحاباة أو تحيز الرسول ﷺ لفلان دون فلان، تأدياً مع الرسول ﷺ أولاً، ومخالفته لأبسط البديهييات ثانياً، فلا يعقل أن يستوي كل الناس في درجة الإيمان والاهتمام وتلقي العلم والعناية به، وقوة الحفظ والمعرفة وفقاهة النفس، والعناية بنوع خاص من الدين كاختصاص زيد رضي الله عنه بعلم الفرائض

مثلاً، فكان ما اختص به هؤلاء الصحابة الكرام دون غيرهم لهذه الأسباب البديهة، لا لتحيز الرسول ﷺ لفلان دون فلان وما إلى ذلك من العبارات الفارغة الجوفاء.

ثانياً: إن كلام المصنف - أرشده الله - بهذا الأسلوب ونفيه أن يختص بعض الصحابة ببعض العلوم - مع شديد احترامنا له - يدل على جهل تام بالدين وعدم معرفة شيء من طرق روايته ووصوله للمسلمين.

فإن كان أراد عدم اختصاص أحد من الصحابة بشيء يؤثر عنه ويروى من طريقه هو فقط دون غيره، فهو باطل أيضاً وفي الدرك الأسفل من البطلان، إذ ليس أحد من الصحابة إلا وقد اختص بنقل ما لم ينقله غيره، ولم يشترك الصحابة كلهم إلا في نقل ما هو ضروري العلم، كاصول الإيمان والتوحيد وأركان الإسلام فقط دون ما اشتملت عليه من الأحكام والفروع، إذ إنهم لو اشتركوا في ذلك لكانت الأمة متفقة على الأصول والفروع، فالجميع قد اشتركوا في الأخذ عن النبي ﷺ وكلهم جلس إليه وسمع منه، واختلفوا مع هذا في الفروع والأحكام أشد الاختلاف.

ثم إننا نعرف أن بعض الصحابة قد اختص بعلم التفسير كابن عباس، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وبعضهم بالحديث كأبي هريرة، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وبعضهم بالقراءات كأبي بن كعب، وابن مسعود، وبعضهم بالفقه كالإمام علي، وعمر بن الخطاب، وابن مسعود، وما إلى هذا مما هو معروف، فهل نسمي النبي ﷺ محابياً أو متحيزاً، ولم يبلغ كل ما أمر به واختص أبي بن كعب مثلاً دون غيره بعلم القراءات وغيره، أستغفر الله العظيم من هكذا ترهات.

وعن أبي هريرة قال: «حفظت عن رسول الله ﷺ وعائش: أما أحدهما فيثنته، وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا الخلقوم»^(١).

فمما لا شك فيه على رأي المصنف أن الرسول والحال هكذا قد بلغ نصف ما

(١) رواه البخاري.

أوحى إليه لهذا الصحابي دون غيره محابة له وتحيزاً، وأنه اختص حذيفة بن اليمان بعلم الفتن، وكان من الواجب عليه - حاشا جناحه الرفيع - وفق منطق المصنف المعوج أصلاً وفرعاً أن يشرك معه الصحابة كلهم، فعن حذيفة بن اليمان أنه قال: «والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة»⁽¹⁾.
وسأل أبو الدرداء علقمة رضي الله عنهما: «أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره»⁽²⁾ يقصد حذيفة.

والخلاصة: أنه نعم قد اختص النبي ﷺ بعض الصحابة ببعض العلوم دون غيرهم، ومن بين هذه العلوم علم معالجة القلوب وإصلاحها، على رأس هؤلاء ابن عمه ووزيره ومن هو منه بمنزلة هارون من موسى، الإمام علي بن أبي طالب لأسباب عرفنا بعضها وعلمناه، وبعضها الآخر لا يعلمه إلا الله ورسوله ﷺ، ولا دخل لنا فيها من بعيد أو قريب، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليأبى وكل ميسر لما خلق له.

ومما يفضح هذه الفرية القبيحة، أن البخاري روى في سننه الصحيح إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: «المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا» الحديث، فنفي أن يكون رضي الله عنه قد خصه النبي ﷺ بشيء لم يعلمه أمته، وهذا مسلم أيضاً روى في صحيحه عن طريق أبي الطفيل، كنت عند علي فأتاه رجل فقال: ما كان النبي ﷺ يسر إليك؟ فغضب ثم قال: ما كان يسر إلينا شيئاً كتمه عن الناس، غير أنه حدثني بكلمات أربع وفي رواية له ما خصنا بشيء لم يعلم به الناس كافة، إلا ما كان في قراب سيفي هذا، فأخرج صحيفة مكتوب فيها لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق من الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن

(1) رواء مسلم.

(2) رواء البخاري، ومسلم.

الله من أوى محدثا، وبإبطال هذه الفرية الباطلة سقط بنا التصوف
وانهدم، فلا يقام ولا يرفع أبدا، إن بدعة التصوف قامت على أساس أن
النبي ﷺ أسر لعلّي وأبي بكر وأنس بعلم الحقيقة، فكانوا يعرفون
الحقيقة والشريعة وعامة الصحابة لا يعرفون إلا الشريعة، ومن هنا جاء
علم الباطن والظاهر، وضرب الإسلام على أيدي غلاة الروافض
والباطنية والزنادقة من اليهود والنجوس المنتسبين إلى الإسلام لهدمه
وتقويض أركانه، وقد فعلوا مع الأسف ونجحوا، ومن الحزن المؤسف أن
يأتي بعد هذا رجال يلهثون اليوم وهم يحملون نفايات التصوف
يبشرون به، ويدعون إليه، خيب الله سعيهم وأحبط أعمالهم

باب مدينة العلم علي بن أبي طالب

يا للسذاجة.. لقد استطاع المصنف أن يبطل التصوف ويسقط بناء ويهدمه
فلا يقوم، كيف لا وهو خاتمة المحققين ورأس العارفين؟

والحديث المذكور هو حديث صحيح، جاء في العديد من الصحاح
وكتب السنن بعدة روايات اختلفت اختلافا يسيرا في اللفظ واتفقت في
المعنى، وأصح لفظ جاء فيه - والله أعلم - ما رواه البخاري عن أبي جحيفة قلت
لعلّي: (هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه لرجل مسلم أو ما
في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل - الدية - وفكاك
الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر)، وقد رواه البخاري في جزء 1 ص 28 ورواه أيضا
في جزء 9 ص 10.

ورواه الدارمي في جزء 2 ص 110 - 111 وفيه عن أبي جحيفة قلت لعلّي:

(يا أمير المؤمنين! هل علمت شيئا من الوحي إلا ما في كتاب الله تعالى؟
قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله لرجل في القرآن
أو ما في هذه الصحيفة... إلخ).

ورواه الترمذي في جزء 2 ص 432 بلفظ قلت: « يا أمير المؤمنين! هل عندكم سوداء في بيضاء ليس في كتاب الله؟ ».

ورواه أحمد في جزء 6 ص 33، وابن ماجه في جزء 8 ص 19، ورواه أبو داود جزء 4 ص 180 حديث رقم 4530، عن قيس بن عباد قال: (انطلقت أنا والأشتر إلى علي عليه السلام فقلنا: هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس عامة؟ فقال: لا إلا ما في كتابي هذا، فإذا فيه: المؤمنون تتكافؤ دماؤهم وهم يد على من سواهم).

ورواه النسائي بنفس رواية أبي داود تقريبا في جزء 8 ص 19.

وهو حديث صحيح كما قلنا، ولكن الذي ليس بصحيح هو ما قاله المصنف عنه، ومحاولته الاستدلال به في غير موضعه، فإن السؤال كما رأيت في الحديث المذكور بكل رواياته عن كتاب مكتوب سوى ما بين أيدي المسلمين من كلام الله تعالى، وذلك لما كان يشاع في ذلك الوقت على أيدي بعض غلاة الشيعة –المنقرضة – عن اختصاص الإمام علي رضي الله عنه بقرآن غير الموجود بين أيدي المسلمين، وسموه مصحف فاطمة⁽¹⁾ وجعلوه مقابلا لما بأيدي المسلمين من الوحي، فكان جواب الإمام علي بأنه ليس عنده من مكتوب سوى هذه الصحيفة التي في قراب سيفه، وعند قراءتها تبين أنها ليست بقرآن، وهذا واضح أشد الوضوح من قول السائل: هل عندكم سوداء في بيضاء، فالسوداء هو المداد والبيضاء هو الورقة أو الصحيفة، وكما يتضح من رواية البخاري هل عندكم من كتاب؟ ويشند الوضوح بما لا مزيد عليه في رواية الدارمي بقول السائل: يا أمير المؤمنين! هل علمت شيئا من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ فإن السؤال كما يرى كل مبصر عما إذا اختص الإمام بكتاب فيه من وحي السماء دون ما عند المسلمين، وبالطبع كان

(1) جاء في كتاب الكافي للكليني: إن مصحف فاطمة فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد ص (57).

الجواب في جميع الروايات واحداً، وهو نفي وجود سوى ما بين أيدي المسلمين الموجود بين الدفتين، والذي يعلمه كل مسلم من كلام الله تعالى .

ولم يكن للحديث علاقة من قريب أو بعيد وبأي وجه كان باختصاص الإمام علي رضي الله تعالى عنه بالعلوم والحقائق العرفانية، كما اختص غيره من الصحابة كما قدمنا، فهذا من المسلّم به بين المسلمين، بل إنك لو سألت من لا يعرف من العلم إلا أقله عن علم الإمام وفضله وتميزه عن الصحابة بمميزات لم يحظ بها سواه لحدثك بالشيء الكثير.

فلا أحد من المسلمين يجهل اختصاص الإمام علي بحل الإشكالات وفك المعضلات، حتى كان سيدنا أبو بكر الصديق والمسلمون يقولون لعلي: يا مفرج الكرب، بعد حادثة اليهودي المشهورة⁽¹⁾، وكان سيدنا عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن، واختصاصه بتفسير القرآن الكريم ببصيرة ثاقبة، والتضلع في علومه، والإخبار عن الأحداث الماضية والآتية، والتكلم في الحقائق والمعارف (حتى شهد له الصحابة بأن عنده تسعة أعشار العلم)⁽²⁾.

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»⁽³⁾.

وعندما نزل قوله تعالى: ﴿وَتَعْلَمُهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾ (الحاقة: 12) قال ﷺ: «اللهم اجعلها أذن علي، قال علي: ما نسيت بعد ذلك شيئاً»⁽⁴⁾، وعن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كنا نتحدث أن النبي ﷺ عهد إلى علي رضي الله عنه سبعين عهداً لم يعهدوا إلى غيره»⁽⁵⁾، نعم لم

(1) انظر كتاب المجتبى - لابن دريد.

(2) رفعه أبو نعيم في الحلية إلى النبي ﷺ بلفظ: «قسمت الحكمة عشرة أجزاء فأعطى علي تسعة أجزاء، والناس جزء واحد».

(3) رواه الحاكم وقال: «صحيح الإسناد»، والطبراني، والترمذي، وابن جرير، والسميرقندي في بحر الأسانيد، وصححه ابن معين إمام أهل الجرح والتعديل.

(4) رواه أبو نعيم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والواحدي، وابن النجار، والثعالبي في التفسير.

(5) رواه الطبراني في الصغير، وأبو نعيم في الحلية، وهو حديث حسن.

يختص الإمام بشيء من القرآن الكريم دون غيره، ولكنه اختص بعلوم ومعارف لم تكن إلا عنده.

روى الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن مسعود قال: (تمارينا في سورة من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، وست وثلاثون آية فانطلقا إلى رسول الله ﷺ فوجدنا علياً يناجيه فقلنا له: إنا اختلفنا في القرآن، فاحمر وجه رسول الله ﷺ فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرأوا كما علمتم⁽¹⁾، فانظر إلى مناجاة الرسول ﷺ له، وانظر بإمعان وتدبر إلى لفظ إجابته عن رسول الله ﷺ وتأمل تغنم.

ومحاولة المصنف إنكار أن يكون الإمام علي قد اختصه الرسول ﷺ بعلوم دون غيره هي محاولة يائسة فاشلة، والعجيب أن يدعي أنه باستدلاله بهذا الحديث الذي لا علاقة له بما استدل عليه، أو حتى رائحة علاقة قد هدم التصوف، فلا أدري من أيهما أنا أعجب، من طريقة استدلاله بالأحاديث، أم من بساطته اللامحدودة في فهم الأمور.

وماذا عسى أن ينقل الناقل من فضائل من هو أول الناس إسلاماً في قول كثير من أهل العلم، ومن ربي في حجر النبي ﷺ أكمل تربية من أكمل مرب، بل لم يفارقه وشهد معه المشاهد كلها إلا غزوة تبوك، ولما آخى النبي ﷺ بين أصحابه قال له: (أنت أخي)، وروى البخاري ومسلم: «أن الرسول ﷺ يوم خيبر قال: «لأدفعن الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه فأعطاهما في الصباح لعلي».

فانظر أيها المسلم الراشد إلى شهادة الرسول ﷺ له بمحبته لله ورسوله ومحبة الله ورسوله له.

وبعته صلى الله عليه وسلم يقرأ براءة على قريش وقال: «لا يذهب إلا رجل مني وأنا منه»، وقال لبني عمه: «أيكم يوالي بني في الدنيا والآخرة؟ فأبوا، فقال

(1) زوائد المسند للإمام عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل.

علي: أنا، فقال: إنه وليي في الدنيا والآخرة»، وأخذ رداءه الشريف فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين وقال: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ» (الأحزاب: 33)، وقال في حقه: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وعندما سدَّ ﷺ الأبواب التي كانت تفتح داخل المسجد لم يترك إلا باب علي، فیدخل المسجد جنباً وهو في طريقه ليس له طريق غيره.

وأخرج الترمذي وأصله في مسلم عن علي قال: «لقد عهد إلي النبي ﷺ أن لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

ونحن نُشهد الله تعالى أننا نحب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره ووزيره، ونقر له بكل مكرمة ومنقبة وإن جحد الجاحدون وأنكر المنكرون.

والمقصود من وراء وضع هذا الأصل من أصول الطرق الصوفية، هو احتكار الشيخ للطريقة بسد كل الطرق الموصلة إلى الإيمان بالله تعالى ومعرفته، ومعرفة محابه ومكارهه وكيفية عبادته والتقرب إليه، للفوز بمحبته ومرضاته وجناته بعد ولايته في حياته، وبذلك يجد العبد نفسه مضطراً للأخذ بطريقة من الطرق الموضوعة في الظاهر للهداية والتربية الروحية والسلوكية وفي الباطن للتجهيل والتضليل معاً.

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم، يغفل المصنف فيأتي بما لم تر عين أو تسمع أذن أو يخطر على قلب بشر.

إن الإيمان - أيها المصنف - كلمة تصدق على كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى، فكل من آمن بهذه الأصول الستة من المسلمين فهو مؤمن وإن كان مقيماً في غيايات جب تخميق لا يختلط بأحد من الخلق، بل إن كل من أقرَّ الله تعالى بالوحدانية والنبوة

لحمد ﷺ وإن لم ينطق بهما لمانع، يصدق عليه مطلق لفظ مؤمن، فكيف سد الصوفية الطرق الموصلة إلى الإيمان بالله تعالى؟ بل وكيف يستطيع مخلوق أن يسد هذا الطريق، وحتى كفار قريش لم يظفروا من بعض المسلمين بعد الاشتداد في تعذيبهم إلا بالفاظ لا تعني شيئا، وبقيت قلوبهم مطمئنة بالإيمان عامرة به، ولو كان الإيمان شيئا يمسك باليد أو تقطع طريقه لما توانى أئمة الكفر عن اقتلاعه من جذوره وسد الطرق المؤدية إليه.

سيحان الله، إن الإيمان بالله تعالى نور قد يتسلل حتى إلى أقسى القلوب وأشد الأفتدة كفرا فيحولها من الظلام إلى النور ومن الضلال إلى الرشاد، ويتبع هذا الإيمان بالضرورة معرفة محاب الله ومكارهه، ولا تعرف هذه المحاب والمكاره إلا بالاجتماع بالعلماء والأخذ عنهم، وهذا ما يقوله كل عاقل أو حتى نصف عاقل.

أما الأخذ عن مشايخ التصوف فهو للتربية والتحقق بمقام الإحسان المشار إليه بالحديث الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁽¹⁾ أي مقام المعرفة والمراقبة والخشية الناتجة عن المشاهدة، قد بين الرسول ﷺ هذه الدرجات الثلاث من إسلام وإيمان وإحسان في الحديث المعروف، نعم كل من أقر باللسان فهو مسلم، وكل من أقر باللسان واعتقد بالجنان فهو مؤمن، وكل من أقر باللسان واعتقد بالجنان وعمل بالأركان وراقب الرحمن فهو محسن، وما على المحسنين من سبيل.

ولا تتأتى هذه المراقبة إلا لمن سلك الطريق الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، وسار عليه من بعدهم السادة الصوفية.

(1) رواه مسلم.

ولو كانت طرق التصوف وافية ببيان سبيل الله تعالى، كافية في تربية المسلم ديناً وخلقاً وعقلاً وفكراً لهان الأمر، ولكن المعروف عن مشايخ الطرق أنهم لا يعطون المريد أكثر من الورد وبعض التوجيهات الخاصة، كالحفاظ على الصلوات الخمس والورد ومحبة إخوان الطريقة أو الشيخ كما يقولون مع توصيته وتحذيره من أن يأخذ من شيخ آخر وينتمى إلى طريقة أخرى.

السادة الصوفية ودورهم الإرشادي

إن المصنف على عادته يقطع في الأمور بطريقة أصبحت تدعو للسخرية، بل وإلى الشفقة والرتاء.

فقله: إن المشايخ لا يعطون المريد أكثر من الورد... إلخ، يجعلنا نتساءل كما تساءلنا سابقاً، هل أخذ الطريقة على يدي أحد هؤلاء المشايخ؟ أم هل حدثه أحد هؤلاء بأنهم لا يعطون المريد أكثر مما قاله؟ وهل عرفهم جميعاً؟ وعرف أيضاً كل المريدين الذين أخذوا منهم حتى يتسنى له القطع والتعميم بدون استثناء واحد.

لا جرم أننا لا زلنا نحاشي المصنف عن قول غير الحق، وننسب كلامه وقطعه للغفلة ليس إلا، ولو أنه قبل أن يتلفظ بهذه الإدعاءات جلس إلى هؤلاء لشاهد بأم عينيه كيف يحيي هؤلاء الأكارم الأماجد السنة النبوية المطهرة، بالدعوة إلى الخير ومكارم الأخلاق، والنهي عن الشر ومنكر الأعمال، تأسيًا بالمصطفى ﷺ وسيراً على سنته.

كان الشيخ محمد بن عيسى رضي الله عنه يشترط على المريد قبل الدخول معه في الطريق (امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات والحفاظ على الصلوات، ومراقبة الله تعالى في جميع الأوقات والصمت والمحبة والصبر والعزلة والحنان والرافة)^(١)، ولا زال أهل الطريق الصادقون ملتزمين بهذا الشرط قولاً وعملاً.

(١) إتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس، للشريف مولاي عبد الرحمن بن زيدان ج١ ص (43).

وكان الشيخ الجزولي يوصي بالاختلاط بالعلماء الصالحين وأهل الفضل، وعدم الاختلاط بالفسقة وأهل اللهو والمجون، حتى لا ينتقل حالهم إلى المرید لما للصحة من أثر مشاهد معروف في تقويم واعوجاج الأخلاق، فيقول رحمه الله: (فليجتهد العاقل في مخالطة الخصوص، وفي مخالطة الخصوص ثلاث خصال: اكتساب العلم، وصفاء القلب، وسلامة الصدر)⁽¹⁾.

وكان أحمد الرفاعي رضي الله عنه يقول مبينا أهمية الالتزام الكامل بالكتاب والسنة: (إن الواحد منكم ما دام على الكتاب والسنة فهو على الطريق، ومتى انحرف عنهما ضل عن الطريق)⁽²⁾.

وللشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر كتاب يسمى «بالوصية الكبرى» أوصى فيه كل من انتسب للطرق بأمور الخير، ونهاه عن كل ما يقرب للفساد والشّر، مستمدا من الكتاب وسنة النبي الكريم ﷺ، والكتاب مطبوع وباستطاعة من أراد الاطلاع عليه وقد بين فيه رضي الله عنه طريقته المتمثلة في التطبيق العملي للكتاب والسنة.

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما لا يعلمه المصنف عن وصايا المشايخ لاتباعهم ومريديهم، ولولا خوف الإطالة لنقلت من هذا الكثير، بل ولنقل حتى بعضا مما سمعناه من وصايا المشايخ الكرام في عصرنا هذا.

بهذا مضت فترة غير قصيرة على أمة الإسلام، وهي جماعات متباينة لا يعطف بعضها على بعض، هذا قادري، وهذا نقشبندي، وهذا رفايعي، وهذا درقاوي، وذاك هبري، وذا عليوي، وتمسك كل فريق بشيخ وورد وطريقة وجماعة.

(1) هذه الوصية للشيخ الجزولي أصلا وإن كررها من بعده تلاميذه وأتباعه كالشيخ محمد بن عيسى كما مر بك ص (43).

(2) التصوف وأقطابه - الشيخ محمد محمود السطوح ص (33).

اللهم أنطقنا بما فيه مرضاتك .

لا أدري من أين يأتي المصنف - عفى الله عنه - بهذه الألفاظ عن تباين أمة الإسلام وعدم عطفهم على بعضهم البعض، بل ويقطع على عادته في إصدار الأحكام بأنه قد أتت على أمة الإسلام فترة وهي كما قال، وهذا ما لم يحدث قطعاً، فما كانت أمة الإسلام كذلك فترة قصيرة ولا طويلة حاشاها من ذلك حاشاها، وهي خير أمة أخرجت للناس، كتابها القرآن الكريم ونبيها محمد العظيم ﷺ، فهذا الهراء لا وجود له إلا في الأذهان السقيمة التي تظن أن العالم يقف عندها ولا يتعداها، وأن الكل على خطأ ما عداها، فإن من فعل هذه الأمور التي ذكرها المصنف يصدق عليه كل اسم إلا الإسلام «فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١)، وقد دأب المسلمون الصالحون على العطف والمواساة ولين الجانب والمودة وحسن الخلق والبشاشة والرحمة وما إلى ذلك من صالح الأعمال .

أما أولئك الحاقدون الماكرون الخارجون عن تعاليم الإسلام فلا يمثلون المسلمين حتى يصدر المصنف هذا الحكم، وباليته استمر في حديثه عن التصوف بدلاً من توسيع دائرة الاتهامات لتشمل حتى موتى المسلمين ولا تستثني أحداً، وهو - سامحه الله - ليس بقاصر عن إدراك هذا السقوط، ولكنه أخذته الحدة العمياء، فطفق يكتب ما جرى به القلم مما يراه قدحاً في التصوف، ونسي أن القدح هو في الخروج عن القياس، والأحكام المعتدلة شرعاً وعقلاً وعرفاً .

وما كان تعدد الطرق مما يفرق بين المسلمين، فهي أمة الإسلام تتعبد ربها بمذاهب مختلفة من شافعي إلى حنفي إلى حنبلي إلى مالكي إلى زيدي إلى إمامي منذ صدر الإسلام الأول وحتى يومنا هذا، فهل كان هذا في يوم من الأيام مدعاة للتفرقة أو مشتتة لجماعة المسلمين، وقس عليه المذاهب العلمية المختلفة في اللغة

(١) متفق عليه.

والتاريخ والأصول وغيرها، بل والجماعات المجتهدة حتى داخل المذهب أو المدرسة الواحدة.

إنه من السذاجة أن نظن أن تعدد الطرق مدعاة للفرقة، بل الصحيح الذي يعرفه ويشاهده كل ذي عقل ونظر، أنها إثراء للحركة الفكرية الإسلامية، وروافد تغذي نهر الحضارة والعلم، بداهة أنه من المستحيل أن يكون كل الناس نسخة مكررة من بعضهم البعض إذ لا بد أن يتمايزوا، وهكذا أخذ كل منهم بما رآه يناسبه مذهباً أو طريقة أو اجتهداً.

ولهذا لما عزم المنصور العباسي على أن ينسخ من الموطأ نسخاً ويبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة، ويأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها قال له الإمام مالك: (دع الناس على ما هم عليه^(١))، ولهذا أيضاً أثنى علماء الإسلام على المذاهب ولم يروا فيها إلا سبباً لوحدة المسلمين وجمعهم، إذ إن الاختلاف المذموم هو الاختلاف في العقائد والأساسيات، أما في الفروع فهو صلاح ورشاد، ومن البساطة اللامتناهية رؤية غير هذا.

وتمسك كل فريق بشيخ وورد وطريقة وجماعة، ومن هنا سهل على أعداء الإسلام ديار الإسلام فوضعها المسلمون قاطبة تحت حكمهم واستعمروهم واستغلوهم.

لقد مل اليراع وكل الذراع من تكرار كتابة أن الحقائق لا تثبت بالدعاوى الفارغة، والاتهامات الباطلة الجوفاء بل بالأدلة والبراهين. ونذكر المصنف بأنه حدثنا في الصفحات السابقة عن جريمة من غش

(١) مالك بن أنس - عبد الحليم الجندي ص (١٩٧) والحادثة مشهورة ولا يكاد يخلو منها كتاب تاريخ أو سيرة بل وحتى بعض كتب الفقه.

المسلمين وحديثهم بغير الحق، وقد تحدثنا فيما سبق عن كيفية دخول الاستعمار إلى ديار المسلمين، وأصبح لا لزوم للتكرار الممل، ولو أن المصنف بدلا من ترديد هذه الخرافات والخزعبلات اشتغل بذكر الأدلة لكان أجدى وأنفع. ولكن كل ما ليس له أرجل لا يقف، والتراب لا يكون دقيقا ولو أقسمت، والحصى لا يكون عقيقا ولو أوهمت.

وهم الذين وضعوا للمسلمين الطرق والتصوف لتفرقتهم وإذهاب ريحهم، وليسهل أخذهم والتحكم فيهم واستعمار ديارهم واستغلال ديارهم واستغلال خيراتهم، إذ هم القائلون (فرق تسد) وقريب من معناها، وأذكر في بروتوكولات حكماء صهيون، وأقم عداوة بين الشعب والدولة ليقع الاثنان في حوزتنا.

لله در أبي المصنف، ألا ما أكثر تخطئه وأقل تثبته.

قال في الصفحات السابقة: إن التصوف وجد في القرن الرابع الهجري، وقد بينا في حينه خطأ هذه الافتراءات التي لا تستند إلى حقيقة علمية واحدة، ولكننا نجدنا مضطرين للعودة إلى تلك الفقرة من جديد، لا لنعاود الحديث فيها فقد ذكرنا في حينه ما يزيد عن الحاجة، ولكن فقط لتذكير المصنف إن نغعت الذكرى بأنه قال: إن التصوف قد وجد في القرن الرابع الهجري، وهو هنا يقول وبكل جراءة إن الاستعمار هو الذي وضعه، ووجه الغرابة أنه حتى القرن الرابع لم يكن هناك شيء اسمه استعمار أو مستعمر، ولم تظهر الأفكار الاستعمارية إلا بعد ذلك بمئات السنين، وكذلك لم تكن هناك بروتوكولات ولا غيرها إلا بعد تلك الحقبة كما هو معروف عند من له أقل القليل من علم التاريخ، فكيف يضع المستعمرون شيئا وجد قبلهم باعتراف المصنف.

وكلمة أخيرة: إن من غريب التناقض في الطرق الصوفية أو أصحابها، ويشترطون في الشيخ المربي ذي الإذن الخاص أن يكون متحلياً بصفات الكمال التي لا يمكن أن توجد حتى في بعض الأنبياء، ومع هذا تراهم ينصبون مشائخ ويضعونهم على رأس طرق يعطون الورد ويربون وليس لهم من تلك الصفات عشر معشارها .

ليس كذلك، فالتناقض عند غيرهم

إن شيخ العناية العارف بالله تعالى الذي مكنه الله في مقام الولاية، وأفاض عليه من الكمالات ما أهله لأن يكون وارثاً للرسول ﷺ، وعلى قدمه في الدعوة إلى الله تعالى، مسلماً للخلق مرشداً لهم بحاله ومقاله إلى ما ينفعهم، متمكناً من علوم الشريعة معقولها، ومنقولها، راسخاً في علوم الشريعة والحقيقة الشريفة والمقامات السامية المنيفة، مثل الشاذلي، والمرسي، وابن عطاء الله، والجزولي، ومحمد بن عيسى، وأحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي، وعبد السلام الأسمر، وأحمد العلوي، والرفاعي، والجيلاني، والنقشبندي، وغيرهم من أهل المعرفة والعمل هو المعنى بوجوب تحليه بصفات الكمال المذكورة، وقد كان هؤلاء المذكورون حائزين حقيقة لكل وصف حميد، وآثارهم تشهد لعلو شأنهم ورفعة شأنهم وسمو مكانتهم .

وتبقى طرق هؤلاء السادة الأجلة المتمثلة في تطبيق الشريعة الإسلامية والعمل بالأحكام الدينية، يحملها الأمثل فالأمثل ممن سار على طريقتهم وتحقق بحقيقتهم، أخذ الطريق عمن سبقه من رجاله، وورث ميراث الصالحين من علم وعمل، وسار على نهج الصادقين بدون خلل في الدعوة إلى الله على بصيرة، وترك

الاختيار مع الله ورسوله والخيرة، وهم الذين تصدروا للمشيشة بعد أولئك الكمل.

فإن كان المصنف - ساعده الله - كما قلنا ولا زلنا نقول: اختلط بهؤلاء وجلس إليهم وحادثهم جميعا في طول العالم وعرضه، فإننا نقبل منه قوله بأنهم لا يملكون من صفات الكمال حتى عشر معشارها، وإلا فلا داعي لتعميم الأحكام وإرسال القطوع الواحد بعد الآخر بدون تأكيد وثبوت، فكل عاقل يعرف قبح وسماجة هذا المسلك.

الأنبياء وصفات الكمال

ثم إن المصنف - هداه الله - تجاوز الحد فترك القدح في الصوفية، وانتقل إلى القدح في الأنبياء بحديثه عن صفات الكمال التي لا يمكن أن توجد حتى في بعض الأنبياء على حد زعمه وزعم الوهابيين عموما، أخذنا بظاهر النصوص وعملا برأي تجويز المعاصي للأنبياء، وما أدري ما دخل الأنبياء وصفات كمالهم فيما نحن فيه من قريب أو بعيد.

وعلى كل حال، نحن نخالفه في هذا الشأن، إذ إننا نرى أن النبوة لا تنفك عن ذوات الأنبياء منذ بدء الخليقة، وإلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى، قال ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»^(١). وكيف لا يتحلى من هذا وصفه بكل كمال، بداهة أنه لا يصبح هناك مبرر لاتباعه وتصديقه إن لم يكن كامل الصدق مثلا، ولهذا وجب وصف الأنبياء بكل كامل من الفضائل، فالنبي كامل الأخلاق من صدق وعفة وحياء وكرم، لا يكذب ولا يفحش أبدا، وما إلى هذا من شريف الأوصاف والصفات وكرامها.

ولا يتسع المجال لمناقشة عقيم دعوى وباطل فتوى من يجوز نسبة المعاصي

(١) وفي رواية «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»، ورواية أخرى «كنت نبيا وآدم منجلد في طينته»، والرواية المذكورة أعلاه بلفظ الطبراني، وصاحب الحلية.

للأنبياء، وتفسيره لقتل سيدنا موسى للرجل، وهم يوسف الصديق بتفاسير لا تتفق مع جلال قدر الأنبياء الكرام، بل وحتى ذوي المروءة من عامة المسلمين، نسأل الله له ولنا ولكافة المسلمين المغفرة والهداية.

ولنستمع إلى قراءة ما جاء في جواهر المعاني للتجاني الجزء الثاني من الصفحة الخامسة والثمانون بعد المائة: أما ما هي حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظر عينا وتحقيقا ويقينا، فإن الأمر أوله محاضرة، وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر كثيف، ثم مكاشفة وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، ثم مشاهدة وهو تجلي الحقائق بلا حجاب ولكن مع خصوصية، ولا بقاء للغير والغيرية عينا وأثرا، وهو مقام السحق والحق والدك والفناء، فليس في هذا إلا معاينة الحق في الحق بالحق، فلم يبق إلا الله لا شيء غيره، فما ثم موصول ولا ثم واصل.

لقد سبق أن قلنا: إن كتاب (جواهر المعاني) هو من تأليف علي حرازم المتوفى بالأراضي المقدسة، وهو ليس بحجة على أحد إلا مؤلفه، وكل ما جاء به سواء صحت نسبته للشيخ التجاني رضي الله عنه أو إلى غيره هو وصف لمقام الفناء، وسنتحدث عنه في حينه إن شاء الله تعالى، إذ أفرد المصنف له بابا خاصا.

إلى أن يقول الشيخ التجاني في جواهره: فهذا هو الشيخ الذي يستحق أن يطلب، ومتى عشر عليه المريد من هذه صفته فاللازم في حقه أن يلقي بنفسه بين يديه كالميت بين يدي غاسله، لا اختيار له ولا إرادة ولا عطاء ولا إفادة، ومتى أشار عليه بعمل أو أمر فليحذر من سؤال بلم؟ وكيف؟ وعلام؟ ولأي شيء فإنه باب المقت والطرد.

انتقال الحال من الشيخ إلى المريد

نعم إن كل ما ذكر عن وجوب التزام المريد عند أخذه عن شيخ يسلك به الطريق صحيح وقد سبق أن بينا طرفاً منه .

وكما قلنا: فإن الشيخ هو طبيب حاذق يشخص المرض ويعطي العلاج المناسب له، وأكبر عدو للإنسان هو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: 6)، فهو يزين للمرء المعاصي والوقوع فيما حرم الله مباشرة أو بوسيلة كالطاعة مثلاً، إذ رب مخمصة شر من التخم، حيث يزين لعنه الله للمرء علمه أو عبادته مما يجعله يظن نفسه حيثما لا يجب، وربما أوهمه أنه وصل إلى درجة من القرب فيؤثر البسط على القبض حيثما لا يكون، فيسقط في مهاوي البعد فيقع في مفاوز الندم ولات ساعة ندم، فهي معركة حامية الوطيس بين المؤمن وعدوه .

وفي المعارك والحروب ينفذ الجندي الأوامر حالماً بأمره قائده بدون تريث أو جدال، فقد يدهم العدو أو تضيق فرصة مباغتته إذا ما دخل الأثنان في نزاع أو خلاف، وكذلك الأمر في معركة الجندي فيها هو المريد الصادق، والعدو هو الشيطان لعنه الله والقائد هو الشيخ المربي، فتارة يأمر بالاستغفار، وتارة بالصدقة وتارة بقطع عادة، وتارة بخدمة الفقراء والمساكين وما إليها من أسلحة يعرف القائد المحنك كيف يستعملها في وقتها، فينتصر جند الخير على جند الشر ويكيد نور الحق لظلام الضلال .

وبالتزام المريد بنصح شيخه، والامتثال لأمره يسري حال الشيخ وبركته إلى المريد، فيكون سبباً في تعلقه بالله وإعراض قلبه عن الدنيا وشهواتها، فينعم عليه سبحانه بنعم القرب الوهيبية، وانتقال الحال شيء يعرفه أهل القلوب والمعرفة، ولا ينكره إلا محجوب معمي البصيرة، وها هو حال يوسف انتقل إلى أبيه يعقوب عليهما السلام حتى يقيمه إذ ألقاه البشير على وجهه فارتد بصيراً .

ومن ينكر انتقال حال الصالح إلى أفسق الناس إذا جالسه أو تحدث إليه،

فمنه ما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنه ما يكون بأمور يعرفها أهل الأحوال وأرباب البصيرة.

قال الإمام علي عليه السلام: «بعثني رسول الله ﷺ قاضياً فقلت: يا رسول الله! إني شاب ولا علم لي بالقضاء، فوضع يده على صدري، وفي رواية فضرب بيده على صدري، وقال: اللهم ثبت لسانه واهد قلبه، فما شككت في قضاء بين اثنين حتى جلست مجلسي هذا»⁽¹⁾.

وفي الصحيح أن أبا هريرة قال: «حضرت مع النبي ﷺ مجلساً فقال: من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعته مني، فبسطت بردة علي حتى قضى حديثه ثم قبضتها، فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعته بعد»⁽²⁾.

نعم قد حوى الكتاب والسنة الأدوية النافعة التي من شأنها إصلاح القلوب وشفاء الصدور، ولكن تبقى الحاجة دائماً إلى الطبيب الذي يضع الدواء المناسب على العلة بعينها، فيصف لكل داء دواءه ولكل مرض علاجه، وهو المرشد العارف الذي يزداد المرء بصحبته إيماناً وكمالاً، وبملازمته هدى وثوراً، قال أبي بن كعب رضي الله عنه: كنت في المسجد فدخل رجل فصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل رجل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيتني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأني أنظر إلى الله عز وجل فرقاً⁽³⁾.

(1) رواه الحاكم في المستدرک وقال: «صحيح على شرط البخاري» وأقره الذهبي، ورواه ابن جرير، وابن سعد في الطبقات.

(2) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وأحمد، وأبو نعيم، والترمذي، وأبو يعلى، وابن عساکر.

(3) رواه مسلم.

انظر إلى ما تضمنه هذا الحديث بعين البصيرة، وغص في معانيه بشغافية الروح ودقة الفهم، علك تدرك جزءا من معانيه، واعلم أن للصحية أثرا عظيما يشمل حتى الحيوان الأعجم، وكفالك بكلب أهل الكهف مثلا، انتقال الحال لا يخفى على أولي الأبصار، أما رأيت الفرس يرتبك بارتباك الفارس ويخاف بخوفه، أما نظرت إلى الطفل يقلق بقلق أمه ويسعد بسعادتها، وتمعن ترى وتفهم تغنم .

هذا ولا ينكر القوم وجود هؤلاء العارفين، بل يقرون بوجودهم ويحددون حتى أماكن وجودهم وتواجدتهم، واسمع صاحب الجواهر يقول : وأما الشيخ الذي هذه صفته وكيف يتصل به ؟ وماذا يعرف ؟ فالجواب أن الشيوخ المتصفين بهذا الأمر كثيرون، وأغلبهم في المدن الكبار فإنها مقرهم، وأما معرفتهم والاتصال بهم فإنه عسير أعز وجودا من الكبريت الأحمر، لأنهم اختلطوا بصور العامة وأحوالهم، وذلك لعلة اقتضت منهم ذلك، وهي أن العامة لفساد نظام الوجود لا يريدون أن يتعلقوا بهم إلا من أجل ما يريدون من أغراضهم الدنيوية، وشهواتهم المادية فلذا اختلط العارفون عليهم بوجوه من التخليط استتارا عنهم بإظهار أمور من الزنا والكذب الفاحش والخمر وقتل النفس وغير ذلك من الدواهي التي تحكم على صاحبها أنه في سخط الله وغضبه، والأمور التي يقتحمها العارفون في هذا الميدان إنما يظهرون صوراً من الغيب لا وجود لها في الخارج، إنما هي تصورات خيالية يراها غيرهم حقيقة، وما فعلوا ذلك إلا استتارا لهم عن العامة حفظا لمقاماتهم وتحريرا لآدابهم .

والآن أسألك أيها القارئ البصير، هل حقا يوجد هؤلاء العارفون بالصفات التي تقدمت نقلا عنه ؟ لماذا يقرون بوجودهم ويقرونه ثم ينفون لقياهم والحصول عليهم ؟ هل مثل هذا الكذب والباطل يقره الإسلام، أو يرضى به مسلم عاقل ؟ هل هناك فتنة أعظم وأعم من أن

يرتكب أعظم الفواحش ويعشى أعظم الآثام من يكون وليا لله تعالى عارفا به، يفعل ذلك كله من أجل ألا يعرف أنه ولي الله عارفا به، حتى لا يتعلق به ويتطلب صحبته، إن نظام الوجود قد فسد وما فسد، وإنما هم الذين فسدوا وأن العوام لا يطلبون صحبه العالم العارف إلا للحصول على الدنيا.

سوء الفهم يوقع في هوة سحيقة

رويدا رويدا فإن في العجلة الندامة

فأولاً: قد أوضحنا سابقاً أن كتاب (جواهر المعاني) ليس من تأليف الشيخ التجاني رضي الله عنه كما يحاول المصنف جاهداً الإيهام به، وقد نسبت في هذا الكتاب أقوال كثيرة للشيخ التجاني، الله وحده يعلم الصحيح منها من الموضوع، ولا يقتصر الأمر على هذا الكتاب وحده، فإننا نجد أحياناً في مثل هذه الكتب التي كتبها المادحون أو القادحون ما لا يعقل فضلاً عن أن يقال، ولكننا نختلف عن المصنف في فهم ما نقرأ اختلافاً كبيراً، فحين يبحث هو عما يمس منزلة هؤلاء السادة الكامل ليقوم به حجته الواهية، نقيم نحن هذه الأقوال على ضوء ما عرفناه من سيرتهم المرضية ومآثرهم الزكية، ونتبع الرواة عنهم ومعرفة حالهم وضبطهم وعدالتهم وما إلى ذلك من طرق الثبوت والتأكد.

ثانياً: من الجلي الواضح وضوح النار على المنار، على ضوء ما عرفناه عن الصالحين أنه لا يصدر عنهم إلا كل ما هو في مستوى معرفتهم وفضلهم وصدق سيرهم على منهج سيد العارفين ﷺ، ثم إن هذه الفقرات التي أوردها المصنف إن صدرت عن الشيخ التجاني أو غيره من أمور الكشف، وسنتحدث عن الكشف في حينه إن شاء الله، وليس فيها ما يخرج عن دائرة الممكن، إن هي إلا وصف لأحوال بعض الصالحين وأماكن تواجدهم وسبب عدم اختلاطهم بكل من درج ودب،

مثلهم في ذلك كمثل كل ما هو قيم ونادر، إذ نظر إليه من لا يعرف قدره أنزله في غير محله فالاختلاف في الفهم والحكم هو الفارق.

وأما إن كان الاعتراض على إقدار الله تعالى لهؤلاء على إظهار صور من الغيب، فإن هذا من الكرامات التي يكرم بها الله تعالى من يشاء من عباده، يقول ابن تيمية رضي الله عنه: (وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ)⁽¹⁾، والتخييل الذي هو إظهار ما لا وجود له أو إخفاء ما له وجود من الكرامات المشهورة المجمع على إمكان حدوثها، ومنه ما نقله الشيخ ابن تيمية عن الحسن البصري رضي الله عنه: (إذ تغيب عن الحجاج بن يوسف فارس فإرسل إليه من يأتي به فدخلوا عليه ست مرات ولم يروه)⁽²⁾، وهو لم يخرج من داره ولكن خيل لمن دخل عليه الدار أنه غير موجود، ثم يعلمون أنه لم يخرج فيعاودون البحث عنه من جديد حتى بلغوا ست مرات كل ذلك لم يجدهوه وهو لم يخرج.

وأما عن استنتاجات وتعليقات المصنف على الفقرات السابقة وشتائمه وسبابه، فقد اعتدنا عليها وعلى أكثر منها وليس عندنا سوى الدعاء بالهداية والمغفرة، ونختم حديثنا بنصيحة عمرية عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يعلمنا فيها أن كلام أهل الكشف من أمثال الشيخ التجاني لا يكون إلا حقا فيقول: (اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه يتجلى لهم أمور صادقة).

ويعلق الشيخ ابن تيمية رحمه الله على هذا الخير بقوله: وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات⁽³⁾.

(1) الفرقان - الشيخ أحمد بن تيمية ص (139).

(2) المصدر السابق ص (146).

(3) النصيحة المذكورة والتعليق عليها جاءت في كتاب الفرقان لابن تيمية ص (58).

آه ثم آه، لقد عجزت عن إدراك هذه التخبطات وما يراد منها، وإني
لفي حيرة من معرفة السبب الحامل لرجال من أهل العلم ينصبون
أنفسهم لهذا الظلام، ليلقوا بالأبرياء والمساكين من عامة الأمة المسلمة
في مثل هذا الباطل وينشروا الفساد.

وأخيراً نطق المصنف بالحق والصواب، وأعلن عجزه عن فهم ما يتحدث عنه،
ولله در القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ولو أنه اطلع الاطلاع الكافي لفهم الفهم الصحيح، وباليته بدلاً من تأليف
الكتب وتصنيفها في الطعن في صالح المؤمنين والافتراء عليهم اهتم بأمر يعود على
المسلمين بالخير، كنشر أحاديث رسول الله ﷺ أو كتب الفقه وما إليها من أمور
الفلاح والرشاد، ولكنه ظن نفسه قد حاز علم السابقين واللاحقين فطفق يتحدث
عمّا يعجز عن إدراكه، ويدعي ما لم يكن، ويصول ويجول بلا حول ولا طول،
فانطقه الله أخيراً بالحق من حيث لا يشعر.

وزيادة في الحيرة والتخبط يتساءل عن السبب الحامل لرجال من أهل العلم
في الدعوة إلى التصوف، كأنه لا علم إلا الذي يعلمه، ثم وكيف يكونون علماء
وهم يدعون إلى الظلام وينشرون الفساد على رأيه، فإما أن يكونوا علماء ويدعون
إلى الحق وهو شأن أهل التصوف، وإما أن يكونوا ممن علم لبيباي العلماء وبمباري
السفهاء ويستميل وجوه الناس، أو ليأخذ به من السلطان شأن غيرهم ممن لا
يسمى عالماً إلا مجازاً.

الأصل الثالث

العهد أو البيعة والمصافحة والتلقين... إن من أصول المتصوفة على اختلافهم وتباين أوراذهم وأهدافهم أن يعاهد المرید شیخ الطريقة أو خليفته أو نائبه عنها على الالتزام بالورد والطاعة وملازمة الطريقة وعدم استبدالها بطريقة أخرى حتى الموت .

البيعة أو العهد

اللهم علمنا ما جهلنا وذكرا ما نسينا .

نعم نص القوم على العهد، وهم بذلك يحيون سنة النبي ﷺ والصحابة من بعده، وإن كان البعض قد تركها في وقتنا هذا أو جهلها فهذا لا يسقط مشروعيتها .

والبيعة أو العهد لغة: هو التزام شيء ليؤتي به، تقول: تعاهد بنو فلان على كذا وكذا .

وشرعا: التزام قرينة دينية، كالتزام الأنصار رضوان الله عليهم أنهم يحمىون النبي ﷺ مما يحمىون منه نساءهم وأولادهم، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُؤُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٥) .

وقد كان النبي ﷺ يبایع أصحابه فرادی وجماعات ذكورا وإناثا كبارا وصغارا، فمما جاء عن بيعة الجماعة ما رواه عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبایعون رسول الله؟ وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله؟ ثم قال: ألا تبایعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس وتطيعوا، وأسر كلمة

خفية، ولا تسألوا الناس شيئا، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا ليناوله له»⁽¹⁾.

دل الحديث على أن من بايع كان مسلماً أصلاً، وأن هذه البيعة ليست هي الأولى وعلى أهمية البيعة في الشرع الكريم، ودل أيضاً على التزام الصحابة رضوان الله عليهم بالعهد حتى إنهم لا يسألون مناولة السوط على تفاهته.

وأما بيعة الأفراد فهي تخرج عن الحصر، فقد كان من يقطن من الصحابة بعيداً عن المدينة المنورة يأتونه ﷺ ويسلمون على يديه، ويقضون معه أياماً يتعلمون فيها ما يسر الله من أمور دينهم، ثم يبايعون ويرجعون إلى أهليهم، وكان أحد الصحابة واسمه بشير بن الحصاصية جبانا وخاف إن حضر القتال أن يخشع بنفسه فيفر فيبوء بغضب من الله، فامتنع عن مبايعة النبي ﷺ رجاء أن يعفيه من الجهاد والصدقة، فقال له ﷺ: «يا بشير لا صدقة ولا جهاد فبم إذا تدخل الجنة؟ فقال بشير رضي الله عنه قلت: يا رسول الله! ابسط يدك أبايحك فبسط يده فبايعته عليهن»⁽²⁾.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا رسول الله ﷺ: فيما استطعتم»⁽³⁾.

واستمر الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهج في مبايعة المسلمين، فعن أنس رضي الله عنه قال: (قدمت المدينة وقد مات أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر رضي الله عنه فقلت لعمر: ارفع يدك أبايحك على ما بايعت عليه صاحبك قبلك، على السمع والطاعة فيما استطعت)⁽⁴⁾.

تري ألم يكن ابن عمر أو أنس أو غيرهم ممن بايع رسول الله ﷺ والخلفاء من

(1) رواه مسلم.

(2) رواه الإمام أحمد، وقال الهيثمي: «رجاله موثقون» انظر مجمع الزوائد ج 1 ص (42).

(3) رواه البخاري، ومسلم.

(4) حياة الصحابة ج 1 ص (237).

بعده من المسلمين الملتزمين بتعاليم دينهم والقيام بشريعته، أم أنهم كانوا يرون في البيعة سنة من سنن الإسلام وركناً هاماً من أركان الدين.

ومن بيعة النساء ما جاء عن عزة بنت خابل رضي الله عنها: «إذ أتت النبي ﷺ فبايعها أن لا تزني ولا تسرقين ولا تشدين فتبدين أو تخفين فقالت: أما الوأد المبدي فقد عرفته وأما الوأد الخفي فلم أسأل رسول الله ﷺ ولم يخبرني، وقد وقع في نفسي أنه إفساد الولد، فوالله لا أفسد لي ولدا أبداً⁽¹⁾»، والأدلة في هذا الباب كثيرة.

وتسن البيعة حتى للأطفال «فعن عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أنهما بايعا رسول الله ﷺ وهما ابنا سبع سنين، فلما رآهما رسول الله ﷺ تبسم وبسط يده فبايعهما⁽²⁾».

والأدلة في الموضوع بكثرة في مظانها، ونكتفي بأن نقول: إن العهد أو البيعة هي من السنن الإسلامية التي سار عليها السلف الصالح والصوفية من بعدهم ولا زالوا، ومنكر هذه السنة هو منكر لأصل هام من أصول الدين، بل ومنكر على فعل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: 63).

وأما ما جاء عن المصنف أن العهد يكون على الالتزام بالورد... إلخ، فهذا أيضاً راجع إلى القطع الذي يتسنى له بدون تثبت، وإلا فلا عهد عند السادة الصوفية إلا على العمل بالكتاب والسنة، ولعلم المصنف وكل من لا يعلم يكون بلفظ: «السنة تجمعنا والبدعة تفرقنا»، ويعني هذا أن العهد مستمر بين الشيخ والمريد ما دام على السنة وينقطع إذا تركها للبدعة، وعادة يلحق بلفظ «ما استطعت»، ونحن بالطبع نتحدث عما نعرف عن البيعة، وما هو موجود كواقع

(1) رواه الطبراني.

(2) مجمع الزوائد - الهيثمي ج 9 ص (285).

معاش عند السادة الصوفية في منهجهم العملي أو كتبهم المتحدثة عن فنهم واختصاصهم، وهي موجودة وباستطاعة من أراد التوسع الرجوع إليها.

أما تعريفات المصنف التي دأب على الأفراد بها، فإنها ناتجة عن غزير اطلاعه وشديد تثبته، وكان الأجدر به أن يأخذ بالأسلوب العلمي الصحيح، وهو ذكر التعريف الصحيح ثم مناقشة ما فيه من خطأ وصواب، أما أن يضع تعريفاً من بنات أفكاره ويصدر الحكم من خلاله، فهذا ما لم يشم رائحة العلم أو المعرفة.

قال الشيخ عبد القادر عيسى متحدثاً عن العهد: « ينبغي لمريد الكمال أن يلتحق بمُرشد يتعهده بالتوجيه ويرشده إلى الطريق الحق ويضيء له ما أظلم من جوانب نفسه، حتى يعبد الله على بصيرة وهدى ويقين، يبايع المرشد ويعاهده على السير معه في طريق التخلي عن العيوب والتحلي بالصفات الحسنة، والتحقق بركن الإحسان، والترقي في مقاماته، وأخذ العهد ثابت في القرآن والسنة وسيرة الصحابة⁽¹⁾ ».

وذلك بأن يضع يده في يد الشيخ ويشبك أصابعه في أصابع الشيخ ويغمض عينيه ويقول له الشيخ: عاهدني على التزام الورد بشروطه ويلقنه الورد، ومن هذه العملية التقليدية وضعوا كلمات العهد والبيعة والتشبيك والتلقين، ويستدلون على هذه العملية المصطنعة بما يتناقلونه حكاية عن علي رضي الله عنه إذ قالوا: إن علياً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم: يا علي عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوة، فقال رضي الله عنه: أهكذا أفضلية الذكر وكل الناس يذكرون؟ فقال النبي ﷺ: يا علي! لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله، فقال علي: كيف أذكر يا رسول الله؟

(1) حقائق عن التصوف - الشيخ عبد القادر عيسى ص (43).

فقال رسول الله ﷺ : غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع، فقال النبي ﷺ ، لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلي يسمع، ثم قال علي رضي الله عنه : لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته والنبي ﷺ يسمع .

ذكر هذه الحكاية وهي لا شك كذب بحت على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعلى سائر المؤمنين، ذكرها صاحب الرماح بلفظ روى الشيخ يوسف الكوراني المشهور بالعجمي في رسالة أن عليا رضي الله عنه... إلخ.

وعلى أساس هذه الفرية وضع القوم هذا الأصل من أصول الطريقة وهو العهد والبيعة والمصافحة والتشبيك والتلقين فانظر أخي القارئ وقاني الله وإياك شر الكذب والابتداع كيف وضع الطريقيون أصولاً بنوا عليها طرائقهم وهي أوهى من بيت العنكبوت، ومثل هذه الحكاية السخيفة ينزه العاقل لسانه عن ذكرها فضلاً عن نسبتها إلى رسول الله ﷺ وإلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن القوم لا يتورعون عن ذكر أقطع الكذب وأفحشه.

جريمة التحدث في الدين بدون علم

لا ريب أن إحاطة المصنف بحديث رسول الله ﷺ على ما رأينا وما سنرى تضعه في مصاف يفوق كبار الأئمة كالبخاري ومسلم، والحاكم، والترمذي، والنووي، والسيوطي، وعبد الله بن الصديق الغماري، فهؤلاء كانوا يثبتون الحديث - لنقص مستوى علمهم عن المصنف - عن طريق دراسة رجاله وتتبع رواته ومعرفة ما إذا كان ناسخاً أو منسوخاً وما إلى ذلك من طرق التثبت، ثم يصدر عن حكمهم بصحة أو حسن الحديث أو بانطباق أحد أوجه الطعن عليه.

ولكن المصنف اخترع طريقة جديدة ومفيدة وهي إصدار الأحكام جزافاً، فلا

يرى الصواب ولو كان بحرًا زاحراً أو طوداً شامخاً، فحكم أن حديث مبايعة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليس له من مصدر إلا رسالة الشيخ العجمي، ثم خلاص إلى أن هذا الحديث هو حكاية سخيقة، والعامل مثله ينزه لسانه عن ذكرها، بدون أي احترام لحديث رسول الله ﷺ، وختم حديثه بأن القوم يذكرون أقطع الكذب وأفحشه، ولو تريت قليلاً أو على الأقل قال إنه لا يعرف لهذا الحديث تخريجا لو فر على نفسه عناد التوغل في هوة عميقة أو بئر سحيقة، حتى كان التشريع تحت يده، فما علمه كان وما لم يعلمه لم يكن، مما ينافي العقل والنقل والإنصاف والمروءة.

والخلاصة: أن الحديث المذكور لم يروه العجمي إلا على سبيل الاستدلال فقط في رسالته، وإلا فهو موجود في كتب الحديث المعروفة عند أهل العلم، وروايته الصحيحة هي: «أن علياً كرم الله وجهه سأل النبي ﷺ بقوله: يا رسول الله! دلني على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده وأفضلها عنده تعالى، فقال النبي ﷺ: عليك بمداومة ذكر الله سرا وجهراً، فقال علي: كل الناس ذاكرون فخصني بشيء، قال رسول الله ﷺ: أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله، ولو أن السموات والأرضين في كفة ولا إله إلا الله في كفة لرجحت بهم، ولا تقوم القيامة وعلى وجه الأرض من يقول لا إله إلا الله، ثم قال علي: فكيف أذكر؟ قال النبي ﷺ: غمض عينيك واسمع مني لا إله إلا الله ثلاث مرات ثم قلها وأنا أسمع، ثم فعل ذلك برفع الصوت».

وروى هذا الحديث الطبراني، ورواه أيضاً البزار في مسنده وأخرجه الحافظ جلال الدين السيوطي بعدة أسانيد، وأما الإسناد فهو حسن.

وباستطاعة المصنف أن يرجع إلى هذه المصادر على يحسن التحدث بأدب واحترام عن حديث رسول الله ﷺ، ويتوب إلى الله تعالى من وصفه بالسخافة، وليحمد ربه أننا لا نرى رأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القول على الله بدون علم فإنه عده من مسائل الجاهلية، فقال رحمه الله: «المسألة الحادية عشر بعد المائة

- من مسائل الجاهلية - قاعدة الضلال وهي القول على الله بغير علم^(١)، فانظر إلى تسمية قاعدة الضلال ما أصدقها من تسمية.

وقد يستدلون على أصل البيعة وأخذ البيعة، ببيعة الرسول ﷺ لأصحابه، وأخذ العهد على بعضهم في الجهاد والنصح لكل مسلم، ولكن شتان ما بين ذا وذاك.

نعم يستدل السادة الصوفية على أصل البيعة بأخذ النبي ﷺ العهد على بعض أصحابه كما قال المصنف، وهذا هو المنهج الإسلامي وكل من خالفه نسال الله لنا وله الهداية، وإلا فما معنى اتباع السنة؟

والسلفيون لا ينكرون أن يطلب المربي من يريه أن يعاهده على فعل الطاعات وترك المنكرات والالتزام بآداب الطلب والطالب، رجاء أن يواصل الطالب العمل بطاعة الله ورسوله فعلا وتركاً حتى يكمل ويسعد، ولكن ننكر أن يكون العهد أصلاً وطريقة متبعة في دين الله تعالى.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

منذ قليل كان العهد كذبا بحثا وابتداعا، وأصوله أوهى من بيت العنكبوت، بل ومن أفضع الكذب وأفحشه، وها هو فجأة ينقلب إلى فعل لا ينكره السلفيون رجاء أن يوصل الطالب إلى العمل بطاعة الله ورسوله حتى يكمل ويسعد.

(١) تسع رسائل - الشيخ محمد بن عبد الوهاب - الرسالة الأولى، مسائل الجاهلية ص (٩).

إن بيعة الرسول ﷺ هي بيعة المسلمين لمن يلون أمرهم من الخلفاء والأمراء والأئمة المسلمين، هذه هي البيعة الشرعية، لا المبايعات والمعاهدات على طاعة الله ورسوله، إن هذه في عنق كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبمجرد أن يشهد العبد بالوحدانية وللرسول ﷺ بالرسالة فقد بايع والتزم .

عودة إلى التحدث في الدين بدون علم

لقد ذكرنا سابقاً أن البيعة كانت لمسلمين أصلاً، لا كما يقول المصنف: إن كل من نطق بالشهادتين فقد بايع والتزم، وقد ذكرنا سابقاً بعض الأحاديث في مبايعة الرسول ﷺ لصحابته كحديث الإمام علي، وعوف بن مالك، وبشير بن الخصاصة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، وأنس، والسيدة عزة بنت خايل رضوان الله عليهم جميعاً، وكل هؤلاء مسلمون بل فيهم من لم يولد إلا مسلماً كعبد الله بن الزبير⁽¹⁾، وعبد الله بن جعفر، إذ الأول أول مولود من أبوين مسلمين مهاجرين، والثاني ولد في الحبشة من أبوين مسلمين، وابن عمر أسلم مع أبيه قبل أن يبلغ الحلم، فالبيعة التي ذكرها رضي الله عنه كانت وهو مسلم قطعاً، وفيهم من لم يعرف الشرك كعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه لنشأته في بيت رسول الله ﷺ ولإسلامه صبياً .

فدل كل ما سبق على أن البيعة كانت لمسلمين أقروا بالشهادتين لا كما قال المصنف، بل إن هذا واضح من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ

(1) قيل للمسلمين في المدينة إنكم قد سحرتم فلا يولد لكم، فكان أول مولود هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، ففرح المسلمون جميعاً بمولده .

يَا بَيْعَتِكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بَهْتَانٍ يَفْتَرِيَنَّهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَيَابِيعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَنَّ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ (المتحنة: ١٢).

فإن الله يشهد للمبايعات لا بأنهن مسلمات فقط بل بأنهن مؤمنات، ولو أننا أخذنا برأي المصنف - الذي لا تسلم عن فساد - أن كل من نطق بالشهادتين فقد بايع والتزم، للزم أن نخالف هذه الآية القرآنية الكريمة من كتاب الله تعالى، والحكم الشرعي في المسألة معروف.

والنتيجة أن البيعة المقصودة بالحديث، والتي دأب عليها الصوفية هي بيعة الرسول ﷺ لصحابته وهم مسلمون، بل وفي الدرجة العليا من التحقق بالإسلام، وتمسك الصوفية بها هو تمسك بسنة ثابتة عن النبي ﷺ ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣)، ومن رأى غير هذا فهو على غير الصواب.

غير أن للمتصوفة الطريقيين غرضاً هاماً في وضع هذا الأصل من أصول الطريقة، وهي الاستيلاء على أرواح المؤمنين والتأثير على نفوسهم ليبقوا سخرة لهم، يتحكمون فيهم كما شاءوا ولا حول لهم ولا قوة معهم بل لا إرادة ولا اختيار.

حقيقة العهد أو المبايعة

وبناء على هذا المنطق معوج الرأس والجذر والساق فإن الرسول ﷺ قد بايع الصحابة ليسخرهم ويتحكم فيهم كيف شاء، وليكونوا معه رضوان الله عليهم بلا حول ولا قوة، يابى الله هذا ورسوله والمؤمنون.

إن العهد أو البيعة هي لله تعالى، وقد حذر من نقضها أشد التحذير فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: 91)، فلا أرب لاي مخلوق فيها، إذ هي معاهدة بين الرسول ﷺ وصحابته، وبين الشيخ والمريد على الانقياد التام لأمر الله فعلا وتركاً.

وعن عبادة بن الصامت أن الرسول ﷺ قال: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك»^(١).

فهذا الحديث الشريف وغيره مما قدمنا في أول البحث يدل بوضوح على أن العهد كان على الالتزام بأوامر الله ونواهيه، وهذا بعينه هو العهد الذي يأخذه الشيخ على المريد.

وقد رأيت من يخرج من نصف ماله لشيخ الطريقة، ورأيت من يحلف بالله كذبا ولا يحلف بالشيخ إلا صادقا، ورأيت من يخاف الشيخ ويرهبه أكثر مما يخاف الله تعالى ويرهبه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فضل الإنفاق في سبيل الله تعالى

نعم يحدث أن يخرج المريد عن نصف ماله، وأحيانا ماله كله لشيخ الطريقة، فالإيمان ليس حديثا منمقا وانفعالات وهمية، بل الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، وقلنا فيما سبق: إن التطبيق الكلي لقواعد الإسلام هو المائز الذي

(١) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي.

امتاز به الصوفية عن غيرهم، ومن المعلوم أن للمال مكانة خاصة في النفس تجعله صعب الفراق والإنفاق، ولكن هؤلاء وقد استوى عندهم التبر والتراب تراهم لا يقيمون له وزناً ولا يأخذون منه أكثر من الحاجة، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة بالمدينة فاستقبلنا أحدٌ، فقال: يا أبا ذر! قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً تمضي علي ثلاثة أيام وعندي دينار، إلا شيء أرصده لدين الله، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا عن يمينه وشماله ومن خلفه»⁽¹⁾.

وقد خرج سيدنا أبو بكر الصديق عن ماله كله وترك لأهله الله ورسوله⁽²⁾، وخرج سيدنا عمر بن الخطاب عن نصف ماله⁽³⁾.

نعم يحدث أن يخرج المريد عن جزء من ماله وأحياناً كله للشيخ لينفقه في أوجه الخير وسبيل الفلاح، من نفقة على أيتام أو قيام على معوزين، أو إيواء منقطعين ومواساة مكروبين، وقد يستغرب من يعتقد أن المال هو مصدر الرزق لا الله سبحانه ذو القوة المتين.

قال ﷺ: «ثلاثة أقسم عليهم وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر - أو كلمة نحوها»⁽⁴⁾.

وما درى المصنف أنه بانتقاده هذا قد شهد للصوفية بفضلهم الذي لا يجحده إلا مكابر، ثم إن مثل هذه الأمور الروحانية السامية لا يقدرها إلا من كان في مستواها، وأما من جعل المال مبلغ همه وعلمه، فإنه لا يتصور أن يعطي منفق جل ماله أو كله في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ

(1) رواه البخاري.

(2) رواه الترمذي وصححه «يلاحظ أنه حديث واحد».

(3) رواه الترمذي وقال: «حديث حسن صحيح».

فَلَا تُفْسِدُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿البقرة: 272﴾.

وأما ما قاله المصنف عمن يحلف بالله كاذبا ويرهب المخلوق أكثر مما يرهب الخالق، فإن هذه الصفات تصدق على العوام عادة ولا تؤخذ قياس على كل المسلمين، وما منا إلا ورأى من يسرق أو يحتال ويغش ولا يخاف الله تعالى ويخاف رجل الشرطة، ومن يكذب ويحلف الإيمان المغلظة لبيع سلعة فاسدة ولا يخشى الله ويخشى القضاء، وما إلى هذا من المنكرات الناتجة عن الجهل وعمى البصيرة التي ليست بمقياس إلا عند من لا يعرف القياس، فهؤلاء لا يمثلون الإسلام ولا المسلمين الصادقين، وما أعظمها من كارثة لو أننا أخذنا من كل مجتمع أو جماعة أسوأ النماذج لنعمم الأحكام بعدها على الجميع، مما يخالف كل ما خلق الله تعالى من بديهيّات.

وخلاصة القول: إن أخذ العهد وإن كان له أصل في الشرع وهوبيعة الرسول ﷺ وبيعة المسلمين للإمام، فإنه بدعة محدثة وأحدثت لاستغلال العوام والبسطاء من المسلمين، للتأثير على نفوسهم بغرض تسخيرهم والتحكم فيهم لصالح شيخ الطريقة وأتباعه المقربين منه، هذه حقيقة البيعة عند الطريقين والمتصوفة.

لا كلام لنا مع المصنف، ولكن ربما يقع هذا الكتاب بين يدي من مارس العلوم الإسلامية، فإن استطاع هذا أن يعرف كيف يكون الفعل له أصل في الشرع وبدعة محدثة في حكم واحد، فليعلمنا.. والسلام.

وأما التلقين وتغميض العينين والتشبيك فهي بدعة أيضاً الغرض منها إيجاد ناموس وطقوس خاصة يتم بها التأثير على نفسية العوام لإيقاعهم في شبكة الصيد، وهذه الطريقة لتسخيرهم والتسلط عليهم باسم الشيخ والعهد والطريقة.

بالسبل البدع الذي عم الأخضر واليابس .

التلقين

إن التلقين هو تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر نطقاً وبدءاً، والأصل فيه تلقين الرسول ﷺ لصحابته، كحديث يعلي بن شداد بن أوس قال: حدثني أبي شداد بن أوس، وعبادة بن الصامت حاضراً يصدقونه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فقال: هل فيكم غريب؟ فقلنا: لا يا رسول الله، فأمر بفتح الباب فقال: ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا وقلنا لا إله إلا الله، ثم قال ﷺ: الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم قال ﷺ: أبشروا فإن الله قد غفر لكم»^(١).

والآن أيها المصنف، ترى ألم يكن أولئك الصحابة الكرام يعرفون معنى كلمة لا إله إلا الله، أم أنهم قدموا من الأرجنتين فلا يستطيعون النطق بها فاحتاجوا لمن يعلمهم، أم أنك ستعتمد إلى طريقتك السابقة في تصحيح الأحاديث وتخريجها.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «لقنني رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات وأمرني أن نزل بي كرب أو شدة أن أقولها، لا إله إلا الله الكريم

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند، وقال الهيثمي: «رجالهم موثقون» كما في مجمع الزوائد ج ١ ص (١٩)، ورواه أيضاً الطبراني، والبزار، والفريابي قصد به من أهل الكتاب.

العظيم سبحانه، تبارك الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين^(١)، وكان عبد الله يلقتها وينفث بها على الموعوك، ويعلمها المغتربة من بناته، والأحاديث في الباب كثيرة ولكن فيما قلنا الكفاية.

كما أن الورد الذي اشترطت له هذه الشروط من الشيخ المأذون له العارف بالله، والعهد والتلقين وتغميض العين والتشبيك، ما هو إلا بدعة في شكله لم يرد عن الشارع كأكثر أوراد المتصوفة، وما ورد لم يشترط له أي شرط وإنما يأتي به المؤمن عملاً بهدي الرسول ﷺ واتباعاً له في أي وقت أمكنه ذلك.

ترك المصنف موضوع البحث وهو العهد ودخل في الورد، وحيث إنه قد أفرد له فصلاً خاصاً فإننا سنؤجل الكلام عنه إلى حينه إن شاء الله تعالى.

ومما يدل على أن الأوراد ما هي إلا حبات صيد، صيد بها العوام، نسبة السور إلى الشيخ فيقال: ورد فلان وورد فلان، فتنسب الأوراد إلى المشايخ بقصد الحصول على الرئاسة والرفعة على العوام وبينهم، إذ لو أرادوا وجه الله تعالى لعلموا المسلمين الأذكار والأدعية الواردة عن النبي ﷺ.

سبحان الله، أدى الأمر بالمصنف إلى المنازعة في الشيء الوفاقي.

(١) رواه النسائي، وابن السنن، والنووي في الأذكار ص (١١١)، والمغتربة من النساء هي التي تزوج في غير أقاليمها.

أولاً: إن هذه المسميات كقولهم ورد عبد السلام الأسمر مثلاً لم يقلها المشائخ، إذ لا يصح أن يتحدث إنسان عن نفسه بضمير الغائب.

ثانياً: كما هو معروف أنه من عرفت وعلت مرتبته أصبح اسمه لا يحتاج إلى شرح مقامه، فقول القائل: ورد عبد السلام الأسمر يقصد به أن هذا هو مجموع الأذكار والمأثورات التي كان الشيخ عبد السلام الأسمر يرتبها لاتباعه، ومن هنا صح أن يقال: روى أبو بكر، أو قال عمر، فاختصرت الجملة لمعرفة كل أحد بمن هو عمر وأبو بكر، فالمعنى أنه قال الصحابي فلان ابن فلان كذا وكذا.

ومنه ما درج عليه العلماء من قولهم: كان ابن أدهم، وأخير الشبلي، وقال معروف، وذهب الجنيد، وحكي عن السقطي، وقولهم: إن الحديث الفلاني موجود في البخاري مثلاً، إذ المقصود أن الحديث قد رواه الحافظ أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم الذي ولد ببخارى، فغلب عليه لقب البخاري في صحيحه عن الثقات إلى رسول الله ﷺ، ومنه أيضاً قولنا: إن فلانا مالكي المذهب أو شافعي أو زيدي وما إليها.

وعليه فعلى رأي المصنف أن كل هؤلاء الأعلام ممن أغنت أسماؤهم عن التعريف بمراتبهم، ونسبت المذاهب إليهم يقصدون الحصول على الرئاسة والرفعة على العوام، فما أغربه من استدلال.

والخلاصة، أن قول القائل: ورد فلان هو اصطلاح معروف في اللغة والعرف والدين، قال الحافظ العراقي في ألفية المصطلح:

وصححو استغناء ذي الشهرة عن تزكية كمالك نجم السنن

ومحاولة التهويل والتشنيع لا تكون بمخالفة الحقائق، بل بالأدلة الصحيحة الثابتة، والإفهي صيحة في واد ورمية في طيف خيال.

ولم يأخذوا عليهم عهداً فيها ولا ميثاقاً، إذ هي من نوافل العبادات
فلا يصح أن ترفع إلى مستوى الفرائض والواجبات.

الالتزام بالعهد

العهد يكون على الامتثال لأمر الله تعالى فعلا وتركاً، فإذا عاهد المرید الشيخ على الالتزام بنوع خاص من الطاعة يصبح ملزماً بالوفاء والالتزام به، وقد مر بنا حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، ورأينا كيف كان بعض الصحابة الذين عاهدوا رسول الله ﷺ لا يسألون الناس شيئاً حتى إنه يسقط من أحدهم السوط فلا يسأل أحداً أن يناوله له، ولا حرمة في مناولة السوط ولا كراهة، علماً بأن ظاهر الحديث يفهم منه أن رسول الله ﷺ منعهم عن طلب المال وما شابهه، مما يطلب عادة من الغير لا مثل هذه الأمور البسيطة التي قد يطلبها المرء من ابنه أو صاحبه، ولكن القوم لا يتأولون ولا يخصصون معرفة منهم بما يعنيه العهد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: 34).

وعليه فإن عاهد المرید الشيخ على عدم الكذب أو قراءة جزء من القرآن كل يوم مثلاً، يصبح هذا التعهد ملزماً للمعاهد بالوفاء من حيث إنه عهد، لا من حيث حكمه الشرعي بالوجوب أو الحرمة، فهذا يرجع إلى الفعل في حد ذاته، فالكذب رذيلة وهو محرم على كل مسلم، ومن كذب يستغفر الله تعالى ويتوب إليه في الحال ويصلح ما أحدث كذبه من ضرر، ولكن شتان بين من يعاهد الله على ألا يكذب وبين من يعرف أن الكذب حرام ويوجب التوبة.

ولا أظن أن أحداً من المسلمين يجهل حرمة الخمر والميسر والسرقة والزنا وأكل الحرام وما إلى هذا مما هو معلوم بالضرورة، ومع هذا فما أكثر ما يأتونها من المسلمين عامتهم وحتى خاصتهم، نسأل الله لنا ولهم الهداية والمغفرة.

بل وبنا للأسف فإن بعض المسلمين بحجة التمدن والتطور ولغياب التربية الإسلامية القويمة والتنشئة الدينية المستقيمة يترك الصلاة والصوم، ويرتكب أفحش الفواحش كتعاطي الخمر والمخدرات والزنا ومثيله، غابت النخوة الإيمانية عندهم والرجولة أو ماتت بمعنى أصبح، فتركوا بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم للتهتك ولارتباد المسابح المغلقة والمفتوحة صحة الرجال الأجانب عاريات من الأخلاق قبل

اللباس أو شبه عاريات، وتطور الأمر عندهم إلى انتقاد الأحكام الشرعية والاستهزاء والتندر بالله ورسوله وصحابته، والكثير الكثير مما ابتلينا بمعاصرته، نسال الله العفو والهداية إنه على ما يشاء قدير.

ويا ليت القوم اكتشفوا بتلقين وتعليم ما ورد عن الشارع، بل إنهم يحدثون أورادا من الأذكار والأدعية لا تخلو من ألفاظ الشرك ومقاصده، وحسبك بورد «الياقوتة» عند الطائفة التجانية، إذ هذا الورد عندهم من أفضل الأوراد وأقدسها، حتى إنهم يمنعون قراءته على غير المتطهر، ويشترطون أن تكون الطهارة مائية، بمعنى أن يكون التالي للورد متوضئا لا متيمما، فانظر كيف أجاز الشارع قراءة كتاب الله بغير وضوء، وهم لا يجيزون قراءة ورد الياقوتة بدون وضوء؟ أليس هذا تفضيلا لكلام الخلق عن كلام الخالق؟ ألم يكن تفضيل كلام الخلق على كلام الخالق كفرا، بلى إنه لكفر لو كانوا يعلمون.

سبحان الله، كم يحاول المصنف جاهدا التشبث بتكفير المسلمين ورميهم بالشرك، فالفاظ الأوراد لا تخلو من الشرك، وباليته ذكر لنا مثلا من مصدر موثق، والطائفة التجانية يفضلون الياقوتة - بزعمه - على القرآن الكريم، وهو كفر أي أنهم كفار لأنهم يفعلون ذلك، وعليه فلا موحدا مسلما إلا المصنف والباقي كفر مشركون.

قال ﷺ: «من دعا رجلا بالكفر أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»^(١).

(١) متفق عليه - «وحرار بمعنى رجوع».

التجانية وجوهرة الكمال

وقد قلنا سابقاً: إن المشكلة الكبيرة، ولا نقول قاعدة الضلال كما أسماها غيرنا تكمن في التعرض للمسائل العلمية بدون اطلاع كاف مما يوقع مهاو مهلكة. فأولاً: إن كل من فضل كلام أي مخلوق وإن كان نبيا على كلام الخالق سبحانه وتعالى هو كافر لا خلاف في كفره، إلا إن كان غير مكلف لصغر سن، أو به مرض عقلي، أو عارض يحجب العقل.

ثانياً: الياقوتة عند الطائفة التجانية هي مجموعة صلوات علي النبي ﷺ مرتبة على حروف الهجاء باستثناء حرف الألف، إذ تبتدئ من حرف الباء، ومؤلفها هو محمد بن العربي التازي الدرماوي، وبها الكثير من الأخطاء اللغوية والكلمات العامية والعبارات الركيكية، إذ إن مؤلفها على ما هو مشهور عنه لم يكن من أهل العلم، وإن كان قد وضعها مشكوراً بدافع المحبة للنبي ﷺ، وهي ليست بالمنزلة التي ذكرها المصنف، بل قلما تجد من يعرفها حتى من التجانية أنفسهم.

وعندهم صلاة الفاتح وهي مشهورة بهذا الاسم، وتسمى أيضاً بالبكرية، وأذكر أن بعضهم سماها بالياقوتة، ولكنه خلاف المشهور، والغالب أن المصنف يقصد الصلاة المسماة بجوهرة الكمال، وهي من أهم أورادهم، وسميت بهذا الاسم لأنها تبتدئ بـ اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة بمركز الفهوم والمعاني... إلخ.

شرط الطهارة في الذكر

ويجوز الذكر بالقلب واللسان للمحدث والجنب والحائض والنفساء، وكذلك الدعاء وغير ذلك باستثناء القرآن الكريم، إذ يجوز لهم إجراؤه على القلب من غير لفظ، ويجوز لهم أن يقولوا عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الدعاء: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أو بسم الله والحمد لله، إلا إذا قصد به القرآن فإنهم حينئذ يائمون، فلا تجوز قراءة القرآن

الكريم إلا للمتطهر من الحدثين الأكبر والأصغر طهارة مائية أو ترابية في حالة وجود مانع.

وصلاة جوهره الكمال من أنواع الذكر، ويصدق عليها ما يصدق على الذكر عموماً، فينبغي أن يكون الذاكر على كل الأوقات وأكمل الصفات، متطهراً من الحدثين بطهارة مائية ما لم يكن صاحب عذر، طاهر الثوب والمكان، نظيف الفم، طيب الرائحة، مستقبلاً للقبلة، متذللاً خاشعاً، مطرقاً برأسه، حاضر القلب متديراً فيما يذكر عاقلاً لمعناه، ولذا ذكر آداب قبله وأثناءه وبعده معروفة في كتب التصوف.

نعم يجوز أن يذكر الذاكر على غير هذه الصفات، ولكن الأفضل أن يكون على ما ذكرنا، ولهذا يشدد السادة المشايخ رضوان الله عليهم على المريدين في الالتزام بالشروط السابقة وترك الرخص والتأويلات، أما من فقد القدرة على الإتيان بالكيفية المطلوبة لوجود مانع عن استقبال القبلة أو استعمال الماء مثلاً، فله أن يتحول إلى الدرجة الأدنى وهي التيمم واستقبال أي جهة، بل إنه في استطاعة الحائض والنفساء والجنب الذكر حتى بدون تيمم كما قدمنا.

وعليه فالمقصود باشتراط الطهارة المائية قبل ذكر صلاة جوهره الكمال هو شرط كمال لا شرط صحة، مع ملاحظة أن الوضوء عبادة مستقلة عن غيرها عند الصوفية، أي أنه ليس شرطاً في الصلاة والطواف بالبيت الحرام ومس المصحف وكتابه وحمله فقط، بل هو بالإضافة إلى ذلك عبادة منفردة مثله في ذلك كمثل أنواع العبادات الأخرى.

والخلاصة كما قلنا: إن هناك طريقتين للذكر، والاثنان حكمهما الشرعي هو الجواز بدون كراهة على المشهور، ولكن واحدة أكمل من الأخرى، وطريق السادة الصوفية هو الأخذ بالأحوط والأكمل، ومن هنا اشترطت الطهارة المائية على الذاكر كشرط كمال، وهذا من ناحية فقهية بحتة، وإلا فقبول الأعمال ليس من شأن العباد بل من شأن رب العباد، وقد يقبل الله تعالى ذكر الجنب والمحدث وهو مقيم

في بيته، ولا يقبل ذكر الطاهر من الحديث في المسجد أو الزاوية،
وواجب العباد هو التسليم الكامل لله تعالى وتقديم العمل على أحسن
ما يستطيع، والدعاء بقبوله والثبات على الإيمان وحسن الظن بالرحمن، وما
فوق ذلك متروك لله إن شاء قبله وإن شاء رده، قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ
وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: 23).

وكورد الياقوتة ورد الجزولي، وهو ما يعرف بدلائل الخيرات، فهذا
الورد قدم له بأحاديث موضوعة ترغيباً للعامة في قراءته، حتى أصبح
يناهض القرآن الكريم، فتدخل المسجد في بعض البلاد فتجد قراء دلائل
الخيرات أكثر من قراء القرآن الكريم، وما أكثر الأوراد البدعية والشركية
عند القوم، إذ هي بضاعتهم وسلم وصولهم إلى أغراضهم المادية،
وسنعرض لها ببعض البيان في الأصل الرابع الآتي بعد.

دلائل الخيرات

أولاً: لو أن المقام يسمح بالتوسع لذكرنا ترجمة للإمام الجزولي رضي الله عنه
تُعرف بقدره وفضله⁽¹⁾.

ثانياً: لقد كررنا حتى ذاب القلم، وتكسرت سنه مرارا من الألم، أن التكلم
في الأحاديث النبوية الشريفة لا يكون بإصدار الأحكام جزافاً، بل بتعقب
الأحاديث في مظانها سندا ومتنا ومعرفة صحتها من موضوعها واحداً بعد واحد،
فلا يجوز أن يحكم المصنف ولا غيره على كتاب دلائل الخيرات بمثل هذه البساطة
والسذاجة، ولعلم المصنف هناك العديد من العلماء الذين حققوا أحاديث كتاب
دلائل الخيرات وكانوا من المختصين في علم الحديث ورجاله بما تعنيه هذه الكلمة

(1) انظر كتابنا دليل الخيرات محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات.

من توافر علم الدراية والرواية عندهم، ولعلم المصنف أن أكثر الأحاديث المذكورة في كتاب دلائل الخيرات مخرجة، معروفة الأسانيد، ما عدا الحديث السابع عشر وهو: «ما من عبد صلى علي إلا خرجت الصلاة مسرعة من فيه...»^(١).

وكل الأحاديث التي قدم بها لدلائل الخيرات هي ستة وعشرون حديثاً، معظمها موجود في كتب الصحاح، وباستطاعة المصنف عرضها على أهل الشأن والاختصاص إن أراد التأكد.

وقد خرّج العلامة محمد المهدي الفاسي في كتابه (مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات) منها عشرين حديثاً، وقال: «الأحاديث الباقية في هذا الفصل - وعددها ستة فقط - كلها لا أعرفها ولم أجدها».

وخرّج الشيخ حسن العدوي الحمزاوي المصري في كتابه (بلوغ المسرات على دلائل الخيرات) عشرين حديثاً منها، وكان آخر من خرج أحاديث كتاب دلائل الخيرات فيما نعلم هو الشيخ محمد بن أحمد الجليلي الملقب بأبي رأس من منطقة معسكر الجزائر، وولد في 1150هـ، وتوفي بمعسكر في 1239هـ، وهو مؤرخ، ومن كبار علماء الحديث ورجاله، وله ما يقارب من خمسين كتاباً في التاريخ والحديث، وله تفسير للقرآن الكريم لم يطبع بعد، وقد خرج الأحاديث في كتاب اسمه (تخريج أحاديث دلائل الخيرات).

نعم بعض الأحاديث ضعيف لا يرقى لمرتبة الصحيح، ولكن يعمل به في فضائل الأعمال، وهو المشهور عند أهل العلم، إذ الضعف لا يعني الوضع، ثم إن كل الأحاديث المذكورة لا تخرج عن تبيان فضل الصلاة على رسول الله ﷺ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة أصلاً، كما أنها ليست في العقائد والأحكام أو في

(١) هذا مبلغ علمنا، فإن علم غيري له سنداً هائلاً أتوب وأرجع إلى الله تعالى عما قلت.

أساسيات التشريع، وهي التي يتشدد في قبولها عادة، ولم تأت بغير ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ثم إن دراسة الأحاديث في المدارس والمساجد والزوايا في ذلك الوقت، بل وحتى وقت قريب كانت تقوم على العناية من المحدث إلى الرسول ﷺ، فمنها ما يكون في كتب الحديث المعروفة، ومنها ما يكون من حفظ الشيخ المحدث، ولا زلنا حتى اليوم نجد في كتب العلم أحاديثاً لا توجد في الصحاح، ناهيك عما يوجد في الفهارس والإجازات، ثم إن الإمام الجزولي قد طلب العلم لمدة طويلة في مدرسة الصفارين بمدينة فاس، ويعد من كبار العلماء في عصره، وله أقوال شتى في العلوم والعديد من المؤلفات وإن كان أشهرها كتاب دلائل الخيرات، وكان يحفظ فرعي ابن الحاجب، ولا يصح من هذه صفته أن يكتب ما لم يتحقق من صحته.

ثم إنه كان له أعداء من بينهم سلطان مدينة أسفى الذي أخرجه إلى أفوغال، بل إنهم تمكنوا من قتله بالسهم، فمات وهو يصلى صلاة الصبح ساجداً⁽¹⁾ في 16 ربيع الأول 870هـ، 1465م.

فهل كانوا لا ينكرون عليه لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وأيضاً فقد اجتمع بين يديه 12665 اثنا عشر ألفاً وستمائة وخمسة وستون من المريدين، ألم يكن في هؤلاء من يمارس علوم الحديث، خاصة وأنه كان فيهم عبد العزيز التباغ الذي خرق العادة في غزارة العلم والمعرفة، وأحمد بن عمر الحارثي ومحمد الصغير السهلي، وعبد الكريم المنذاري.

ويكفي للدلالة على فضل هذا الكتاب ومؤلفه أنه منذ القرن التاسع الهجري وحتى اليوم بشهادة المصنف لا زالت الأمة تتلقاه بالقبول والمحبة، فما بعد هذه الكرامة كرامة، بل وحسب ما نعلم لا يخلو قطر إسلامي ممن يواظب على قراءة هذا الكتاب المبارك، وقد ترجم إلى عدة لغات حرصاً من المسلمين على التقرب إلى الله تعالى بالصلاة على نبيه ﷺ.

(1) انظر: الكتايش - الشيخ أحمد زروق ص (26).

قال الشيخ أحمد الكمشخانوي رحمه الله :

وإذا رأيت النفس منك تحكمت وغدت تقودك في لظى الشهوات

فاصرف هواها بالصلاة مواظبا لا سيما بدلائل الخيرات

وقول المصنف : « إن قراءة كتاب دلائل الخيرات أصبحت تناهض قراءة القرآن الكريم » يضاف إلى استنتاجاته الغريبة، فإننا أمرنا بقراءة الكريم، ولكن لم يرد عن الشارع وجوب قراءته طوال الليل والنهار، بل أقل ما يقرأ فيه هو الثلاثة أيام، وعلى هذا درج السلف الصالح، فهناك متسع للمسلم ليكسب رزقه ويقضي حوائجه ويطلب العلم وما إليها من أمور الخير، ثم إنه من المعلوم أن كتب الحديث والتفسير واللغة والسير، وما إليها من العلوم يقرؤها المسلم بغرض القربى لله تعالى، وامتنالا لأمر الشرع يطلب العلم وتعليمه، وما سمعنا أن أحدا من المسلمين منع قراءتها لأنها تشغل عن القرآن الكريم، واعطف عليه قراءة كتاب دلائل الخيرات إذ جمع فيه الإمام الجزولي الصلوات التي وردت عن النبي ﷺ والسلف من صحابة وتابعين وتابع تابعين، فلا يوجد به من أوله إلى آخره إلا الصلاة على النبي ﷺ والدعاء وقراءته امتثالا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الاحزاب : 56).

ويقرؤه المسلم بنية القربى لله تعالى كمثل ما يقرأ كل الكتب الإسلامية، والصلاة على النبي ﷺ من أعظم القربات، قال ﷺ : « من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا »⁽¹⁾، وهي من أعظم ما يتقرب به إلى حضرة المصطفى ﷺ حيث قال : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة »⁽²⁾، وقال صلوات الله

(1) رواه مسلم. وجاء في دلائل الخيرات بلفظ « من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشر مرات ».

(2) رواه الترمذي وقال : « حديث حسن »، وجاء في دلائل الخيرات بنفس اللفظ فقط بدون « يوم القيامة ».

عليه: «ما من عبد يصلي علي إلا صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فليقل من ذلك أو ليكثر»⁽¹⁾.

وباليت أن المصنف بدلا من الاعتراض على قراءة دلائل الخيرات اعترض على الكتب المفسدة للعقول والقيم والدين والأخلاق وهو لا يجهلها طبعاً ولكن..

الأصل الرابع

الأوراد الصوفية وما فيها من حق وباطل... الأوراد جمع ورد وهو في اللغة: مكان الورد أو زمانه أو الماء المورود نفسه، وفي عرف الشرع: ما يأتيه المسلم من نوافل العبادات أو يتعاهده طوال حياته.

نعم هذا صحيح مع إضافة لغوية بسيطة، فقد جاء في الرائد: أن الورد هو الجزء من القرآن يقرأه الإنسان كل ليلة، وجاء في المصباح: أن الورد هو الوظيفة من قراءة ونحو ذلك، وكذلك فإنه من ناحية شرعية تسمى بعض الفرائض وردا لتوفر شرط التكرار فيها كالصلوات الخمس مثلا، إذ الورد هو إقامة الطاعات في الأوقات.

(1) رواه أحمد، وابن ماجه، وابن أبي شيبه، وهو حسن في المتابعات. وجاء في دلائل الخيرات بلفظ «من صلى علي صلت عليه الملائكة ما دام يصلي علي، فليقل عند ذلك أو ليكثر» وللحديث شواهد. وهذا بعض من الأحاديث التي وردت في كتاب دلائل الخيرات ويسميتها المصنف سامحه الله بالموضوعات.

بعض الطبعات القديمة لكتاب دلائل الخيرات:

القاهرة: 1256-1277-1781-1287-1291-1294-1296-1304-1308 هـ.

استابول: عدد 6 طبعات من 1264 إلى 1314 هـ.

فاس: طبعة واحدة قديمة بدون تاريخ.

الجزائر: طبعة واحدة سنة 1322.

دهلي الهند: 1281-1302-1311 هـ.

القاهرة أيضا مع شرح الفاسي: 1289-1301-1309-1323 هـ.

ومع دخول المطابع وانتشارها في العالم الإسلامي طبع الكتاب طبعات تخرج عن الحصر.

وفي اصطلاح الصوفية وأصحاب الطرق هو أحد أصول الطريقة المهمة ذات الخطر والشأن في حياة المريد، وهي عبارة عن أذكار وأدعية يعطيها الشيخ العارف المأذون له أو نائبه عند تعذر لقيائه والاتصال به لموته أو بعد داره، يعطيها للمريد ليصفوا عليها باطنه ويصل بها إلى مقام المكاشفة والمشاهدة والفناء في ذات الله تعالى، حتى لا يبقى واصل ولا موصول كما قال قائلهم:

فلم يبق إلا الله لا شيء غيره فما ثم موصول ولا ثم واصل

أولاً: لا نريد أن نأتي بكل الأدلة الدالة على مشروعية الأوراد في الشرع الكريم، ونكتفي بما قاله المصنف في كتابه الذي بين أيدينا ص 49:

إن الأوراد التعبدية مشروعة بالكتاب والسنة، وأما الكتاب فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وأما السنة فقد قال ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت».

وقال ﷺ: «سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

ثانياً: قلنا سابقاً: إن الأسلوب العلمي هو أن يذكر التعريف الصحيح، ثم يبحث ما فيه من خطأ أو صواب، لا أن يُخترع تعريف من الخيال ثم تؤخذ منه النتائج، إذ يأبى هذا كل ذي عقل سليم.

ثالثاً: إن السادة الصوفية عرفوا الورد عموماً بأنه عبارة عما يقع بكسب العبد من عبادة ظاهرة أو باطنة، وعرفوه خصوصاً بأنه ما يأمر الشيخ تلميذه بذكره، وإن شئت قلت: هو الأعمال الصالحة التي تعمربها الأوقات وتنكف بها الجوارح عن الوقوع في المكروهات.

واستخراج الصفات الذميمة من النفس يكون بإدخال ضدها عليها، فإن

تعددت الصفات تعددت الأضداد، ولهذا يؤمر المريد بالإكثار من الأوراد حتى تطرد من نفسه أضدادها، ويحدد الشيخ أحمد زروق الأمر بتفصيل أكثر فيقول: «طلب الشيء بوجه واحد مع الإلحاح أقرب لنواله وأدعى لدوام سببه المطلوب في نفسه لإفراد الحقيقة له، فلزم التزام ورد لا تنتقل عنه حتى تحصل نتائج، وإلا فالمنتقل قبل الفتح كحافر بئر لا يدوم على محل واحد، وكالمقطر قطرة على كل محل يريد تأثير المحل بالقطر أترى يظهر لعمله مع ذلك أثراً»⁽¹⁾.

ويأخذ المريد الورد من شيخ عارف بالله قد تحقق اتباعه للكتاب والسنة وتمكن من المعرفة، فيضبط نفس المريد بأصل يرجع إليه في العلم والعمل ويمنعها من التشعب والتشعث.

قال الشيخ عبد القادر عيسى: «وبما أن صيغ الأذكار كثيرة متنوعة، ولكل صيغة تأثير قبلي خاص ومفعول نفسي معين، فإن مرشدي السادة الصوفية - أطباء القلوب ووراث الرسول الأعظم ﷺ في الدعوة والتوحيد والتربية - يأذنون لمريديهم بأذكار تتناسب مع أحوالهم وحاجاتهم، وترقيهم في السير إلى رضوان الله تعالى، وذلك كما يعطي الطبيب الجسماني لمرضى أنواعاً من الأدوية والعلاجات تتلائم مع علله وأسقامه، ثم يبدل الدواء حسب تقدمه نحو الشفاء.

ولهذا لا بد للمريد السالك أن يكون على صلة بالمرشد يستشير به ويذاكره ويعرض عليه ما يجده في الذكر من فوائد روحية وأحوال قلبية وحفظ نفسية، وبذلك يترقى في السير ويتدرج في السمو الخلقي والمعارف الإلهية⁽²⁾.

نعم للورد دوره الفعال في صقل قلب المريد وجلوه حتى يصبح كالمرآة قابلاً للتلقي والمعرفة، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «صدأ القلوب بأمرين، بالغفلة والذنب، وجلأؤه بشيئين، بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان

(1) قواعد التصوف - الشيخ أحمد زروق ص (55) قاعدة رقم (97).

(2) حقائق عن التصوف - الشيخ عبد القادر عيسى ص (179).

الصدأ متراكما على قلبه وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات كما هي (1).

وكلام ابن القيم في غاية النفاسة لمن كان له في الفهم نصيب.

وأما الأدعية: فأكثرها ينظمونها في شكل أحزاب، فيقال حزب الشاذلي، وحزب الحداد، وحزب كذا وكذا، ولا تخلو بحال من كلمات الشرك والكفر والابتداع كالتوسل بالأموات والاستغاثة بهم ودعاء غير الله تعالى.

أحزاب السادة الصوفية

إن السعادة الحقة هي تقوى الله تعالى والعبادة بالإخلاص، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: 110).

والدعاء هو ركن هام من أركان العبادة، قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (2).

والذكر من استغفار وتسبيح وصلاة على النبي ﷺ من أبواب النجاح والفلاح، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: 45)، وهو مدعاة لذكر الله سبحانه للعبد، قال ﷺ: «يقول تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (3).

(1) الوابل الصيب - ابن القيم الجوزية ص (52).

(2) رواه أبو داود، والترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

(3) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

فلهذا حرص السادة الصوفية على ذكر الله تعالى آتاء الليل وأطراف النهار، وصاغوا ما فتح الله به عليهم من أدعية ومحامد وأذكار في شكل أدعية عرفت بالأحزاب .

قال الشيخ أحمد زروق: وبالجملة فأحزاب المشائخ صفة حالهم، ونكتة مقالهم، وميراث علومهم وأعمالهم، وبذلك جروا في كل أمورهم لا بالهوى، فلذلك قبل كلامهم، وربما جاء بعد من أراد محاولة ذلك بنفسه لنفسه فعاد ما توجه له عليه بعكسه، وما هو إلا كما يحكى عن النحلة أنها علمت الزنبور طريق النسخ فنسخ على منوالها، ووضع بيتا على مثالها، ثم ادعى أن له من الفضيلة ما لها، فقالت له: هذا البيت وأين العسل، وإنما السر في السكان لا في المنزل، فأحوالهم مؤيدة بعلومهم مسددة بإلهاماتهم، مصحوبة بكراماتهم⁽¹⁾.

وقال العلامة الصاوي في حاشيته على الشرح الصغير: «أوراد العارفين لا تخلو من كونها من الكتاب أو السنة أو الفتح الإلهي ولذلك تقدم على غيرها».

وقد راعى السادة الصوفية في أحزابهم أن تكون سهلة الحفظ والفهم تشتمل على صحيح العقائد كحزب «سبحان الدائم» للجزولي، إذ فيه ما يجب في حق الله تعالى والرسول وما يستحيل ويجوز، حتى غلب عليه اسم حزب التوحيد، ولسهولة حفظه انتشر حفظه في كل بلاد المغرب العربي، فكان سببا في نشر العقائد الإسلامية الصحيحة بين العامة، ومنها ما استمل على مناجاة الله تعالى برقة عبارة ولطيف إشارة، من قلوب عرفت ففاضت بأعذب الألفاظ وأجملها، كقول محمد بن عيسى رضي الله عنه في حزب الحصن والاستقامة:

(اللهم يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا تعطله المسائل، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين، أذقنا برد عفوك وحلاوة معرفتك يا أرحم الراحمين، اللهم إنك تعلم سرنا وعلايتنا فاقبل معذرتنا، وتعلم حاجتنا فأعطنا سؤلنا، وتعلم ما في أنفسنا فاغفر لنا ذنوبنا).

(1) شرح حزب البحر - أحمد زروق.

ومنها ما كان توبة وتذللًا لله تعالى واستغفارًا، كقول الشيخ محمد بن عيسى رضي الله عنه :

(اللهم إنا نستغفرك من كل ذنب تبنا إليك منه ثم عدنا فيه، ونستغفرك مما وعدناك به من أنفسنا ثم لم نوف لك به، ونستغفرك من كل عمل أردنا به وجهك فخالطه غيرك، ونستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علينا فاستعنا بها على معصيتك، ونستغفرك يا علام الغيوب من كل ذنب أتيناه في ضياء النهار أو ظلام الليل في خلاء وملاء وسر وعلائية، فاغفر لنا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) .

وكل أحزاب هؤلاء الصالحين العارفين لا تخرج عن ذكر الله ومناجاته، ولسهولة ولتتها ورفقتها كانت نبراسا للقلوب الحائرة من أولئك البسطاء ممن لم يحفظ علما أو يمارس معرفة، فتغلغل بينهم تنشر في أفئدتهم النور الرباني، وتعودهم مناجاة ربهم وتحضهم على تعمير أوقاتهم بالطاعات، فكانت حافزا لهم على طلب العلم لمعرفة كيفية العبادة وحفظ القرآن الكريم لإقامة الصلاة والأنس بكلامه سبحانه .

والفاظ الشرك التي ذكرها المصنف لا وجود لها إلا في وهم من يرى أن التوسل أو الاستغاثة شرك، نعم يوجد ببعض أحزاب هؤلاء العارفين أحيانا استغاثات برسول الله ﷺ أو بالصالحين أو توسل لله تعالى بالأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، وبكل ما يحب الله عموما، وقد تكلمنا في الاستغاثة سابقا وبيننا دليل جوازها في الشرع الكريم، أما التوسل فإنه من الأمور المعتادة عند المسلمين الثابتة بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وما صار شركا وكفرا إلا بعد أن ارتفعت بعض الأصوات الشاذة المتعصبة لرأيها الرافضة لكل ما سواه .

التوسل

والتوسل لغة : من وسل يسأل أي رغب وتقرب، والتوسل شرعا هو التقرب إلى الله تعالى بما يحب، ولقد اتفق العلماء جميعا بدون استثناء واحد على جواز التوسل، واختلفوا فيما يقبله لفظ التوسل أو يتحمله، فمن هنا صار من السذاجة

تسمية نوع منه بالشرك ونوع بالإيمان، إذ إنه توصل على كل حال، وغاية ما يمكن أن يقال فيه: إنه مسألة خلافية والدليل على جوازه أقوى من الدليل على عدم جوازه والعلم قيد الدليل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: 35).

وروى البخاري عن ابن عمر أنه كان يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال ابن عمر: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقى، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب⁽¹⁾، فهذا الحديث يدل على أن الصحابة كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ إذا أجذبوا، وقد استمروا على هذا حتى بعد وفاته ﷺ، إذ دأبوا على التوسل بمن يرون فيه الشرف والصلاح والقرب من الله تعالى فعن أنس: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال:

اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فنتسقين وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فيستقون⁽²⁾، دل هذا الحديث على أن الصحابة كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ لاعتقادهم - وهو الحق - أنه أقرب مخلوق لله تعالى، فلما توفي توسلوا بعمه العباس لقربته من النبي ﷺ، وإلا ففي الصحابة من هو أقدم إسلاماً منه.

وبالإضافة إلى هذا فقد توسلوا بالنبي ﷺ بعد موته فقد أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل⁽³⁾ إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! استسق لأمك فإنهم قد هلكوا، فأتى الرجل في المنام فقال له: انت عمر فقل

(1) رواه البخاري، وأحمد، وابن ماجه.

(2) رواه البخاري.

(3) عن البيهقي، وابن أبي شيبه أن الرجل هو الصحابي بلال بن الحرث.

له: إنكم مستسقون فعليك الكفين، فبكى عمر وقال: يارب ما آتوا إلا ما عجزت عنه^(١).

بل إن الرسول ﷺ كان يعلم صحابته التوسل، ففي الحديث الصحيح عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه: «أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان: ائت الميضاة ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليه بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل فصنع ما قاله له، ثم أتى عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه على الطنفسة وقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة، وقال: ما كان لك من حاجة فائتنا.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضربه فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: أتصبر؟ فقال يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق علي، فقال له النبي ﷺ: ائت الميضاة فتوضاً ثم صل ركعتين ثم ادعوا بهذه الكلمات:

«اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى، اللهم شفعه في، فقال عثمان

(١) فتح الباري لابن حجر، والإصابة ج 3 ص (4)، ودلائل النبوة للبيهقي، وقد التزم البيهقي إلا يذكر في هذا الكتاب حديثاً واحداً موضوعاً، وفي رواية وقل له: الكيس الكيس.. الحديث.

ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط⁽¹⁾.

والحديث صحيح، وانحرف به ابن تيمية عن معناه الواضح إلى التخصيص⁽²⁾ مخالفاً بذلك أمر الصحابي عثمان بن حنيف للرجل بالعمل به.

ثم أتى المصنف وهو الواعظ والمدرس بالجامعة الإسلامية، والذي حدثنا في كتابه الذي بين أيدينا عن التدليس وخطورته، فذكر هذا الحديث في كتابه عقيدة المؤمن بعد أن حذف نصفه وابتدأ فيه بقوله: «إن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني... إلخ»، وحذف كل ما قبله ليخلص إلى أن التوسل كان بحياة النبي ﷺ مما هو غير متيسر بعد وفاته⁽³⁾.

وكان الصحابي عثمان بن حنيف على خطأ في أمره للرجل بالتوسل به ﷺ بعد موته وسيادته على صواب، فيا للمقدرة والجرأة على أحاديث رسول الله ﷺ وصحابته.

ونحن إذ نحاشي المصنف عن قول غير الحق على الله ورسوله، نسأل الله أن يلهمه الصواب والسداد ويبعده عن التشبث بآراء الغير وإن كانت فاسدة، ويهديه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ بفضله وكرمه فإنه لا يخيب السائلين.

ونرجع إلى موضوع البحث فنقول: إن النبي ﷺ قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إليك... آخر الحديث»⁽⁴⁾، وقال: «اغفر لأمي فاطمة بنت

(1) رواه الطبراني وقال: «صحيح»، والحاكم وقال: «صحيح الإسناد»، وابن ماجه، والترمذي، وقال: «حسن صحيح».

(2) انظر كتاب قاعدة جلية في التوسل والوسيلة - الشيخ أحمد بن تيمية ص (127).

(3) انظر كتاب عقيدة المؤمن - للمصنف ص (115-116).

(4) رواه أحمد، وابن ماجه، وابن السني، وهو حديث ضعيف إذ في سنده الوازع عن نافع وهو منكر الحديث، وله طريق آخر بها عطية العوفي وهو أيضاً ضعيف، فالحديث ضعيف عموماً ما لم يكن له طريق آخر، ولا أظنه والله ورسوله أعلم، ولكنه يتقوى بالذي بعده، وإن كان قد حسنه الحافظ العراقي والمنذري.

أسد ولقنها حجتها ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي»⁽¹⁾

فتراه ﷺ سن لنا التوسل بحق الأنبياء وإن كانوا في دار الآخرة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لما اقتراف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي فقال الله تعالى: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يارب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك»⁽²⁾.

وروى البخاري ومسلم حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار فسال السيل وألقى عليه صخرة سدت فمه، فصاروا لا يستطيعون الخروج فقالوا: يا هؤلاء إنه لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح ما عملتم، ففعلوا فاستجاب الله تعالى لهم وفرج عنهم.

وعن الإمام علي قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفن رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ، وحثا على رأسه من ترابه ثم قال: قلت يا رسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله عز وجل فوعينا عنك، وكان فيما أنزل إليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: 64). وقد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي، فتودي من القبر: قد غفر لك⁽³⁾.

(1) رواء الطبراني، وصححه ابن حبان، ورواه الحاكم، وأبو نعيم، وابن أبي شيبة، وابن عبد البر، والسيوطي في الجامع الكبير.

(2) البيهقي في الدلائل، والطبراني، والحاكم في المستدرک.

(3) ذكره القرطبي في تفسيره، والقاضي عياض في الشفاء، وهبة الله في توثيق عرى الإيمان، والحافظ ابن حجر.

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه ببغداد يتوسل بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنه فيجىء إلى ضريحه فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجاته⁽¹⁾

ولنرجع إلى رأس الموضوع، إذ أحسب أنني خرجت عن الاختصار الذي أحاول جاهدا الالتزام به فأقول:

نعم في أحزاب السادة الصوفية توسل بالنبي ﷺ والصالحين عموما وبالخلق وبالعمل الصالح عملا بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء: 57).

وهذا كما رأينا هو ما درج عليه الصحابة والمسلمون كافة، وإلى اليوم، فما أجدر بالمصنف وأمثاله بالتروي واختيار الكلمات والألفاظ بعناية، فإن اتهام المسلمين بالشرك والكفر لآفته الأسباب حوب كبير.

وأما الأذكار فمنها ما حق مشروع كالهيللة، أي لا إله إلا الله ويسمونه ذكر العامة، ومنه ما هو غير مشروع كالذكر باللفظ المفرد نحو الله الله أو حي حي، ويسمونه ذكر الخاصة.

الأذكار

نعم يذكر السادة الصوفية بهذه الأذكار من هيللة – وهي كلمة التوحيد – وغيرها مما أتى على لسان الشارع الأمر بترديدها، فاما الهيللة فقد قال ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»⁽²⁾.

(1) كتاب الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان – العلامة ابن حجر.
(2) رواه الترمذي وحسنه.

وأما الذكر بالاسم المفرد مثل قول: الله الله، فقال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، واسم الرب هو الله، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله»^(١). وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١)، وأما اسم حي وغيره من الأسماء المفردة فمثلها في ذلك مثل اسم الله إذ كلها من أسمائه سبحانه وتعالى، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الإسراء: ١١٠) وقد صح أن سيدنا بلال رضي الله عنه كان يردد اسم «أحد أحد» والمشركون يعذبونه.

فلا ندري من أين أتى المصنف - هداة الله - بعدم مشروعية الذكر بالاسم المفرد.

ومنها ما هو باطل وضلال، كالذكر بلفظ ضمير الغيبة نحو هو، ويسمونه بذكر الخاصة.

الذكر بالاسم المضمَر «هو»

نعم يذكر السادة الصوفية بهذا الاسم من أسماء الله تعالى، وأقولهم في الباب خارجة عن الحصر، ولكنهم لم يختصوا بذلك وحدهم، فقد رغب في الذكر بهذا الاسم العديد من العلماء بل كبار العلماء وخيارهم.

وأحسب أنني لست بحاجة لنقل كلام السادة الصوفية في هذا الأمر لاشتهاره عنهم واشتهارهم به، أما بالنسبة لغيرهم فسنكتفي بنقل ما ذكره الإمام الفخر الرازي^(٢) في التفسير الكبير لإجماع الأمة على علمه وفضله وتقدمه في العلوم، قال رحمه الله:

(١) ولد الإمام الرازي في الري عام 554 هـ وتوفي في 606 هـ، وله سبعة وستون كتاباً أتمها، وثمانية كتب مات ولم يكملها، وإذا قال علماء الأصول: قال الإمام بدون ذكر الاسم فالمقصود هو الإمام فخر الدين الرازي، وذلك لعلو منزلته وفضله ونبوغه، ومن أعظم مؤلفاته كتاب التفسير الكبير الذي فسر فيه القرآن الكريم بأسلوب لم يسبق إليه.

«اعلم أن الأسماء المضمرة ثلاث: أنا، وأنت، وهو، وأعرف الأقسام الثلاثة قولنا «أنا» لأن هذا اللفظ يشير به كل أحد إلى نفسه، وأعرف المعارف عند كل أحد نفسه، وأوسط هذه الأقسام قولنا «أنت» لأن هذا خطاب للغير بشرط كونه حاضرا، فلاجل كونه خطابا للغير يكون دون قوله «أنا»، وللاجل أن الشرط فيه كون ذلك المخاطب حاضرا يكون أعلى من قوله «هو» فثبت أن أعلى الأقسام «أنا» وأوسطها «أنت» وأدناها «هو» وكلمة التوحيد وردت بكل واحدة من هذه الألفاظ. أما لفظ «أنا» فقال في سورة النحل ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، وفي سورة طه ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، وأما لفظ «أنت» فقد جاء في قوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾، وأما لفظ هو فقد جاء كثيرا في القرآن أولها في سورة البقرة في قوله: ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وآخرها في سورة المزمل وهو قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، وأما ورود هذه الكلمة مقرونا باسم آخر سوى هذه الأربعة فهو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون أنه قال: ﴿أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، ثم بين الله تعالى أن تلك الكلمة ما قبلت منه، إذا عرفت هذا فلنذكر أحكام هذه الأقسام فنقول:

أما قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ فهذا الكلام لا يجوز أن يتكلم به أحد إلا الله أو من يذكره على سبيل الحكاية عن الله، لأن تلك الكلمة تقتضي إثبات الإلهية لذلك القائل، وذلك لا يليق إلا بالله سبحانه، وأعلم أن معرفة هذه الكلمة مشروطة بمعرفة قوله (أنا)، وتلك على سبيل التمام والكمال لا تحصل إلا للحق سبحانه وتعالى، لأن علم كل أحد بذاته المخصوصة أكمل من علم غيره به، لاسيما في حق الحق تعالى، فثبت أن قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ لم يحصل العلم به على سبيل الكمال إلا للحق تعالى.

وأما الدرجة الثانية وهي قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ فهذا يصح ذكره من العبد لكن بشرط أن يكون حاضرا لا غائبا، لكن هذه الحالة إنما اتفق حصولها ليونس

عليه السلام عند غيبته عن جميع حظوظ النفس، وهذا تنبيه على أن الإنسان ما لم يصبر غائبا عن كل الحظوظ لا يصل إلى مقام المشاهدة.

وأما الدرجة الثالثة وهي قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهذا يصح من الغائبين.

واعلم أن درجات الحضور مختلفة بالقرب والبعد وكمال التجلي ونقصانه، وكل درجة ناقصة من درجات الحضور، فهي غيبة بالنسبة إلى الدرجة الكاملة، ولما كانت درجات الحضور غير متناهية، فكل من صدق عليه أنه حاضر، فباعتبار آخر يصدق عليه أنه غائب وبالعكس، وعن هذا قال الشاعر:

أيا غائبا حاضرا في الفؤاد سلام على الغائب الحاضر

ويحكى أن الشبلي لما قربت وفاته قال بعض الحاضرين: قل لا إله إلا الله فقال:

كل بيت أنت حاضره غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم تأتي الناس بالحجج

واعلم أن لفظ «هو» فيه أسرار عجيبة وأحوال عالية، فبعضها يمكن شرحه وتقريره وبيانه وبعضها لا يمكن، وأنا بتوفيق الله كتبت أسراراً لطيفة، إلا أنني كلما أقابل تلك الكلمات المكتوبة بما أجده في القلب من البهجة والسعادة عند ذكر كلمة «هو»، أجد المكتوب بالنسبة إلى تلك الأحوال المشاهدة حقيراً، فعند هذا عرفت أن لهذه الكلمة تأثيراً عجبياً في القلب لا يصل البيان إليه، ولا ينتهي الشرح إليه، فلنكتب ما يمكن ذكره فنقول: فيه أسرار، الأول: أن الرجل إذا قال «يا هو» فكأنه يقول: من أنا حتى أعرفك ومن أنا حتى أكون مخاطباً لك، وما للتراب ورب الأرباب، وأي مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم وبين الموصوف بالأزلية والقدم؟ فأنت أعلى من جميع المناسبات وأنت مقدس عن علائق المعقول والخيالات، فلهذا السبب خاطبه العبد بخطاب الغائبين فقال: «يا هو»^(١).

(١) التفسير الكبير - للإمام الفخر الرازي ص (145-147).

وقد ذكر الفخر الرازي رحمه الله إحدى عشر فائدة في الذكر بهذا الاسم العظيم، فمن أراد التوسع فليراجع المصدر، فإن مقصودنا هو الرد على المصنف في ادعائه الباطل بعدم مشروعية الذكر بلفظ هو .

ولولا أننا نلتزم في كتابنا هذا بأسلوب محدد لذكرنا ما نعرفه نحن عن الذكر بهذا الاسم وما فيه من أسرار وأنوار، وإن كنا لا نحيد أن يذكره المريد بدون إشراف من شيخ عارف متمكن في مثل هذا الأمور، وقد كان بعض أصحابنا يسمع أثناء ذكره بهذا الاسم الحجرة التي هو بها تردد معه نفس الذكر، بل إن زوجات بعض أصحابنا كن يسمعن أيضا من يذكر مع أزواجهن بدون أن يكون في الحجرة أحد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور: 41) .

فانظر كيف يصنفون الذاكرين ثلاثة أصناف خيرهم يسمونهم العامة، وشرهم يسمونهم الخاصة، نعوذ بالله من هذا الضلال المبين، ونبرأ إلى الله تعالى من هذا الكذب المشين.

كل هذا الكلام من جنس الخطابة التي لا تصل بالسامع إلى نتيجة .
فالمقصود بذكر العامة هو ذكر الأجر والثواب مع بقاء الصفات المذمومة وعدم استيفاء شروط الذكر وآدابه، وذكر الخاصة هو الحضور بطهارة النفس من كل خلق ذميم وتحليتها بكل خلق كريم مع استيفاء الشروط والالتزام بالآداب ومحال أن يستويا .

هذا ويأتي الخطأ في الأذكار الصوفية في صور منها:

1) تحديد الأوراد في كمياتها وكيفياتها وأوقاتها، فإن كان الشارع قد أطلق الذكر ولم يحدده بكمية وعدد معين فلا يصح تحديده ولا تعيينه، ومن حدد أو عين فقد ابتدع والبدعة ضلالة .

الذكر المطلق والذكر المقيد

ليس كذلك، فقد جاء عن الشارع الذكر المطلق بدون عدد كقوله ﷺ: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»⁽¹⁾، وغيره من الأحاديث.

وجاء أيضاً الذكر المقيد بزمان أو مكان خاص، وعن السيدة أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال: اللهم إني أسألك علما نافعاً وعملاً متقبلاً ورزقاً طيباً»⁽²⁾، واعطف عليه الذكر بعد أداء الصلاة، وبعد الاستيقاظ من النوم، ودخول البيت، ودخول الخلاء، والتوجه إلى المسجد، وعند الأذان، وركوب الدابة أو السيارة، وغيرها من الأذكار المحددة بزمان ومكان معينين.

والخلاصة أن الشارع قد أمر بتقييد الذكر وأمر بإطلاقه، فمن أطلق كان متبعاً لسنة النبي ﷺ، ومن قيد فهو الآخر متبع للسنة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه»⁽³⁾.

قال القاضي عياض: «ذكر هذا العدد من المائة، وهذا الحصر لهذه الأذكار دليل على أنها غاية وحد لهذه الأجور، ثم نبه ﷺ بقوله: ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه، إلى أنه يجوز أن يزداد على هذا العدد فيكون لقائله من الفضل بحسب ذلك، لئلا يظن أنها من الحدود التي نهى عن اعتدائها وأنه لا فضل للزيادة عليها، كالزيادة على ركعات السنة المحدودة وأعداد الطهارة، وبالع

(1) رواه الترمذي وقال: «حديث حسن».

(2) رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند، ورواه ابن ماجه.

(3) رواه البخاري، ومسلم.

آخرون فقالوا: إن الثواب الموعود به موقوف على العدد المذكور، قال ابن الجوزي:
وهذا غلط ظاهر وقول لا يلتفت إليه، بل الصواب أنه كما قال الشاعر:

ومن زاد زاد الله في حسناته⁽¹⁾

وقال رحمه الله: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»⁽²⁾.

وبدون ضبط بأعداد لا تتم المداومة المطلوبة، فإن لفظ المداومة لا يصدق إلا
على الالتزام بكم أو كيف محدد.

1- وأعني بالكيفية أن يؤتى بالذكر في جماعة وبصوت واحد، وهي
كيفية مخالفة لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه حال الذكر، وكما
أعني بالأوقات وقت معين لا يؤتى إلا فيه.

الذكر جهرا في حلق الذكر

ليس كذلك، فإن الذكر في جماعة قد جاء عن النبي ﷺ، فعن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه قال: «إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس عن
المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ قال: كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا
سمعت»⁽³⁾.

وقال رحمه الله فيما يرويه عن ربه عز شأنه: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا
ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في
ملأ خير منهم»⁽⁴⁾، والذكر في الملأ لا يكون إلا جهرا.

(1) الفتوحات الربانية - ابن علان الصديقي ج 1 ص (209).

(2) متفق عليه.

(3) متفق عليه.

(4) متفق عليه.

قال إمام أهل الحديث الإمام النووي: «اعلم أنه كما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حلق أهله، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك وسترده في مواضعها إن شاء الله تعالى، ويكفي في ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: حلق الذكر، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإن أتوا عليهم حفوا بهم»⁽¹⁾.

وقد بسط العلماء الحديث في الحظ على حضور مجالس الذكر والاجتماع على ذكر الله تعالى تقديس أسمائه، فليراجعه المصنف في الأذكار للنووي، وعند ابن السني، والسيوطي في رسالته المسماة «نتيجة الفكر في الجهر بالذكر» وغيرهم، ويترك الملتزمين بسنة رسول الله ﷺ في ذكر الله تعالى وشأنهم، فإن القوم لا يقدمون على أمر حتى يعلموا حكم الله فيه.

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدوا على رسول الله ﷺ أنه قال:

«لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيما عنده»⁽²⁾.

2- وضع صيغ ألفاظ لم ترد عن النبي ﷺ، ومن المعلوم في الشريعة بالضرورة أن أي ذكر لم يرد عن الشارع فهو باطل لأنه تشريع زائد.

(1) الأذكار للنووي ص (8) والحديث المذكور رواه الترمذي وحسنه.

(2) رواه مسلم.

التشريع الزائد

ليس كذلك، فإن المعلوم من الدين بالضرورة بأنه باطل هو التشريع، أي في الأصول والأحكام وما حدّ بحد كالزكاة والصلاة والصوم والطهارة وغيرها، فمن جعل الظهور ركعتين مثلاً أو خمس فقد أتى بتشريع زائد وحكمه البطلان، وقس عليه سائر أحكام الدين.

ولكن ما ليس بتشريع زائد لا يصدق عليه هذا الحكم، فلم يرد عن الشارع ما يمنع المسلم من أن يذكر ربه بما شاء، ما دام لا يخرج عن تعظيمه وتبجيله وتسبيحه سبحانه، والاستغفار والتوحيد والصلاة على النبي ﷺ، وعن رفاة بن رافع الزرقني قال: «كنا يوماً نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه قال: سمع الله لمن حمده، فقال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: من المتكلم؟ قال: أنا، قال: رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً⁽¹⁾».

ولسوء حظ المصنف فإن النبي ﷺ لم يقل لهذا الصحابي إنك قد أتيت بتشريع زائد، ولا إنك ابتدعت في الدين، بل لم يزد على رد فيه البشري والتشجيع على هذا الصنيع.

وقال النووي: «وأما الدعاء على أعضاء الوضوء لم يجرى فيه شيء عن النبي ﷺ، وقد قال الفقهاء: يستحب فيه دعوات جاءت عن السلف⁽²⁾، أي أن السلف من الصحابة والتابعين وأكابر علماء الأمة وخيارها قد وضعوا من عند أنفسهم أذكاءً يقال على أعضاء الوضوء، إذ لم يصح نسبة شيء في هذا الموضوع إلى الرسول ﷺ، فهم قد أتوا بتشريع زائد، وهم على خطأ قطعاً والمصنف - زاده الله فطنة - على صواب.

واعطف عليه الكثير من الأذكار التي صحت عن كبار الصحابة وليست من

(1) رواه البخاري.

(2) كتاب الأذكار - للإمام النووي ص (30).

لفظه الشريف ﷺ، كدعاء القنوت لسيدنا عمر بن الخطاب، بل إن للعديد من الصحابة أذكارا وصيغا من الأدعية اختصوا بها لا نستطيع ذكرها جميعا، طلبا للاختصار الذي يشد وثاق استرسالنا، وإلا لأصبح هذا الكتاب في مجلدات، ونترك للمصنف مراجعتها ودراستها.

3- الاجتماع عليه ورفع الأصوات به، وإحداث حركات منكبة كالتمايل والقفز والرقص والتصفيق.

الحركة في الذكر

التمايل ليس شرطاً في الذكر ولكنه جائز، لأنه ينشط الجسم للذكر ويساعده على حضور القلب مع الله تعالى، وقد صح عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتمايلون حال الذكر.

وعن الإمام علي أنه قال: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى شيئا يشبههم، لقد كانوا يصبحون صفرا شعنا غبرا بين أيديهم كأمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله، يتراوحن بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في الريح»^(١).

فهذا يدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتحركون حال الذكر.

وأما القفز أحيانا وما إليه فهذا ناتج عما يعرض للذاكر من أحوال ومواجيد تغلبه على أمره، والمنكر محروم ما ذاق لذة الوجد ولا صفا له المشروب، ولو ذاق مذاقهم لعرف المعنى، ولو ورد على قلبه ما يرد على قلوبهم لانتفض كعصفور بلله القطر، أو كبديل لا مست جمرًا.

(١) رواه أبو نعيم، وكذلك انظر ابن كثير ج 8 ص (6) ومادوا أى تحركوا.

وعن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال :

«أتيت النبي ﷺ أنا وجعفر وزيد فقال النبي ﷺ لزيد : أنت مولاي فحجل ، وقال لجعفر : أنت أشبهت خلقي وخلقي فحجل ، وقال لي : أنت مني فحججت»⁽¹⁾ ، والحجل هو رفع رجل ومشى على الأخرى ، وهو من نتائج التواجد ، لعظيم فرح هؤلاء الصحابة الكرام بما صدر من رسول الله ﷺ فيهم .

وقد سئل العلامة ابن حجر عن الوجد وأثره في المتواجد ومشروعيته فقال : «نعم له أصل ، فقد روي في الحديث أن جعفر بن أبي طالب رقص بين يدي النبي ﷺ لما قال : أشبهت خلقي وخلقي فحجل ، وذلك من لذة الخطاب ولم ينكر عليه ﷺ»⁽²⁾ .

ثم إن هذه الأحوال والمواجيد لا تؤتى اختياراً ، وقد تشدد السادة الصوفية في هذا الأمر ولم يسمحوا بإظهار هذه الأحوال ولا إبدائها إلا في أضيق نطاق وعند استحالة مقاومتها وإخفائها ، قال الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر رضي الله عنه : «من رقص فيها - يقصد السماع أو الحضرة - من غير جذب فهو من قلائل الأدب ، ومن صنف فيها متعمداً أو ركض فلعهدهنا قد نقض ، ومن اهتز فيها بغير حاله ، كشف الله حاله»⁽³⁾ .

ولكنها حال شريفة تغلب على السامع ، فرما سيطر على نفسه وهو الأفضل في فقه الطريق وربما غلبته ، ومن ذاق عرف ومن جرم انحرف ﷻ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد ﷻ (الزمر : 23) .

(1) رواه الإمام أحمد واللفظ له ، والبخاري تعليقا ، وأبو داود .

(2) انظر الفتاوى الحديثية - لابن حجر الهيتمي .

(3) الوصية الكبرى - للشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر .

4- مصاحبة الذكر بالعزف والتصفيق وهو ما يسمى بالمدايح والقصائد، وهذه لا تعذب لهم ولا تطيب إلا على أنغام المرد وأصوات المعازف والدفوف.

السماع

إن سماع القصائد بالحن موزونة مباح شرعا، فقد سمع النبي ﷺ حذاء عامر بن الأكوع وقوله:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فدعا له الرسول ﷺ قائلا: يرحمه الله... الحديث⁽¹⁾.

وكان حسان بن ثابت ينشد شعره والرسول ﷺ يقول: «اللهم أیده بروح القدس»⁽²⁾.

واستمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو من هو - غناء أحد المسلمين بشعر فيه وعظ وإرشاد فقال: «على هذا فليغن من غنى»⁽³⁾.

وكان عبد الرحمن بن عوف يتغنى:

وكيف ثوائسي بالمدينة بعد ما قضى منها وطرا جميل بن معمر⁽⁴⁾

فسمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ما هذا يا أبا محمد؟ قال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس.

(1) رواء البخاري، ومسلم.

(2) رواء البخاري، ومسلم.

(3) انظر الاعتصام للشاطبي ج 1 ص (220)، وانظر يسألونك في الدين والحياة للشيخ أحمد الشرياصي ج 4 ص (262).

(4) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ج 1 ص (264) ترجمة رقم (1194) وجميل المذكور هو جميل بن معمر الجمحي، وليس جميل بن معمر العذري صاحب بئينة كما قد يفهم.

وكذلك ليس في الدف من حرج، فقد استقبل نساء بني النجار الرسول ﷺ بالدف ولم ينكر عليهن، وعن أم المؤمنين السيدة عائشة أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى - أي عيد الأضحى - تغنيان وتضربان والنبى ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبى ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»^(١).

نعم يتأسى السادة الصوفية فى الاستماع إلى القصائد التى تهيج إلى محبة الله ورسوله ﷺ، وطاعة الله ورسوله، وتدعو إلى مكارم الأخلاق، المذكرة بوعد الله ووعدده، وما فى ذلك من حرج، بل الحرج كل الحرج على من ينكر عليهم هذه الحالة الشريفة الربانية ويسكت عن عظام المنكر، كالسماع من النساء كاشفات الرؤوس والنحور والمعاصم، وترديد الأغاني الفاجرة من عربية وأجنبية، فسبحان من جعل الاعتراض عند هؤلاء على سماع الصوفية الطاهر الزكي فقهاً، والسكوت عن المعاصي على علم إيماناً ودينياً.

وكذلك لم يكن هناك من سبب يدعو المصنف إلى الخروج عن أدب الإسلام وأخلاقه بإدخال ألفاظ مثل: «لا تعذب لهم، ولا تطيب إلا على أنغام المرد»، وكان الأحرى به أن ينزه نفسه عن مثل هذه العبارات، وعلى كل حال فإن العلماء أجمعوا على إباحة سماع السادة الصوفية وحرمو السماع الحاوي لألفاظ المجنون والخلاعة.

قال شيخ الأزهر محمود شلتوت موجه حديثه إلى الأصوات الشاذة القاذية فى السماع: «فليعلموا أن الفقهاء على إباحة السماع فى الشوق إلى الحج، وفي تحريض الغزاة على القتال، وفي مناسبات السرور المألوفة كالعيد والعرس وقدم الغائب وما إليها، إلى أن قال رحمه الله: وكان الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر فى القرن الثالث عشر الهجري ذا ولع شديد بالسماع وعلى معرفة تامة

(١) متفق عليه.

بأصوله، ومن كلماته في بعض مؤلفاته: من لم يتأثر برقيق الأشعار، تنلى بلسان الأوتار، على شطوط الأنهار، في ظلال الأشجار، فذلك جلف الطبع حمار».

وأخيرا قال الشيخ محمود شلتوت رحمه الله: «إن سماع الآلات ذات النغمات والأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان أو صوت حيوان، وإنما يحرم إذا استعنت به على محرم، أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو الهوى عن واجب».

وهكذا يجب أن يعلم الناس حكم الله في مثل هذه الشؤون ونرجو بعد ذلك أن لا نسمع القول يلقي جزافا، فإن تحريم ما لم يحرمه الله أو تحليل ما حرمه كلاهما افتراء على الله بغير علم⁽¹⁾.

ويقول السهروردي: «لا ينبغي لصديق أن يعتمد الحضور في مجمع يكون فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى، ويتوقع به مزيدا في إرادته وطلبه، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها ثم يقدم الاستخارة للحضور، ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف»⁽²⁾.

فأنت ترى أن القوم بالرغم من إباحته قد جعلوا له ضوابط وشروطا، إذ مبنى التصوف على الصدق في سائر الأحوال، ثم إن سماع السادة الصوفية يختلف اختلافا كبيرا عن سماع غيرهم فإنه لا يحرك فيهم إلا كريم الأحوال.

سئل ذو النون المصري رضي الله عنه عن السماع فقال: «وارد حق يزعم القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بفسق تزندق»⁽³⁾.

وقال الأستاذ الجنيد رضي الله عنه: «يحتاج السماع إلى ثلاثة أشياء: الزمان والمكان والإخوان»⁽⁴⁾.

(1) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر ص (358-359).

(2) عوارف المعارف - الشيخ عبد القاهر السهروردي ص (199).

(3) روض الرياحين للباغعي ص (181).

(4) المصدر السابق ص (182).

وسمع الإمام الشافعي من يقول:

خليلي ما بال المطايا كأنها نراها على الأعقاب بالقوم تنكم
فقال لابن عليه وكان معه: كيف تسمع أبطريك؟ فقال: لا، فقال: ما لك
حسن⁽¹⁾.

وبالجملة فإن السماع لا يرجع إلى رقة المعنى وطيب النغمة، وإنما هو مهيج لما
في القلوب، فمن كان قلبه ممتلئاً بالأغيار صرف السماع إلى ما في باطنه، ومثل
هذا لا مصلحة له في السماع ولا فائدة، ومن كان قلبه وكامن سره صافياً من كدر
الشهوات، محترقاً بحب الله، ليس فيه سواه، فإن السماع في حقه مندوب، إذ لا
يحرك فيه إلا الشوق والوجد والهيمن إلى رضى الرحمن.

وحدث أن رجلاً أعرفه سمع بيت ابن الفارض:

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

فاشتغل منذ ذلك الحين بحفظ القرآن الكريم، والاشتغال بالعلم عله يكون ذا
نصيب من رضا الله تعالى، أو يكون له سهم في مغفرته وعفوه، وهو الآن قد أتم
حفظ سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وابتدأ منذ أيام في حفظ سورة
الأنعام ومنذ ذلك الحين دأبت على مناداته باسم الفالح ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (القصص: 67).

فالمستمع ينبغي أن يستمع بقلب حي ونفس ميتة، ومن كان قلبه ميتاً
ونفسه حية لا يحل له السماع ﴿فَيُبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأَلْبَابُ﴾ (الزمر: 18).

(1) روض الرياحين ص (186).

5- وضع أجور معينة ومحددة على كل نوع من الذكر، بأن يقال: من قال كذا فله أجر كذا، من غير أن يرد عن الشارع وعلى سبيل المثال قول الشيخ التجاني في صلاة الفاتح أنها تعدل كذا، ولقائلها من الأجر كذا، ولنستمع إليه في كتاب الرماح ص 69 من ج 2 وهو يقول: وأما صلاة الفاتح لما أغلق فياني سألته ﷺ فأخبرني أولاً أنها بستمائة ألف صلاة، فقلت له: هل في جميع تلك الصلوات أجر من صلى بستمائة ألف صلاة مفردة؟ فقال: ﷺ: نعم يحصل في كل منها أجر من صلى بستمائة ألف صلاة مفردة، وسألته ﷺ: هل يقوم منها طائر واحد على الحد المذكور في الحديث لكل صلاة؟ وهو الطائر الذي له سبعون ألف جناح آخر الحديث... أم يقوم منها في كل صلاة ستمائة ألف طائر على تلك الصفة في كل مرة، وعدد السنة طائر واحد كما قال الشيخ رضي الله عنه ألف ألف ألف ألف ألف لسان، إلى أن تعد خمس مرات فهذا مجموع عدد الألسن، وكل لسان سبح الله تعالى بسبعين لغة في كل لحظة، وثوابها للمصلي على النبي ﷺ في كل مرة، هذا في غير الياقوتة الفريدة، أما فيها فإنه يخلق في كل مرة ستمائة ألف طائر على الصفة المذكورة، ثم قال رضي الله عنه وأرضاه وعنا به: فسألته ﷺ عن حديث: إن الصلاة على تعدل ثواب أربعمائة غزوة، وكل غزوة تعدل أربعمائة حجة هل صحيح أم لا؟ فقال ﷺ: صحيح، فسألته عن عدد هذه الغزوات هل يقوم من صلاة الفاتح لما أغلق مرة أربعمائة غزوة، أم يقوم أربعمائة غزوة لكل صلاة من الستمائة ألف صلاة، وكل صلاة على انفرادها أربعمائة غزوة؟ فقال ﷺ ما معناه: أن من صلى بها أي الفاتح لما أغلق... إلخ.. مرة واحدة حصل له ثواب ما إذا صلى بكل صلاة وقعت في العالم من جن وإنس وملك ستمائة ألف صلاة من أول الدهر إلى وقت تلفظ المصلي بها.

والآن أخي القارئ المسلم البصير، هل يسرك الكذب على رسول الله ﷺ؟ هل الذي يفترى الكذب على الله ورسوله يعد من المؤمنين؟!

قيل قديماً: أسأت فهما فأسأت الجواب .

فأولاً: إن كتاب (الرماح) هو الآخر ليس من تأليف الشيخ التجاني، بل هو من تأليف عمر الفتوتي، وهذا لم يكن معاصراً للشيخ التجاني، وقد ألف كتاب الرماح بعد وفاة الشيخ بوقت طويل .

ثانياً: للشيخ التجاني عبارة جامعة مانعة تدل على بعد نظر وحكمة وصادق فراسة وهي: «إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع، فإن وافق فاعملوا به، وإن خالف اتركوه»⁽¹⁾.

ونحن نقول للمصنف: اعتمد إلى ما بين يديك من معلومات عن الشيخ التجاني، وزن بهذا الميزان الدقيق الحساس ثم تحدث بما شئت .

وقد دس على هذا الشيخ الجليل العديد من الأقوال من قبل جهال مادحيه ومحبيه والحاقدين من قادحيه، حتى إن الشيخ العربي السائح عندما ألف كتابه «بغية المستفيد» عن الطريقة التجانية، أوضح أنه يشك في كتاب «الإفادة» وهو يكاد يكون من أهم الكتب التي تكلمت عن الطريقة التجانية في ذلك الوقت منقول عن الشيخ التجاني⁽²⁾، علماً بأن الشيخ العربي السائح كان قريب العهد بالشيخ، إذ إنه توفي في 1309هـ وتوفي الشيخ التجاني رحمه الله في 1230هـ.

ثالثاً: إن الشيخ التجاني كان فقيهاً مالكياً عالماً بالأصول والفروع، وكان يحفظ صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، ومختصر ابن الحاجب، ومختصر الشيخ خليل، وتهذيب البراذعي⁽³⁾، فلا يصح أن يصدر من رجل في

(1) كشف الحجاب - القاضي أحمد العياشي ص (370-371).

(2) كشف الحجاب ص (176).

(3) المصدر السابق ص (529).

مستوى علمه إلا ما يليق بفضلته، بل إن له من الأقوال ما يدل على شديد اطلاعه وغزير معرفته مثل قوله: « ما أحوج الناس في هذا الزمان إلى عالم أو علماء ينقحون لهم كتب الفقه من الخشوش الذي فيها »⁽¹⁾.

والذي درس الفقه وخصوصا المالكي، وتعدد الأقوال في المسألة الواحدة، وقاسى من أقوال الفقهاء وصعوبة الوصول إلى حكم جازم أحيانا يعرف قيمة هذه العبارة وفضل قائلها.

وأخيرا لنا وقفة عندما يرد أحيانا عن بعض السادة الصوفية من فوائد أو تبيان فضل أو ثواب عمل، لا نرد على المصنف ما نقله عن كتاب (الرماح)، فإن الأمر ليس بهذه الأهمية، وكتاب (الرماح) ليس من الكتب الموثوق بكل ما جاء بها ولكن لأهمية الموضوع.

فأقول: إن ما يذكر أحيانا عن ثواب بعض الأعمال عن بعض السادة الصوفية، كأن يقال: من صلى بصلاة الفاتح مثلا له كذا من الثواب، فهذا محمول عند أهله على أنه بشارات يعلمها الشيخ عن طريق الكشف أو الرؤيا أو الإلهام وما إليها، وهذه عند القوم لا تقبل إلا إذا ثبتت موافقتها للكتاب والسنة، وإن خالفتهما قيد أملة لا يلتفت إليها ولا يعمل بها.

قال أبو سليمان الداراني: « إنه ليقع في قلبي النكتة من كلام القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة »⁽²⁾.

وقال الإمام الشاذلي: « كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتميل النفس وتلتذ به فارم به وخذ بالكتاب والسنة »⁽³⁾.

وقال عبد السلام الأسمر: « وإياكم والاستدراج واتباع نزغات الشيطان

(1) المصدر السابق ص (182).

(2) في معظم كتب التصوف وفقه الطريق، وكذلك انظر الفرقان لابن تيمية ص (65).

(3) شذرات الذهب - ابن العماد الحنبلي ج 5 ص (239).

اللعين في السقطة والنوم، فإنه يغري المؤمن بالأحلام الكاذبة والصادقة والتأثيرات»⁽¹⁾، أما إن كانت موافقة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فيعمل بها.

وقد سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: لقد سألت الله تعالى بالاسم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»، وفي رواية «لقد سألت الله بالاسم الأعظم»⁽²⁾، فهل توقف فضل الله وكرمه على مسلم دون غيره، أو أن من ألهم ذلك الرجل اسمه الأعظم عاجز عن إلهام غيره.

وعادة يكون الحديث في عظم ثواب الصلاة على النبي ﷺ، وفي الأمر سر لطيف أشار إليه الإمام الشاذلي بقوله: «على من فاته كثرة الصيام والقيام أن يشغل نفسه بالصلاة على رسول الله ﷺ».

فإنك إن فعلت في جميع عمرك كل طاعة، ثم صلى الله عليك صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما عملته في عمرك كله من جميع الطاعات، لأنك تصلي على قدر وسعك وهو يصلي عليك على قدر ربوبيته، هذا إذا كانت الصلاة واحدة فكيف إذا صلى الله عليك عشراً بكل صلاة، كما جاء في الحديث الصحيح⁽³⁾.

وكذلك لا يستغرب أن يجازي الله تعالى على العمل القليل بما شاء فإنه أكرم الأكرمين.

قال ﷺ: «من سبح الله مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن حج ومن حمد الله مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن حج مائة حجة، ومن حمد الله

(1) مواهب الرحيم - محمد بن مخلوف ص (29) وانظر في الوصية الكبرى للشيخ عبد السلام ابن سليم الأسمر.

(2) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي، وقال: «حديث حسن».

(3) تاج العروس - ابن عطاء الله السكندري ص (8).

مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن حمل على مائة فرس في سبيل الله - أو قال غزا مائة غزوة - ومن هلك الله مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن أعتق مائة رقبة من ولد إسماعيل ، ومن كبر الله مائة بالغداة ومائة بالعشي لم يأت في ذلك اليوم أحد أكثر ممن أتى به إلا من قال مثل ما قال أو زاد على ما قال⁽¹⁾.

فانت ترى أن هذه الأذكار لا تكاد تستغرق من المسلم أكثر من نصف الساعة، وثوابها خرج عن الحصر، ولنا أن نتصور ثواب المداوم عليها طوال عمره كيف يكون، وقال ﷺ لأم هانئ: «إذا أصبحت فسيحي الله مائة، وهليليه مائة، واحمديه مائة، وكبريه مائة، فإن مائة تسيححة كمائة بدنة تهدينها، ومائة تهليلية لا تبقى ذنبا قبلها ولا بعدها»⁽²⁾.

والمعول على الإخلاص وحسن الظن بالله، والله أعلم ورسوله.

هل حقا أن الشيخ أحمد التجاني يخرج له الرسول ﷺ يقظة ويشافهه ويسأله ويجيبه كما سبق وقرأت في هذا الفصل.

رؤية الرسول ﷺ حال اليقظة

إن التشرف برؤية طلعتة البهية ﷺ يقظة ومناما هو من الكرامات التي يتفضل الله سبحانه وتعالى بإكرام عباده الصالحين بها، وهو ما صح في العقل والنقل.

وقد تشرف العديد من هؤلاء بالاجتماع به ﷺ، حتى إن الشيخ محمد بن عيسى تشرفت يده بمصافحة يده الكريمة ﷺ، حتى تشبكت الأصابع، وحادثه بما الله به أعلم، وحادثة تقبيل الشيخ أحمد الرفاعي ليد الرسول ﷺ مشهورة وموثقة.

(1) رواه النسائي، والترمذي، وقال: «حديث حسن».

(2) رواه الطبراني وغيره.

قال ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي»⁽¹⁾، فإن قلت: إن ذلك في يوم القيامة، فاعلم أنه لا فائدة حينئذ من التخصيص الذي جاء في الحديث، ومن قال به يلزمه الدليل، لأن كل أمته يرويه يومها، من رآه في المنام ومن لم يره كما لا يجهل أحد، فأصبح المقصود هو رؤيته ﷺ بعيني الرأس في دار الدنيا قبل الموت، وفاء لوعده الشريف لمن رآه في نومه ولو مرة.

قال حجة الإسلام الإمام الغزالي متحدثاً عن مكاشفات السادة الصوفية ومشاهداتهم: «حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال إلى مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق»⁽²⁾.

وسماع الأحياء من الأموات يقظة يحدث كثيراً، ولا نريد أن نذكر كل ما نعرف في هذا الشأن، ويكفي فيه ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءة على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: هي المانعة، هي المنجية من عذاب القبر»⁽³⁾.

وكذلك شم الرائحة الطيبة من غير رؤية صاحبها، فعن فضالة بن دينار قال: «حضرت محمد بن واسع وقد سجي للموت فجعل يقول: مرحباً بملائكة ربي ولا حولاً ولا قوة إلا بالله، وشممت رائحة طيب لم أشم قط أطيب منها، ثم شخص ببصره فمات»⁽⁴⁾.

(1) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والطبراني، والدارمي.

(2) المنقذ من الضلال - حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ص (55).

(3) رواه الترمذي وقال: «حديث حسن غريب»، انظر الاستدلال به في كتاب الروح لابن القيم ص (80).

(4) الروح لابن القيم ص (5، 65).

وقد يرى الحي الميت بعيني رأسه فضلا عن سماع صوته أو شم الرائحة، فمن عرووة، عن أبيه قال: «بينما راكب يسير بين مكة والمدينة إذ مر بمقبرة، فإذا برجل قد خرج من قبر يلتهب نارا مصفدا في الحديد، فقال: يا عبد الله انضح، يا عبد الله انضح، قال: وخرج آخر يتلوه فقال: يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح، قال: وغشي على الراكب وعدلت به راحلته إلى العرج، قال: وأصبح وقد ابيض شعره، فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده»⁽¹⁾.

والعمدة في هذا الأمر ما قاله الشيخ ابن القيم رحمه الله: «قال مالك وغيره من الأئمة، إن الروح مرسله تذهب حيث شاءت، وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد أمر يعلمه عامة الناس ولا يشكون فيه»⁽²⁾.

وإذا كنت مزكوما فليس بلائق مقالك هذا المسك ليس بفائح

إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ والرسول ﷺ يقول: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»، أرأيت أخي المسلم كيف يبني الطريقيون طرقهم على الكذب تغريرا بالمسلمين وتضليلا لهم، إن الطريقة التجانية تعتبر من أكبر الطرق الصوفية وأوسعها انتشارا، فإن أبناءها يوجدون من نيجيريا غربا إلى تركيا شرقا.

وبالطبع كل هذا العدد الهائل - بشهادة المصنف - من المسلمين على ضلال، وهو - أدامه الله - على صواب، وفي كل هؤلاء لا يوجد عالم واحد يعرف الحق من الضلال، والخير من الشر، وهم بانتظار المصنف حتى يلتقط بعض الترهات

(1) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في الأوسط، وانظره في كتاب الروح لابن القيم ص (67).

(2) الروح - ابن القيم الجوزية ص (101 - 102).

من هنا وهناك لينشرها بين أيديهم مشكورا، فيروا بطلان رأيهم، وسلامة رأيه، وجودة فهمه، فما أعجب تصارييف الزمان.

قال الأمير شكيب أرسلان: «إن الشيخ أحمد التجاني كان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين قبل تكالب الآباء البيض⁽¹⁾ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث استعملت التجانية القوة في نشر العقيدة الإسلامية... ويفيض في التحدث عن دور الطريقة التجانية في نشر الإسلام إلى أن قال: إن أفريقيا كادت تكون كلها إسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطنة التجانية هذه، كما أن أوربا كادت أن تكون إسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب في بوابتي⁽²⁾».

قال جعفر الرازي رضي الله عنه: «الولي ربحانة الله في الأرض يشمه الصديقون، فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم، ويزدادون برؤيته عبادة⁽³⁾».

ومع هذا فقد رأيت كيف قامت هذه الطريقة على الكذب الذي لا يصدق، والباطل الذي لا يصح ولا يقبل، وعلى مثلها فقس سائر الطرق الصوفية ومشائخ التصوف، وابرأ إلى الله تعالى منهم، واسأله أن يقيك والمسلمين شر فتنهم، وخلاصة القول في هذا الأصل أن أوراد الصوفية من أذكار وصلوات وأدعية ومدائح وقصائد شعرية لا تخلوا أبداً من الكذب وألفاظ الشرك ومعتقداته، ولا يفارقها الابتداع في ألفاظها وأعدادها وأوقاتها، وأكثرها ما وضع إلا لضرب أمة الإسلام بتمزيق شملها، وتفتيت قوتها، أو إدخال الزيف والضلال في معتقداتها، والبدع في عباداتها، حتى لا تقوم لها قائمة، ولا تزكو لها نفس ولا يستجاب لها دعوة - والعياذ بالله تعالى.

(1) يقصد جماعة لافييجري المبشر الشديد التعصب، الذي حارب الإسلام بشدة في أفريقيا.

(2) حاضن العالم الإسلامي - الأمير شكيب أرسلان.

(3) منهل الوزاد ويهجة الإرشاد - الشيخ جابر أحمد معمر ص (392).

الأصل الخامس

الخلوة... من أصول طرق الصوفية «الخلوة» وهي لغة مصدر خلا يخلو خلاء وخلوة، إذا انفرد بنفسه عن غيره من سائر الناس .

تعريف الخلوة

عرف الشيخ عبد القادر عيسى الخلوة بقوله :

« هي انقطاع عن البشر لفترة محدودة، وترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم ذكر الله تعالى بقلب حاضراً خاشعاً، أو تفكر في آلائه تعالى أثناء الليل وأطراف النهار⁽¹⁾ .

وقال ذو النون المصري متحدثاً عن فائدتها : لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة، ومن أحب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص، وظفر بركن من أركان التصوف⁽²⁾ .

وفي اصطلاح الصوفية انفراد المريد بإذن الشيخ وتحت رقابته ورعايته .

ضرورة إشراف الشيخ على المختلي

نعم يقول الشيخ أحمد زروق : « والقصد بها - الخلوة - تطهير القلب من

(1) حقائق عن التصوف - الشيخ عبد القادر عيسى ص (242).

(2) عوارف المعارف - للسهروردي ص (210).

أدناس الملابس، وإفراد القلب لذكر واحد وحقيقة واحدة، ولكنها بلا شيخ مخطئة»⁽¹⁾.

وهذا كما لا يخفى، لأن السادة الصوفية قد اختاروا الخلوة لسلامة الدين، وتفقد أحوال النفس، وإخلاص العمل لله تعالى، ولا تنأى هذه النتائج إلا إذا انتهج المنهج التعبدى الصحيح، وهذا المنهج يختلف من مرید لآخر، فما صلح لهذا قد لا يصلح لذلك.

قال السهروردي موضحاً لهذا الأمر: «إن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات، وكف الجوارح عن المكروهات، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إدامة الأوراد وتوزيعها على الأوقات، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد، ويصلح لقوم دوام المراقبة، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر، ومعرفة مقادير ذلك يعلمه المصحب للشيخ المطلع على اختلاف الأوضاع وتنوعها»⁽²⁾.

في سرداب أو دهليز من الأرض.

مكان الخلوة

ما سمعنا بهذا الشرط إلا من المصنف، وإلا فالقوم اشتروا العزلة ولم يحددوا المكان.

قال الإمام الغزالي: «إن الشيخ يلزم المرید زاوية ينفردها، ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، فإن أصل الدين القوت الحلال»⁽³⁾ فهذه الزاوية قد تكون في البيت - وهو الغالب في وقتنا هذا - أو في أي مكان لا

(1) قواعد التصوف - الشيخ أحمد زروق (ص 6 قاعدة رقم 112).

(2) عوارف المعارف للسهروردي ص (220).

(3) إحياء علوم الدين - حجة الإسلام الإمام الغزالي (ج 1 ص 66).

يتشوش به باطن المرید بالناس والنظر إليهم والحديث معهم، ثم إنها ثلاثة أصناف:

الصف الأول: خلوة القلب دون الجسد، وهذا حال العارفين الواصلين فلا يضرهم الاختلاط بالغير بأجسامهم، إذ قلوبهم دائمة التعلق بالله، مواظبة على ذكره حتى إنه قبل لأحد هؤلاء: اذكر الله فقال: ومتى نسيت حتى أذكره.

الصف الثاني: الخلوة بالجسد دون القلب، وهي التعرض لفتحات الله دون مواضع رحمته.

الصف الثالث: الخلوة بالجسد والقلب، وهي حال المرید الصادق في بداية أمره، إذ يحاول جاهدا دفع الوسوس والافكار عن قلبه حتى يتحقق حاله بالمقام. وكما قلنا: لم يشترط السادة الصوفية مكانا معينه للخلوة، وهو أمر متروك لرأي الشيخ ومعرفته بظروف المرید ومقدرته على جمع نفسه على الذكر، فإنه إن خلا القلب من الذكر لحظة كان ذلك نقصانا.

مدة لا تزيد عن الأربعين ليلة ولا تقل عن عشر ليال، مستدلين على مشروعيتهما بتحديث النبي ﷺ قبل البعثة بغار حراء، حيث كان ﷺ يخلو بغار حراء الليالي ذوات العدد، كما جاء في الصحيح، وعلى مدتها بمواعدة الله تعالى نبيه موسى أربعين ليلة، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وبحديث (من صلى في مسجد جماعة أربعين ليلة لا يفوته الركعة الأولى في صلاة العشاء كتب الله له عتقا من النار)، أو باعتكاف النبي ﷺ عشر ليالي في رمضان التماسا لليلة القدر.

نعم كل هذا صحيح بشرط الإخلاص.

قال سفيان الثوري: « كان يقال: ما أخلص عبد الله أربعين صباحا إلا أنبت الله سبحانه الحكمة في قلبه، وزهده الله في الدنيا، ورغبه في الآخرة، وبصره داء الدنيا ودواءها »⁽¹⁾.

فالإخلاص أمر ضروري وأصل من أهم أصول الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: 5).

ثم إن القوم في خلوة مع ربهم دائمة، وإن الأربعين واستكمالها له أثر معلوم ومعروف ومشاهد وملحوس في ظهور مبادئ بشائر الله تعالى وسنوح مواهبه السنية.

وللخلوة عندهم شروط بلغوا بها ستة وعشرين شرطاً ذكرها صاحب الرماح التجاني نقلاً عن الوصايا القدسية والخلاصة المرضية.

إن التجاني رضي الله عنه ليس هو صاحب الرماح، بل صاحبها هو عمر الفتوي، وقد نبهنا على هذا التدليس مراراً، ثم إن كل ما نقله عمر الفتوي هو اجتهاد لصاحب الوصايا القدسية، وقد درج العلماء على الاجتهاد للتوفيق بين ضرورات الحياة والمجتمع المتجددة دائماً وعقول الناس، وفهمهم للشرعية الإسلامية الغراء، وكل مجتهد مأجور إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد.

وإن تعجب فعجب أن يعترض على ما لا يعترض عليه.

والمقصود من وراء تلك الشروط، إذا لم يف المريد بها ولم يأت بها على الوجه الأكمل، لا يتم له مراده من الوصول إلى الله تعالى حتى يصبح من أهل الكشف والمعرفة اللدنية.

(1) عوارف المعارف - للسهروردي ص (221).

المراد من دخول الخلوة

من الجهل الذي ما بعده من الجهل شيء ربط رضوان الله تعالى ورحمته بشروط وقوانين، فالمصلي مثلاً وإن أتى بكل فرائض الصلاة وسننها ومندوباتها ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة في الصلاة إلا أتى بها، لا يستطيع أن يجزم بقبولها أو ردها، ولا يزيد على الدعاء بالقبول وحسن الظن، وقس عليه الصائم والحاج والمعتصر والمتفكر في آيات الله والمتصدق وما إليها من أنواع العبادات، وعليه فلا دخل للشروط في شيء إلا إحسان العمل والإتيان به على الوجه المطلوب والأكمل، كأن يقال للمصلي: أحسن الركوع والسجود والقيام والقراءة لتأتي بالصلاة على أكمل ما طلب منك، لا لتلزم الله سبحانه بقبولها، كذلك ما اجتهد فيه صاحب الوصايا إذ هو من شروط صحة وكمال العمل، لا من شروط قبوله كما أوهم المصنف.

ثم إن ليس المراد من الخلوة أن يصبح المختلي من أهل الكشف والمعرفة أو غيرها، بل المقصود هو تحقيق العبودية والمراقبة لله تعالى، قال السهروردي: «ليس مطلوب القوم من الأربعين شيئاً مخصوصاً لا يطلبونه في غيرها، ولكن لما طرقتهم مخالفات حكم الأوقات أحبوا تقييد الوقت بأربعين، رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم، فيكونوا في جميع أوقاتهم كهيئتهم في الأربعين»^(١).

ففائدة الخلوة هي السلامة من آفات اللسان والنظر والقلب وصحبة الأشرار، وصيانة النفس والدين، والتفرغ للعبادة والذكر ووجدان حلاوة الطاعات، والتمكن من المعرفة والارتقاء بهذه الأحوال لتصير مقاماً، وأما ما يحصل للمريد من معارف في الخلوة ومكاشفات فهذا من فضل الله تعالى، وكما قلنا سابقاً: إن الوصول لله تعالى هو الوصول إلى العلم به.

والشروط المذكورة أكثرها صالح ومعقول، وذلك كأن يقوي المريد نفسه على السهر والذكر وقلة الأكل والشرب والعزلة، وكملاً لزمه الطهارة والصلاة والصيام.

(١) عوارف المعارف للسهروردي ص (207).

كان الأخرى بالمصنف وهو يعرف أن أكثر الشروط التي اجتهد في ترتيبها واستنباطها صاحب الوصايا القدسية صالح ومعقول، ألا يعترض على القليل غير الصالح، إذ ربما - وهو الحق - ليس بهذه الصفة إلا في نظره، والرجل غير معصوم بالضرورة، ثم إننا لو سلمنا على سبيل المجازة للمصنف بأن بعض الشروط غير صالحة، أليس من الخطأ أن نتخذ من بعض الأخطاء غير المتعمدة ذريعة لحرق الأخضر واليابس.

ولكن هناك شروط فاسدة وباطلة، وهي المقصودة بالذات من الخلوة عند واضعي هذا الأصل للإضلال والتغريب والتضليل، ومن تلك الشروط الفاسدة ما يلي:

يبدو أن المصنف - أسعده الله - قد أوتي علم الغيب والاطلاع على مكنون سرائر الخلق، وإلا لم يكن ليجزم بأن هذه الشروط هي المقصودة بالذات عند واضعيها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: 36).

١) قولهم في الشرط الرابع: أن يدخلها (الخلوة) كما يدخل المسجد، مستعينا مستمدا من أرواح مشائخه بواسطة شيخه، ووجه الباطل في هذا الشرط: أن الاستمداد سواء كان بركة أو عوناً أو فتحة لا يكون إلا لله تعالى الذي بيده كل شيء، وقدير على كل شيء، أما أرواح المشائخ أو روح شيخه فإنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئاً، فكيف يطلب منها مدداً ليس في حوزتها ولا في استطاعتها، ومن هنا كان هذا الشرط باطلاً لأنه دعوة إلى الشرك، وتقرير له بأسلوب المكر والخداع.

عودة للمقدرة بالله

لقد قلنا سابقا: إن استمداد المريد من شيخه أو مشائخه لا على جهة الاستقلال عنه سبحانه، ولا يخطر على قلب مسلم مثل هذا، ولكن على أنهم مستمدون من الله تعالى، وقد بينا في حينه الأمر على أكمل وجه فليراجع.

قولهم في الشرط السادس: وليشتغل بالذكر حتى يتجلى له مذكوره وهو الله تعالى في زعمهم قطعا، فإذا أفناه عن الذكر فتلك المشاهدة، والضلال في هذا الشرط الفاسد هو اعتقادهم أن الله تبارك وتعالى يتجلى للذاكر حتى يفنيه فيه، وبذلك تحصل له المشاهدة لذات الرب أو أنواره جل وعلا.

وهذا كذب وباطل، إذ الرب تعالى لم يتجل لأحد من خلقه في الأرض، وقد تجلى تعالى للجبل فجعله دكا وخر موسى طالب الرؤية مغشيا عليه، فلما أفاق قال: ﴿سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فانظر إلى الدجل والكذب الوصفي في هذه وفي غيرها، وما قام طريق القوم إلا على مثل هذا الكذب والافتراء على الله وعباده، والعباد بالله.

على غير ما يرى المصنف، ما قام طريق القوم إلا على الحق والصواب والصدق والإخلاص وتحقق العبودية لله تعالى، والباطل عند غيرهم كما سيتضح.

رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة

قد أجمع أهل السنة والجماعة على رؤية الله تعالى في الآخرة لعدة أدلة جاءت في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، كقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: 22، 23)، وقوله تعالى في حق من سخط عليهم: ﴿كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ (المطففين: 15).

وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته»^(١)، وأما كيفية هذه الرؤيا وهل هي بالعين أم بقدره تضاف إلى العين العادية أم بغيرها، فقد قيل في هذا الكثير مما لا يستوعب المجال لذكره، فاتفق على الرؤية واختلف في الكيفية.

وخالف المعتزلة أهل السنة والجماعة ونفوا الرؤية في الآخرة تمثيلاً مع مذهبهم، وفي المسألة خلاف بينهم ونزاع، واعتقاد أحد الرأيين لا يستوجب الكفر أو الردة، وغاية ما قيل في المعتزلة من أهل السنة لخالفهم هو الفسق أي الخروج عن الصواب.

رؤية الله تبارك وتعالى في دار الدنيا

وهذا أيضاً أمر وقع فيه نزاع حتى بين الصحابة رضوان الله عليهم أنفسهم ولكل أدلته، فقد جاء في الحديث عنه ﷺ: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»^(٢).

وقال بامتناع الرؤية السيدة عائشة أم المؤمنين، كما في حديث مسروق المشهور واستدلها بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: 103).

وذهب الأكثرون بزعامة ابن عباس ومعه جمهور الصحابة إلى أن السمع قد دل على جواز رؤية الله تعالى في دار الدنيا، ومن أهم أدلتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (الأنعام: 60)، وحديث الإسراء والمعراج.

ثم أجمع معظم من جاء من العلماء بعدهم والأئمة في القرون الخيرية الأولى على إمكان رؤية الله سبحانه وتعالى في دار الدنيا وقالوا بأن الرسول ﷺ رآه في المعراج، وأما الآية التي استدلت بها المصنف على عدم إمكانية رؤية الله تعالى في

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

الدنيا وهي: ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ۚ ﴾ (الأعراف: 143) فقد قال أهل السنة والجماعة: (إنها دليل على الرؤيا لا العكس لسببين:

الأول: أن موسى عليه السلام لم يطلب رؤية الله عز وجل إلا وهو يعلم أنها ممكنة للوقوع والحصول، ومن غير الجائر أن يتصور إمكان مثل هذا الأمر، وهو مخطئ في تصوره، فذلك مما لا يتفق مع كمال الأنبياء وعصمتهم وما أكرمهم الله به من علم وإلهام ومعرفة للحقيقة.

الثاني: أن الله تعالى علق رؤيته على شيء جائز وهو استقرار الجبل، إذ هو أمر ممكن في ذاته ضرورة كما هو معلوم، وما علق على الممكن لا بد أن يكون هو أيضاً ممكناً^(١).

وفسر الزمخشري وهو من شيوخ المعتزلة (لن تراني) بالنفي المؤبد لينفي الرؤية في الدنيا والآخرة لتتفق مع قولهم، ولم يذهب هذا المذهب غيره.

والمسألة مشروحة في كتب الاختصاص بتوسع، ونحن لا نستطيع أن نبسط القول فيها طلباً للاختصار، ولا يفوتنا قبل أن نخرج من الموضوع أن نعلم المصنف أنه يجب عليه على الفور لا التراخي الاستغفار والتوبة لله تعالى من ادعائه أن القول برؤية الله تعالى في الدنيا دجل وكذب وافتراء، إذ إن القائل بهذا هم أكثر الصحابة رضوان الله عليهم، ومعلوم ما في هذا من الخطورة، اللهم إلا إن كان يرى نفسه أعلم من ابن عباس حبر الأمة أو أكثر إيماناً من الصحابة، وقد قلنا سابقاً: إن السخف يكمن في إلقاء الكلام وسوقه على عواهنه بدون علم أو حتى ترو على الأقل.

(١) الجلال الداوني ج 2 ص (١٦٦)، المسائل الخمسون للرازي ص (372)، كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد البوطي ص (١8١).

5) قولهم في الشرط الثامن : ثم يجعل خيال شيخه بين عينيه فإنه رفيقه في طريقه وهو بمعناه وروحانيته ، فإن من هو شيخ حقيقة تكون روحانيته رفيقه ومتعلقه بروحانية كل واحد من مريديه وإن كانوا ألفاً . فتأمل أيها القارئ البصير كيف يتلطف واضع هذا الضلال في التدرج بالعبء إلى ساحة الكفر ، حيث يجعل من الشيخ روحه والمعبر عنها بالروحانية مع كل روح من أرواح مريديه حتى ولو كانوا ألفاً ، أليس هذا هو معنى قوله تعالى في علمه وإحاطته وقدرته : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (سورة المجادلة : 7) .

القول الصائب في انتفاع المريد بالشيخ الغائب

إن في استحضار خيال الشيخ بين عيني المريد سر لطيف يدركه الذين قاسوا المجاهدة وتهذيب النفوس وقطعها على الباطل ، فإن المريد إذا وضع خيال الشيخ بين عينيه كلما هم بمعصية الله تعالى استحي من شيخه ، ثم ومع الترقى في مقامات المعرفة يعرف سذاجة حيائه من شيخه دون الحياء من الله تعالى ، فيراقب الحق سبحانه وتعالى ، قال رجل : يا رسول الله ! أوصني ، قال :

«أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي رجلاً صالحاً من قومك»⁽¹⁾ .

وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : « اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، وكان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله »⁽²⁾ .

(1) الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر العسقلاني ج 2 ص (50) ترجمة رقم (3292) وجزء (2) ص (242) ترجمة رقم (4397) .

(2) انظر كتاب الروح لابن القيم - ص (8) ، وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات أن القائل هو الصحابي أبو الدرداء ، وكان عبد الله بن رواحة خاله .

وأما تعلق روحانية الشيخ بروحانية المريد فقد قلنا مرارا: إن هذا لا يصدر على جهة الاستقلال، بل هو بإقدار الله تعالى وإمداده وإيجاده.

قال ابن عطاء السكندري: «سيحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد الوصول إليه»⁽¹⁾.

قال أحمد زروق شارحا: «من شأن أولياء الله تعالى الاهتمام وحسن الإخاء والفتوة، والله تعالى يعين بهم إذا شهدوا، وينوب عنهم إذا فقدوا، فلذلك قيل: إن الولي إذا أراد أغنى، وقد استقر بي صحيحا أنه ما خالط أحد معتقدا قط إلا نفعه الله تعالى منه بنيته على قدر همته، كما قيل على قدر أهل العزم تأتي العزائم»⁽²⁾. فإذا ما تعلق روح المريد بروح الشيخ، فإنه يحدث بينهما من الألفة والمودة ما لا يدخل تحت قياس.

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد تتناسب الروحان، وتشتد علاقة إحداهما بالأخرى، فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه، وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب»⁽³⁾.

قال أبو تمام في شاعر يسمى يوسف السراج:

فلو نيش المقابر عن زهير لعول بالبكاء والنحيب

هذا وإن كانت الخلوة تحمل في بعض شروطها الكفر والضلال، فإن البعض الآخر يحمل البدع والإحداث وهذا بيان ذلك:
1- أن تكون الخلوة مظلمة وهو شرط ما أنزل الله به من سلطان، وكثيرا ما يتسبب ظلام الخلوة في اختلاط المريد، فيخرج منها كالجئون في نطقه وتفكيره وسائر عمله.

(1) متن الحكم العطائية - ابن عطاء الله السكندري.

(2) شرح الحكم - أحمد زروق ص (245).

(3) كتاب الروح لابن القيم ص (32).

لا يجب أن تكون الخلوة مظلمة، ولكن إن خاف الشيخ على المريد أن يشتغل بما يقع عليه ناظره عن الذكر فوَقْتُهُ فقط يأمره بالذكر في مكان مظلم، حتى يتمكن من جمع نفسه على ما يذكر، إذ ليس المطلوب هو ترديد الألفاظ، بل التفكير والتأمل صحبة الذكر، وإن قدر المريد على ذلك فلا موجب للظلمة، وأما خروج المريد كالمجنون في النطق والتفكير من أثر الظلمة فهذا - لعمر الحق - استنتاج غريب وعجيب، إذ لا شك أن سكان القطب قبل اكتشاف الكهرباء لم يكن فيهم عاقل واحد، إذ كانوا يعيشون نصف عام تقريباً في ظلام مستمر.

والذي عرفناه نحن بالتجربة أن المريد يخرج من الخلوة وقد ازداد عقلاً وعلماً، تتفجر الحكمة على لسانه، وتفيض على جوارحه، وقد أقام الشيخ الجزولي جامع دلائل الخيرات نحو من أربعة شعر عاماً في الخلوة بإشارة من شيخه محمد امغار الصغير، وخرج منها أكمل حالاً، وأعلى همة، وأفخر مقاماً^(١).

وقضى الشيخ على البكو في مدينة زليتن عدة سنين في الخلوة، فما زاد رحمه الله إلا شرفاً وفضلاً، وقبل كل هؤلاء قضى رسول الله ﷺ الليالي ذوات العدد في غار حراء مختلياً فخرج على الإنسانية كافة بخير الدنيا والآخرة.

وما علمنا أن الظلمة تنتج الجنون إلا على زمان المصنف وببركة علومه النيرة.

2- دوام السكوت طيلة ما هو في الخلوة، وقد نهى رسول الله ﷺ على ذلك في حديث أبي إسرائيل.

عودة إلى العلوم نورون

للمصنف مزايا عدة، من بينها إن لم يكن على رأسها الاستدلال بالأحاديث

(١) مناقب الإمام الجزولي - للشيخ حسنين بن مصطفى غانم ص (١٥).

النبوية الشريفة في غير محلها، وحديث أبي إسرائيل الذي أشار إليه، رواه البخاري باللفظ الآتي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

«بينما النبي ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم، فسأل عنه؟ فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه».

وكما هو واضح لكل من يعرف اللسان العربي ولو كان آخرسا أن الموضوع موضوع نذر من النذور التي لا يقرها الإسلام، لما فيها من تعذيب النفس، والله سبحانه غني عن تعذيب العباد لأنفسهم، فأمره الرسول ﷺ بقطع ما لا يباح فعله من صمت وقيام في الشمس، وأمره بإتمام المباح وهو الصوم، بينما المريد في الخلوة مداوم على ذكر الله بصوت مسموع، بل ولا بد له من الخروج إلى المسجد للصلاة، أو على الأقل يأتيه من يصلي معه جماعة في خلوته، ويجب عليه حضور صلاة الجمعة.

قال السهروردي: يقعد - المريد - في موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ، فإن وجد تفرقة في خروجه يكون له شخص يصلي معه جماعة في خلوته، ولا ينبغي أن يرضى بالصلاة منفردا البتة، فترك الجماعة يخشى عليه آفات⁽¹⁾.

وهو في كل هذا يلقي السلام على من يمر عليه، ويرد عليه السلام، وما إلى هذا من الأمور المعروفة.

بل وحتى لو صمت عن كل ما سوى ذكر الله تعالى فلا يصدق عليه النهي الذي جاء في الحديث المذكور، لأنه لم ينذر نذرا شرعيا أو غير شرعي، وباستطاعته الكلام متى أراد، بعكس صاحب النذر، ولا مجال للمقارنة بأي وجه.

3) أن تكون الخلوة بعيدة عن حس الناس وأصواتهم، مما أدى بهم إلى جعلها تحت الأرض كالداهليز المظلمة، وهذه الوضعية بدعة منكرة.

(1) عوارف المعارف - للسهروردي ص (222).

لقد تكلمنا عن الدهاليز المظلمة والسراديب والأنفاق، وقلنا: إنها لا وجود لها إلا في عظيم علم المصنف - زاده الله علما - وحتى إن وجدت فمن باب عدم السكون لغيره أو الأنس بسواه تعالى، وأما البعد عن الناس، فقد علمت أن حضور صلاة الجمعة والجمعة شرط عند القوم على المختلي، مما يجعل الخلوة في موضع قريب من المسجد ما أمكن، ثم إننا لم نعلم حتى الآن أن القرب من الناس -خصوصا في زماننا هذا - فضيلة يحرص عليها، وما أشبههم بالدواء، لا يزداد فيه عن الحاجة.

قال رجل: «أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، قال: ثم من؟ قال: ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه»⁽¹⁾.

وقال ﷺ: «من خير معاش الناس رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كلما سمع هيعه أو فزعه طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعبة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»⁽²⁾.

فيا هداك الله أرشدنا إلى ما في الاختلاط بالناس في هذا الوقت من خير، فإنه لا يجوز كتم العلم.

4) أن لا يفكر المرید أثناء خلوته في معنى آية قرآنية أو حديث نبوي، بدعوى أن ذلك يشغله عن الواردات الحقيقية التي يطلبها بالذكر والخلوة، وهذا الشرط فاسد لا يقر عليه الشرع أبدا، لما فيه من النهي عن طلب العلم والمعرفة من الكتاب والسنة.

(2) رواه مسلم.

(1) متفق عليه.

باللشرع الذي يقر منه المصنف ما يشاء ويحذف ما يريد .

لا داعي لكل هذه الضوضاء، فقبل وبعد الخلوة التي هي عبارة عن أيام معدودة عادة، يستطيع المريد أن يطلب العلم كيف ومتى شاء له، فهل يا ترى إن ترك طلب العلم في هذه الأيام بعينها أصيب بالويل والثبور وعظائم الأمور؟ وهل يوجد من يطلب العلم طوال عمره بدون انقطاع ولو أيام معدودة، هذا إذا سلمنا أن السبيل الأمثل للعلم هو دراسة وحفظ المنقول فقط دون تأمله والغوص فيه بحدة الذهن .

ثم إن مثل هذه الخلوة هي حافز للمريد على طلب المزيد بعد خروجه، ونحن نشاهد اليوم طرق التدريس الحديثة تضع في حساباتها إعطاء التلاميذ شهوراً من الراحة والاستجمام والفراغ بين كل فصل دراسي وآخر، لما للراحة من أثر مقو، وتجديد للنشاط في التحصيل، وكذلك الأمر بالنسبة للخلوة، فهل هذه الأيام هي التي منعت المختلي من الوصول إلى درجة العلماء .

ثم هو الأهم، ما كان السادة الصوفية ليهتموا بتحصيل العلوم الكسبية .

نعم هي ضرورية في أول الطريق، إذ لا تحسن العبادة إلا بها، ولكنها ليست غاية في ذاتها، فإن الله تعالى يقذف في قلوب من أراد من عباده بعلوم وهبية من عنده .

قال الحاتمي : « فإن المتأهب الطالب للمزيد المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود إذا لزم الخلوة والذكر، وفرغ المحل من الفكر، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربه، حينئذ يمنحه الله ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعرف الربانية»⁽¹⁾ .

ويؤكد الشيخ محمد عبده رحمه الله هذا الأمر بقوله : « أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه

(1) الفتوحات المكية - الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ج ١ ص (31).

من الأنس بما يقارب تلك الحال، في النوع والجنس لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء في عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن ذاق عرف ومن انحرف حرم»⁽¹⁾.

نسأل الله ألا نكون من المنحرفين المحرومين.

ومثل هذا العلم، فليطلب ويسعى في تحصيله، قال الإمام مالك رضي الله عنه: «لا يصلح أمر الرجل حتى يترك ما لا يعنيه، ويشغل بما يعنيه، فإن كان كذلك أوشك أن يفتح الله له قلبه»⁽²⁾.

وقال: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يضعه الله في القلب»⁽³⁾.

5) أن لا يدخل المريد الخلوة، ولا يخرج منها إلا بإذن الشيخ المربي، وأن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي غاسله، لا يفرح ولا يعترض أبداً، وفي هذا قتل لشخصية المسلم، وهدر لكرامته، وسلب لإرادته، وهذا لا يحل فعله بالمسلم أبداً.

رغم العبارات الطنانة الرنانة عن هدر الكرامة، وقتل الشخصية، فإننا تحدثنا عن المعنى بطاعة الشيخ في أكثر من فصل سابق.

6) دوام ربط القلب بالشيخ بالاعتقاد والاستمداد، إذ هو الذي عينه الحق سبحانه وتعالى للإفاضة على المريد، ولا يحصل له الفيض إلا بواسطته دون غيره ولو كانت الدنيا كلها مملوءة بالمشايخ، إذ متى يكون في باطن المريد تطلع إلى غير شيخه لم يفتح باطنه إلى الحضرة الوجدانية.

(1) رسالة التوحيد - الشيخ محمد عبده ص (106).

(2) 3 - 2) مالك بن أنس - عبد الحليم الجندي ص (79 - 105).

فانظر أخي المسلم البصير كيف جعل الشيخ إلهاً ثانياً للمريد، حيث أمره أن يعلق قلبه دائماً به بالاعتقاد والاستعداد.

يبدو أن المصنف لا يهمه إلا تكثير السواد، وإلا فكل هذا سبق وأن تحدثنا فيه فليراجع.

وانظر كيف حجبوا على المسلم أن يطلب العلم من غير شيخ الطريقة ولو كانت الدنيا كلها مشائخ.

لغيرك الجهل أيها المصنف.

في أي شرط من الشروط التي ذكرتها وجدت حجر المسلم عن طلب العلم من غير شيخ الطريقة، نرجو أن تراجع ما كتبته بخط يدك، وأضف إليه أنه لا يوجد أي ربط بين شيخ العلم وشيخ التصوف، فقد يتلقى المريد العلم على مئات العلماء كما هو مذكور في تراجم الصوفية، ويسلك الطريق على يد شيخ مرب آخر غير هؤلاء.

نعم يكون شيخ الطريقة عالماً، وقد يتلقى المريد على يديه علماً من العلوم كالحديث أو التفسير أو اللغة، ولكن في إطار علمي بحث، كما في العلاقة بين أي معلم وتلميذه، وقد بينا أن أهمية الشيخ لا تنحصر في إلقاء وتدريس العلم بقدر ما هي تعهد قلب المريد بالتنقية من ذميم الصفات، كالبخل والتبذير والعبادة على حرف، والمداينة والجور واتباع السبل الضالة والسرف والإقتار وحب الأشرار، والتنافس المذموم والأنس بغير الله تعالى، وطول الأمل وحب العلو والتطير والسخط والطيش، وإرضاء الناس بسخط الله، والإصرار على الذنوب وخوف الفقر والجفاء والشماتة بالمسلم، واحتقاره واتباع غير سبيل المؤمنين، وسوء الخلق وقطع الرحم وعقوق الوالدين، والصد عن سبيل الله واتباع المشابه والغلظة والفظاظة، ونسسيان الذنب واتخاذ الكافر ولياً، والقنوط من رحمة الله، والتكذيب بالقدر والابتداع والتقاطع واليأس من روح الله والأمن من مكر الله، والإعراض عن الذكر وطاعة الهوى والتكلف والغلو وقبول السعاية، والهلع والجزع والفرح والركون إلى

الدنيا، واتباع خطوات الشيطان والنفاق والرياء والحمية لغير الله ومفارقة الجماعة والحرص والظلم والغرور والغفلة وكفر النعمة واتباع الظنون، وحب المدح وكراهة النصيحة والشقاق والتسوية بالتوبة والانتكال على غير الله، وعدم قبول العذر وإعانة المبطل وصحبة الجاهل والتجبر على الخلق، والمكر وقلة الرحمة ومشاقة الله والرسول، والتعاون على الإثم والعدوان والوهن لأعداء الدين والحمد بما لم يفعل، ولبس الحق بالباطل والشح وتركبة النفس والتفرق في الأهواء شيعا، والبغي والغدر ونقض العهد واللهو.

ومن ثم زرع نقيض هذه الأوصاف محلها.

وانظر كيف كذبوا على الله تعالى يقولهم: إن الشيخ عينه الحق سبحانه وتعالى للإفاضة على المريد، من أعلمهم أن الشيخ عينه الله للإفاضة على المريد؟ وبماذا يفيض الشيخ على المريد؟ سبحانه الله لهم هذا بهتان عظيم، هذه هي الخلوة التي لم تعد أن كانت شبكة لصيد الرجال لاستعبادهم واستغلالهم بقتل شخصيتهم وإفساد عقولهم وقلوبهم والهبوط بهم إلى مستوى الدراويش.

والسؤال الآن: هل الإسلام وهو دين التربية الكاملة للعقول والأرواح والأخلاق جاء بالخلوة، وربى بها، ومن يثبت ذلك بسند صحيح إلى رسول الله ﷺ.

حيا وكرامة:

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث - أي يتعبد - الليالي

ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء»⁽¹⁾.

قال القسطلاني شارح الصحيح: «أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحي الرؤيا الصالحة، ثم حيب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء كما مر، فدل ذلك على أن الخلوة حكم مرتب على الوحي، لأن كلمة «ثم» للترتيب، وأيضاً لو لم تكن من الدين لنهي عنها، بل هي ذريعة لمجيء الحق وظهوره المبارك⁽²⁾.
والآن هل يستطيع المصنف أن يأتي بما يثبت عدم مشروعية الخلوة بسند صحيح إلى الرسول ﷺ.

أو إلى أحد أصحابه.

حبا وكرامة:

قال قيس بن بشر: «أخبرني أبي وكان جليساً لأبي الدرداء قال: كان بدمشق رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له ابن الحنظلية، وكان رجلاً متوحداً، فلما يجالس الناس، وإنما هو في صلاة، فإذا فرغ فإمّا هو في تسبيح وتكبير حتى يأتي أهله قريباً، ونحن عند أبي الدرداء»⁽³⁾.

أو التابعين لهم بإحسان.

(1) رواه البخاري.

(2) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - للقسطلاني ج 1 ص (63).

(3) رواه أحمد، وأبو داود، وابن الحنظلية صحابي شهد بيعة الرضوان، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ومات في خلافة معاوية.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: « من أحب أن يفتح الله عليه ويرزقه العلم فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب »⁽¹⁾.

نعم لم يلق الإمام الشافعي رحمه الله أيما من الصحابة، إذ ولد في 150هـ، وآخر الصحابة وفاء وهو عامر بن واثلة توفي في 110هـ، وقيل في 107هـ، ولكننا اخترنا قوله بالذات للإجماع على فضله وتقدمه على أهل عصره وجلهم من التابعين.

إن الإسلام بريء من هذه الخزعبلات والترهات والأباطيل، لأنه دين حياة وسعادة وكمال، نعم في الإسلام سنة الاعتكاف في المساجد في رمضان طلبا لليلة القدر، وفي الإسلام الاعتزال إذا ساءت أحوال الناس وخاف المسلم الفتنة في دينه، أبيح له أن يعتزل الناس فيبقى في منزله أو مزرعته أو في باديته يرعى غنمه كما جاء في حديث البخاري: سيكون في آخر الزمان خير مال الرجل المسلم شويهاة يتبع بهن شعاف الجبل ومواقع القطر فرارا بدينه».

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، وأجرنا من قول الكلام ونقيضه في نفس واحد.

أما السراديب المظلمة، والدهاليز الموحشة، فإنها لقتل الأرواح، وإفساد العقول والقلوب، وهذا من كيند أعداء الإسلام لأهل الإسلام والعياذ بالله تعالى.

(1) بستان العارفين - للمحدث الحافظ النووي ص (47).

قلنا مرارا وتكرارا حتى ما عدنا نطبق الإعادة: إن التهويل والضوضاء ليست من الأدلة العقلية أو النقلية، أما الدم فإنه لا ينبغي لمسلم أن ينطق به في حق أخيه المسلم، ونختم الحديث عن الخلوة بفائدة سلفية عن ابن القيم رحمه الله حيث يقول: «من فقد أنسه بالله ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقدته بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله، ومن كان فتحه من الخلوة لم يكن مزيده إلا منها»⁽¹⁾.

فيا سعد حدثني بأخبار من مضى فأنست خبير بالأحاديث يا سعد واللبيب تكفيه الإشارة.

الأصل السادس

الكشف... إن الكشف وإن كان أحد أصول الطرق الصوفية فهو في الواقع غاية لما يصبو إليه المريد، ومن أجله قبل الخلوة، وحشر نفسه فيها، وأطرح بين يدي الشيخ متخليا عن كل شيء حتى إرادته في سبيل الحصول على أن يصبح من أهل الكشف.

لقد تحدثنا عن الخلوة وقلنا: إن الهدف منها هو تصفية باطن المريد من الأكدار، فمن عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال وهو من أهم الأصول، لا تكاد تخطئ له فراسة، والخلوة إحدى الطرق المؤدية إلى التحقق بهذه الصفات.

أما ما قاله المصنف - غفر الله له - عن العقل وغيره، فهذا في الواقع ليس بغريب بعد أن رأينا طريقته المتميزة الرشيدة في الاستدلال، ونسي - علمه الله -

(1) كتاب الفوائد - ابن قيم الجوزية ص (43).

أن الامتنال لأمر الشيخ في كل ما فيه طاعة لله ورسوله ﷺ هو اقتداء بما كان عليه الصحابة مع النبي ﷺ، فلو سلمنا له قوله: «إن كل من أطاع أحداً في طاعة الله يتخلى عن إرادته وعقله» لقادنا هذا إلى نتائج لا تسئل عن فسادها ﴿وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور: 52).

وللعلم فإنه إذا دخل المريد الخلوة لأجل أي مطلب سوى الله تعالى لن يكون حظه منها إلا تضییع الوقت، وكفى بمطالب النفس حجاباً عند أهل الشأن، والقوم يحاسبون أنفسهم على ما لا يحوم طائر ذهن المصنف على مقدار وزن الذرة منه.

قال أبو محمد المرتعش رضي الله عنه: «حجبت كذا وكذا حجة على التجريد، فبان لي أن جميع ذلك كان مشتبهاً بحظي، فإن والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جرة ماء، فشغل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحاجات كان بثوب وحظ نفسي، إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع»⁽¹⁾.

فكيف يرضون بأن يكونوا عبيد سوء، يطلبون على ذكركم ومراقبتهم مولاكم أجراً من كشف أو سواه.

وحقيقة الكشف عند المتصوفة: هي أن يكشف القلب من أنوار الغيوب ما ينال به الصوفي من المعارف ما لا يناله العقل منها.

وإن شئت قلت: إن الكشف هو مكاشفة اليقين، ومعاينة الغيب، وإن شئت قلت: هو صدق الفراسة لاقترب القلب من حضرة الحق، وإن شئت قلت: هو انعكاس البصر في البصيرة والنظر بنور الله.

قال ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلب نبي آدم لنظروا إلى

(1) شرح ابن عباد على الحكم العطائية - ابن عباد الرندي ص (94).

ملكوت السماء⁽¹⁾، وقال أيضاً: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»⁽²⁾، وقال: «إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم»⁽³⁾.

ووراء مرتبة الكشف مرتبة أخرى هي مرتبة التجلي، وهي أن تظهر الذات الإلهية في عين المظاهر الوجودية، ومن عجيب المغالطات الصوفية أن يقول الشيخ للمريد إذ أدخله الخلوة: لا يكن همك الكشف والتجليات، اصرف قلبك عن ذلك بالمرّة إن القصد هو صفاء روحك فقط، وإن انكشف لك شيء فلا تكتمه عن الشيخ فتكون قد خنته وهو مربيك.

وأخيراً آب المصنف إلى الحق، فسبحان من أنطقه بما كان منذ لحظات يقول بخلافه، وعرف أن مشائخ السادة الصوفية يوصون مرديهم بأن يحققوا المقصد ولا يشتغلون بالكشف وما إليه.

ونضيف أيضاً أن السادة الصوفية يتوارثون تعليم مرديهم عدم الالتفات إلى المكاشفات وما إليها، بل ربما أغلظوا لهم القول إن رأوا منهم ما يشير إلى شعورهم بالتميز عن غيرهم أو الالتفات إلى غير تحقيق العبودية للمعبود سبحانه، ومن فقه الطريق القسوة على المريد في هذه الحالة.

ولنتساءل هنا، ما الذي ينكشف لصاحب الخلوة؟ لا شيء البتة، ولم إذا هذه الطقوس والأوضاع والتراتب الغلوية المبتدعة.

(1) رواه الإمام أحمد بن حنبل.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه البزار، والطبراني بإسناد حسن.

قلنا سابقاً: إن دخول الخلوة لا يكون بقصد الحصول على الكشف وما إليه، ولكن إذا فرغ العبد قلبه من الأغيار امتلأ بالأنوار، فيجد من المكاشفات والإلهامات ما لا يعلمه إلا من أنعم الله عليهم بلذة مناجاته وخطابه، وأقامهم في مرضاته وألزمهم بابه، فسهروا والناس نيام، وراقبوه تعالى وغيرهم في غفلة واجتهدوا في الإخلاص له في أحوالهم كلها.

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالي مجيباً عن سؤال المصنف: «وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصائها واستقصائها، والفدر الذي أذكره لينتفع به: أتني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل ولو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً» (1).

فإن كان سؤال المصنف عما ينكشف في الخلوة لأجل العلم والتعلم، فقد أجابه حجة الإسلام وكفى به فضلاً وعلماً، وإن كان لأجل المعاندة والمكابرة فليس له عندنا جواب.

والملاحظ هنا من تعريف القوم للكشف والتجلي أمران، الأول: إن إدراك ما وراء العقل بواسطة الكشف محال، وهم يرونه من باب الجائز الممكن، وهي مكابرة خادعة، إذ كل ما كان من وراء العقل إدراكه محال، إذ المدركات من سائر الكائنات لا يتم إدراكها فتصورها إلا بالعقل.

(1) المنقذ من الضلال - حجة الإسلام الإمام الغزالي ص (131).

القلب وسيلة المعرفة المثلى

ليس كذلك ولا يكون أبداً، فإن معرفة الحواس ليست يقينية، والعقل له حد معلوم لا يستطيع تجاوزه مهما بلغ من قوة الذكاء وجودة الفهم وحسن الملكة، ولا يوجد سبيل إلى المعرفة القطعية اليقينية الجازمة إلا من مصدر ما بعد العقل، أي القلب، والدليل كتاب الله تعالى الذي حدثنا عن تلقي الأنبياء للعلوم اليقينية غير القابلة للخطأ من هذا السبيل النوراني، بل وقد يكون العقل وأحكامه المعتادة في جهة، وما تلقوه في جهة، كأمر الخليل بذبح ابنه عليهما السلام، وأي عقل الذي يقبل أن يذبح الإنسان فلذة كبده، وثمرة فؤاده الذي رزقه في شيخوخته، وحدثنا أيضاً عن العبد الصالح الذي علم بأمر الملك الذي يأخذ كل سفينة غصبا، وبما سيصير إليه أمر الغلام حين يكبر، وبأمر الكنز المخفي تحت الجدار بطريق العلم القلبي اللدني، لا العقل البشري الذي ومنذ نزول الإنسان على الأرض وحتى يومنا هذا لا زال في تخبطه وحيرته لا يهتدي سبيلا إلا بالرسول والرسالات.

وحدثنا عن إلهامه تعالى لأم موسى أن تقذف ابنها في اليم، وأي عقل هذا الذي يجعل من أم تلقي رضيعها في لجة زرقاء عميقة، وإلهامه تعالى للسيدة مريم أن تهز جذع النخلة، وما كانتا من الأنبياء، إذ لا نبوة لامرأة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ (يوسف: 109).

والدليل الآخر الرؤيا الصالحة، وقد تكون صريحة أو في ثوب رمزي، وما هي إلا إخبار عن غيب يتقاصر العقل عنه ضرورة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن أناسا أروا ليلة القدر في السبع الأواخر، وأن أناسا أروا أنها في العشر الأواخر، فقال النبي ﷺ: التمسوها في السبع الأواخر»^(١).

فأين العقل من تحديد ليلة كهذه، والتحدي لا زال قائما في ما إن استطاع

(١) رواه البخاري.

مخلوق تحديدها بواسطة العقل وحساباته الفلكية ومخترعاته الإلكترونية والآلية، وحتى المشرك قد يعلم المجهول ويرى الغيب بقلبه، كصحابي سجن يوسف الصديق إذ رأى أحدهما أنه يسقى ربه خمرا، والآخر أنه يحمل خبزاً تأكل الطير منه، وهي أحداث مستقبلية.

نعم إن السبيل إلى معرفة ما بعد العقل شيء آخر سوى العقل، إنه الإلهام أو الكشف أو التحديث.

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين: «أن أبا بكر لما حضرته الوفاة دعاها فقال: إنه ليس في أهلي بعدي أحب إليّ غنى منك، ولا أعز علي فقرا منك، وإني كنت نحللتك من أرض بالعالية جداد عشرين وسقا، فلو كنت جدته تمرا عاما واحدا انحاز لك، وإنما هو مال وارث، وإنما هما أخواك وأختاك، فقلت: إنما هي أسماء، فقال: وذات بطن ابنة خارجة، قد ألقى في روعي أنها جارية، فاستوصي بها خيرا، فولدت أم كلثوم»⁽¹⁾.

ترى بأي عقل علّم الصديق رضي الله عنه بموته من ذلك المرض، وبالجنين في بطن أمه، وصاح عمر بن الخطاب وهو يخطب على المنبر بالمدينة بسارية بن زنيم وهو على باب نهاوند، وبينهما آلاف الأميال «يا سارية الجبل» فسمع سارية وجيشه صوت عمر فلجأوا إلى الجبل ونجوا وانتصروا⁽²⁾.

ومر به رجل فقال له: «ما اسمك؟ قال جمرة، قال ابن من؟ قال: ابن شهاب، قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: أين مسكنك؟ قال الحررة، قال: فبأيها؟ قال: بذات لظى، فقال: عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، فرجع فوجد أهله قد احترقوا»⁽³⁾.

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص195) الجذ: انتقاء الثمر، الوسق: ستون صاعا.
(2) رواء البيهقي في دلائل النبوة، وهو حديث حسن، قال الذهبي عن كتاب دلائل النبوة: «عليك به فإنه كله هدى ونور»، والحديث موجود في معظم كتب السير والفتوحات.
(3) الموطأ للإمام مالك بن أنس بعدة أسانيد.

وكان إذا حدثه أحد بحديث به كذبته فيعرفها عمر ويقول له :
أمسك هذه ⁽¹⁾.

ودخل على ذي النورين عثمان رضي الله عنه رجل قد لقي امرأة في الطريق فتأملها، فقال له عثمان : « يدخل أحدهم وفي عينه أثر الزنا ».

ودخل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الأكوع بن حمام عائدا، فقال : « كيف تجدك؟ قال : لما بي يا أمير المؤمنين، قال : كلا لتعيش زمانا، ويغدر بك، وتصير إلى الجنة إن شاء الله ⁽²⁾، فعاش زمانا بعد ذلك المرض، وغدر به كما أخبره الإمام علي.

وكان سعد بن عباد رضي الله عنه يغزو سنة، ويغزوا ابنه قيس سنة، فغزا سعد مع الناس فنزل برسول الله ﷺ ضيوف كثير مسلمون، فبلغ ذلك سعدا وهو في الجيش فقال : « إن يك قيس فسيقول يا نسطاس هات المفاتيح، أخرج لرسول الله ﷺ حاجته فيقول نسطاس : هات من أهلك كتابا فيدق أنفه ويأخذ المفاتيح ويخرج لرسول الله ﷺ حاجته، فكان الأمر كذلك وأخرج قيس لرسول الله ﷺ مائة وسق ⁽³⁾.

وقدم رسول كسرى على المسلمين ليفاوضهم على أن يكتفوا بما حصلوا عليه من أرض الفرس، وقال لهم : أما شبعتم؟ فقال الصحابي الأسود بن قطبة : « لا نصالحكم حتى نأكل من غسل أريد بن بابر جكوني ⁽⁴⁾، وهو كلام فارسي ما كان الأسود يعرفه ولا يدري معناه.

وخطب سهيل بن عمرو بمكة لما جاء نعي النبي ﷺ خطبة أبي بكر الصديق التي خطب بها بالمدينة كأنه يسمعها، ومن المعلوم أن بينهما مئتا الأميال.

(1) تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي (ص 127).

(2) الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني (ج 1 ص 120) ترجمة (486).

(3) رواء الدارقطني.

(4) الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني (ج 1 ص 114) ترجمة رقم (456).

فأين العقل من كل هذه المعارف؟ وأي عقل هذا الذي يستطيع الوصول إلى هكذا علوم ومعلومات؟

إنه القلب المستنير بنور المشاهدة والإدعان المطلق والتسليم الراضي، إذا ارتفع عنه غطاؤه اتضحت للإنسان جليلة الحق كأنه عيان، إنها مشاهدة روحية ويفين مطلق نتج عنه المشاهدة بنور المعرفة، فأشرق النور في القلب وانتشر الصدر وتلاّلت فيه حقائق الأمور الإلهية، بعد أن أثبتت الحواس والعقل أنه لا ثقة بها في إعطاء الكلمة الأخيرة في أي موضوع.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: 179)، وقال: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: 37).

ومن الغريب أن ينطق المصنف بهذا الكلام من استحالة إدراك ما بعد العقل مشككا في العقيدة الإسلامية، بل وفي كل الرسائل السماوية، إذ هي ليست إلا تلقيا للعلوم بدون تدخل العقل من قريب أو من بعيد ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: 51).

وهذا عين ما يريد أعداء الدين - وإن كنت أجل المصنف عن هذا وأنسب كلامه إلى الغفلة فقط - وقد سئل الشيخ عبد الواحد يحيى رضي الله عنه في أثناء محاضرة له في جامعة «السربون» بحضور أساتذة وكبراء باريس عن هذا الموضوع ذاته فقال: «سيتساءل قوم من الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها؟ إننا لا نتردد في أن نجيبهم في وضوح واضح ليس ذلك ممكنا فحسب ولكن ذلك واقع موجود» (١).

وبمثل ذلك تكون إجابة العالم البيقظ الفطن الحذر من مكر محاوريه وكيدهم.

(١) قضية التصوف المنقذ من الضلال - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود (ص 254).

وإذا فقد الإنسان العقل انعدم إدراكه لأي شيء على حقيقته وصار يهذي في كلامه ويقول ما لا يعقل .

إن موضوع البحث هو معرفة ما بعد العقل بوسيلة غير العقل، أما من فقد عقله فهو مجنون تسقط عنه التكاليف الشرعية والاجتماعية، وننصح ذويه بحمله إلى أقرب طبيب للأمراض النفسية، والأمر عموماً أجنبي عن موضوع البحث .

والثاني: إن ظهور الذات الإلهية في عين المظاهر الوجودية عندما يتم للمريد التجلي كما يزعمون كذباً وباطلاً، وهو ما يعرف عند أهل العلم بوحدة الوجود .

وهو من أكفر الكفر وأبطل الباطل وأمحل الخال عند علماء الإسلام، إن وحدة الوجود منشؤها التخیلات الباطلة والتصورات الكاذبة التي يلقيها الشيطان في قلوب طالبي الأسرار وكشف الحجب عن القلوب والنفوس، لأجل رؤية الخالق تبارك وتعالى والتلقي عنه بدون واسطة .

وحدة الوجود

لا أظن أنه يوجد في اللغة العربية عبارة فهمت على غير معناها أكثر من عبارة وحدة الوجود .

الأمر ببساطة واختصار شديد، أنه حيث لم يلتفت الناس إلى هيمنة الله تعالى وقيوميته السارية في كل موجود، وإحاطته تعالى بكل شيء، وأنه لا يحدث أمر صغير أو كبير جليل أم حقير إلا بعلمه وقدرته وإرادته وتوفيقه، أعطى ذوو اليقظة والانتباه هذه الأمور ما تستحق من فهم وإدراك وقرأوا كتاب الله فوجدوا فيه: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ

عَلَيْ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ (الحديد: 2، 3).

وَجَالُوا بِبَصِيرَتِهِمْ فِي مَعَانِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ (النجم: 43، 48).

وَتَمَنُّوا بِثِقَابِ فِهْمِ قُلُوبِهِمِ الشَّفَافَةِ فِي قَوْلِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٤) وَتَدَبَّرُوا بِأَنْوَارِ مَشَاهِدَاتِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: 68).

فَلَمْ يَرَوْا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى مُصْرِفًا لِلْأُمُورِ مُدَبِّرًا لَهَا، وَأَنَّهُ الْفَاعِلُ لِمَا أَرَادَ، يُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ وَقَوْلُوبُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى فَصَارَ سَمْعُهُمُ الَّذِي يَسْمَعُونَ بِهِ وَأَبْصَارُهُمُ الَّذِي يَبْصُرُونَ بِهَا، وَأَيْدِيهِمُ الَّذِي يَبْطِشُونَ بِهَا، وَرَأَوْا كُلَّ شَيْءٍ يَبْدَأُ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَيْهِ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفال: 17).

فَإِنْ أَطَاعَهُ الطَّائِعُ فَبِإِزَادَتِهِ وَإِنْ وَافَقَ أَمْرُهُ، وَإِنْ عَصَاهُ الْعَاصِي فَبِإِزَادَتِهِ وَإِنْ عَصَى أَمْرُهُ، فَقَالُوا بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ وَمَا قَالُوا بِوَحْدَةِ الْمَوْجُودِ مِنْ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ وَإِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ وَاللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالْكِنَافَةِ وَاللِّطَافَةِ وَالْجَمَادِ وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالرَّائِحَةِ وَالْمَرْوَحِ، فَهَذَا لَا يَقُولُ بِهِ مُؤْمِنٌ فَضْلًا عَنْ أَهْلِ مَقَامِ الْإِحْسَانِ.

وَمَنْ الَّذِي لَا يَعْتَقِدُ وَحْدَةَ الْوُجُودِ؟

نَعَمْ قَدْ يَكُونُ هَذَا غَرِيبًا عَلَى أَسْمَاعِ الْمُتَشَبِّثِينَ بِالمَادَّةِ الْغَارِقِينَ فِيهَا حَتَّى آذَانُهُمْ، فَارَأَوْا الْأَثَرَ دُونَ الْمُؤَثِّرِ وَالْمَفْعُولَ بِهِ دُونَ الْفَاعِلِ، وَأَمَّا عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَقَةِ، الْعَامِرَةِ قُلُوبِهِمْ بِالْحَقِّ، الْفَانِيَةِ بِهِ حَتَّى عَنِ الْفَنَاءِ، فَالرُّؤْيَا تَتَعَدَّى الْفِعْلَ لِتَرَى الْفَاعِلَ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفال: 17)، وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ، فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ الصُّورِ مَعْذُورٌ وَإِنْ اتَّهَمَ بِالْقَصُورِ، وَمَنْ رَأَى الْمَصُورَ مُجْبِرٌ لَغَلْبَةِ الظُّهْرِ ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس: 107).

وكما يشير إلى ذلك قول رابعة العدوية فتأمله:

أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذاتك عما سواك
وأما الذي أنت أهله فكشفك لي الحجب حتى أراك
فقولها: فكشفك لي الحجب حتى أراك صريح في طلب القوم لرؤية
الرب تبارك وتعالى، وهو طلب الممنوع قضاء وقدرًا وشرعًا، فلما عني
القوم بذلك وطلبوه بالخلوات والأذكار أتاهم الشيطان بتخيلات
وتصورات فبدت لهم الكائنات، وأن الله تعالى قد ظهر فيها، فلا يرون
الله تعالى في زعمهم.

السيدة رابعة العدوية

أولاً: نذكر أن المصنف قال: إن التصوف وجد في القرن الرابع الهجري،
وها هو الآن يحاول أن يقيم حجته المنهارة بنسبة أقوال لصوفية في القرن الثاني، لا
جرم أننا لا زلنا نجل المصنف عن أن يصدق عليه قول الشاعر:

وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب وما يعرض له فهو قاتله

ثانياً: إن هذه الأبيات وإن كان ليس بها ما يخالف الشرع الكريم – خاصة إذا
علمنا أن النص الذي نقله المصنف محرف عن أصله – إذ إن رؤية الله تعالى في
الدنيا قد قال بجواز وقوعها جمهور الصحابة حسب ما قدمنا، إلا أنها ليست
للسيدة رابعة العدوية حسب ما هو مشهور عند العامة وأشباههم، وهي أبيات
مجهولة القائل نسبت للسيدة رابعة على ألسنة العوام والدهماء، بل وحتى عند
بعض ممن يتعاطون الكتابة والتأليف ممن لا يكتبون شيئاً وإن سودوا آلاف
الصفحات.

فالسيدة رابعة توفيت في 135هـ، ومن الطبيعي أن تكون الرواية عنها عن من

عاصرها ثم الذي يليه وهكذا، وإذا نظرنا إلى ترجمة السيدة رابعة عند السراج الطوسي⁽¹⁾ 378هـ، وهو أقرب من كتب عنها زمانا، فإننا لا نجد لهذه الأبيات ذكرا مع اهتمام السراج بكل ما يساعد على إيضاح صورة صاحب الترجمة عادة، وأما الكلاباذي⁽²⁾ 380هـ، صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف فقد ذكر هذه الأبيات ولم ينسبها لقائل، بل شدد في التأكيد على أنها مجهولة القائل، وذكر الزبيدي⁽³⁾ صاحب إتحاف السادة هذه الأبيات ونسبها لسفيان الثوري رضي الله عنه 161هـ، وعبد الواحد بن زيد 177هـ ولم يذكر ابن خلكان⁽⁴⁾ هذه الأبيات في ترجمة السيدة رابعة، ومعظم من ذكرها من الصوفية وغيرهم من المحققين لم يتعرضوا لتسمية قائلها.

وعليه - فيا وفاق الله - نرجو التثبت قدر الإمكان، فإن إلقاء التهم جزافا أمر غير محمود العواقب، ونحن موقوفون بين يدي الله تعالى وسيسأل كل منا عما اجترح، أما في الدنيا فيكفي قول الصادق المصدوق عليه السلام: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع»⁽⁵⁾.

حتى قال أحد أئمتهم وهو الحلاج الذي إذا ذكروه ترضوا عنه
وترحموا عليه.

نعم يجب على المسلم تنفيذ أمر الله تعالى بالدعاء لموتى المسلمين بالرحمة والمغفرة ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ (الحشر: 10).

(1) انظر: اللمع - للسراج الطوسي ص (397).
(2) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف - للمحدث الكلاباذي ص (115).
(3) إتحاف السادة للزبيدي (ج 1 ص 59).
(4) وفيات الأعيان لابن خلكان - تحقيق د/ إحسان عباس (ج 2 ص 285).
(5) رواه مسلم.

قال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا فنحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن منك فإن استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا».

ونحن نقول للمصنف: اتق الله فإنك تكيل التهم لصالح المؤمنين كيل باذر أعشى.

فأولاً: إن السراج الطوسي وهو المعاصر للحلاج رحمه الله ذكر هذه الأبيات ولم يحدد لها صاحباً، بل ولم يذكرها في ترجمته للحلاج، واتباع أصحاب الطبقات من بعده نفس الأسلوب، وآخرهم ابن خلكان، فقد ذكر هذه الأبيات بعد أن قدم لها بقوله: «مثل قول القائل»⁽¹⁾، علماً بأنه توسع في ترجمة الحلاج رضي الله عنه مقارنة بالتراجم الأخرى، ويكاد يكون كل أهل العلم متفقون على أنها مجهول.

ثانياً: إن المصنف - تجاوز الله عن سيئاته - قد أخبرنا في أول كتابه عن تقمص السلفيين وبالطبع هو منهم لشخصية الشيخ ابن تيمية رضي الله عنه، ولكن يبدو جلياً أن هذا التقمص كلاماً فقط لا يعتمد على دراسة كتب ابن تيمية وعلمه وفهم آرائه ووجهة نظره ومنهجه الفكري.

فإن ابن تيمية رحمه الله قد تعرض بنفسه لشرح هذه الأبيات ولم يجد فيها ما وجده المصنف، إذ فهمها كما يفهم العلماء عادة، وأيضاً فإنه لم يحدد لها قاتلاً فقال: «وأما قول الشاعر في شعره:

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان - تحقيق د/ إحسان عباس (ج 2 ص 140).

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي، كاتحاد أحد المحبين بالآخر الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل، وهذا تشابه وتماثل لا اتحاد النعين بالعين، إذ كان قد استغرق في محبوبة حتى فنى عن رؤية نفسه كقول الآخر:

غبت بسك عنسي فظننت أنك أني⁽¹⁾

فأصبح والحال هكذا إما أن المصنف - زاده الله علما - على حق وإما الشيخ ابن تيمية، وأنه لا تقمص سلفي ولا خلفي إلا على الورق.

هذا وإن القوم لم يقفوا عند الحلول والاتحاد، فإن بعضهم قد بلغ الضلال حتى ادعى من ادعى منهم أنه هو الله الرب تعالى، وأنه يقول للشيء كن فيكون، ولنسمع إلى ما ذكر صاحب جواهر المعاني للشيخ عبد القادر الجيلاني إذ قال: وأمري بأمر الله إن قلت كن فيكون.

الشيخ عبد القادر الجيلاني

لقد تكلمنا سابقا عن تفاهة تصرف من يلتقط كلمة من هنا أو هناك ليملا الدنيا بعد ذلك ضجيجا وضوضاء، فللشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه مؤلفات وهي: «الغنية»، و«الفتح الرباني»، و«فتوح الغيب»، و«الفیوضات الربانية» وهي مطبوعة وتبایء في الأسواق، وباستطاعة من شاء الاطلاع عليها فلا وجود لهذه الكلمة ولا إشارة لها بها.

(1) مجموعة رسائل ابن تيمية (ص52).

ثم إنه من المنكر بما لا مزيد عليه أن يحاول أحد كائنا من كان التحدث بما لا يليق عن الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه الذي (أسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من غير المسلمين وتاب مائة ألف من قطاع الطرق والخارجين على القانون، وعاش تسعين سنة لا يلبس إلا الثياب الخشنة، ولا يأكل إلا أقل القليل)⁽¹⁾، فالقدح فيه والتحدث عنه بسوء لا يصدر حتى عن من شم رائحة العلم.

قال ابن تيمية رضي الله عنه: «والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشائخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدرة، ومن أعظم المشائخ أمرا بترك الهوى والإرادة النفسية»⁽²⁾.

ولعمر الحق إنه لمن المخزي المخجل نسبة المصنف وأمثاله من الوهابيين خصوصاً والمتسلفين على جهل عموماً إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الذين اتخذوا منه غطاء يعملون تحته وشعاراً ينطقون باسمه، ولم يعلموا عنه إلا ما يوافق رغباتهم في إلقاء الخطب الرنانة والكتب باسم سلفيته التي يزعمونها واستغلالها لتفريق جمع الأمة وتشتيت كتلتها، فلا هم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، نسال الله لهم المغفرة والعفو.

وهذا الجيلي وهو من كبار الصوفية يقول:

لي الملك في الدارين لم أر فيهما سواي فأرجو فضله أو فأخشاه
وقد حزت أنواع الكمال وإنني جمال جلال الكل ما أنا إلا هو
وإنسي رب للأنام وسيد جميع الورى اسم وذاتي مسماه

(1) منقول حرفياً عن مجلة الدوحة القطرية الصادرة في شهر 8 عام 1985 ص (22).

(2) مجموعة الفتاوى - ابن تيمية (ج 10 ص 488).

السكر والشطح

في الحقيقة مع المصنف كل الحق في اعتراضه على هذه المنقولات عن الشيخ عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه، وأنا أقدر وأعذر المعارض عليها وعلى أمثالها، حتى لا يتخذها الجهلة والبلهاء ذريعة ليرددوا ما لا يفهمون ويخوضوا في ما لا يعلمون فيقعوا ويوقعوا في مهاو مهلكة.

ومدار التصوف على التوحيد الخالص الذي هو: أن تعلم قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج، وصنعتة بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصور في وهمك فالله بخلاف ذلك، وذلك بأن تنقي القلب من الأدراخ ليسكنه الحق تبارك اسمه وتعالى قدسه، فإن الله لم تسعه سمواته ولا أرضه ووسعه قلب عبده المؤمن، فإذا تسنى ذلك فني العبد عن رؤية السوى بما يشاهد فلا هو حال ولا مقال، وانمحي الموحّد بالواحد والذاكر بالذكور فما ثم إلا الله، فإن نطق فيه وإن سكن فيه، فالأمر إثبات في صورة محو.

وبكل صراحة فإن كلام الشيخ الجيلي رحمه الله لا يستطيع أن يفهمه الناس جميعاً، ولهذا أشجع عادة المعارضين على هذا الضرب من الشطحات الناتجة عن الغيبة بالله في الله مما يطوى ولا يروى، فالأمر ليس شرحاً للاصطلاحات أو رموزاً بل يجب أن تفنى حتى عن الفناء، وتبقى بالحق سبحانه لا بالبقاء لتعرف المقصد.

ولتفهم ما أعني أقول: إنك لو ترجمت قصيدة مثل معلقة امرئ القيس مثلاً - لا يسميها عربي إلا ويطرب لها - إلى لغة أجنبية وإن أتقنت الترجمة والنقل بما لا مزيد عليه، فلن تستطيع أن تنقل منها إلا ألفاظاً خاوية غير متماسكة لا يفهمها الأجنبي، لأن العربي يسمع ويرى فيها كلاماً وعواطف ومشاعر وأحاسيس في الألفاظ وبين السطور لا يحسها غيره، وهذا مركز عند أهل كل لسان.

أقول: إنه سقطت الأوصاف المذمومة بعدم الإحساس بعالم الملك

والمسلوكات، وبقيت الأوصاف المحمودة بالاستغراق في عظمة القيوم ومشاهدة الحق، فلا يرى فعله لأفعاله لقيام الله له فسي ذلك فينطلق بما لا يفهمه غيره لاختلاف المقام.

يقول السراج: «الشطح في لغة العرب هو الحركة، فهو حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم، فعبروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها، ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق يفيض من حافته؟

فيقال: شطح الماء في النهر، فكذلك المريد الواجد، فليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقعية في أولياته، ويقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم وما يشكل على فهمه من كلامهم، ولا يصح ذلك إلا لمن بان شرفه وفضله بفضل علمه وسعة معرفته، فله أن يتكلم في عللهم وإصابتهم، ومن لم يسلك سبلهم ولم ينح نحوهم ولم يقصد مقاصدهم فالسلامة له في رفع الإنكار عنهم، وإن يكل أمورهم إلى الله تعالى» (1).

وأنت إذا تأملت الأبيات المذكورة للشيخ الجليلي رضي الله عنه أو أي شعر أو نشر بما يُسمى اصطلاحاً بالشطح قد يقع بين يديك، لن تجد فيه إلا الصفة دون الاسم، لأن الخالق جعل للمخلوق من صفاته مظهراً، فيجوز أن يقال: إن فلانا قادر وعزيز وجبار ومهيمن وقوي، فالمعني في الموصوف لا في الصفة ذاتها.

يقول الحلاج رضي الله عنه: «من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية والبشرية بالإلهية فقد كفر، فإن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، ولا يشبههم بوجه من الوجوه ولا يشبهونه» (2).

وأحاول أن أبسط لك الأمر أكثر فأقول: إنك إن تأملت كلام السيد الجليلي رضي الله عنه وجدت فيه قوله: (قد حزت) وقوله: (وذاتي مسماه) مما يشعر

(1) اللمع - للسراج الطوسي (ص453).

(2) الحياة الروحية في الإسلام - د/ محمد مصطفى حلمي (ص116).

بان الأمر فرق لا جمع، فهو قد أثبت الغير في نفيه، ومثل هذه الألفاظ التي هي دعوى تصدر عن أهل المعرفة باضطرار ليست إلا عين التوحيد لأن قوله: (أنا هو) تعادل (أنا لست هو)، وذلك لانتفاء الغير المقابل في الوجدان حال الحال، فلا يشهد وقتئذ سوى القيوم قلبا وعبانا.

قوله: أقماه الله - إني رب للأنام وسيد جميع الورى - ادعاء للربوبية صريح يكفر صاحبه، ولا يصح تأويله بغير الكفر أبدا، كما أن قوله: -لي الملك في الدارين - ظاهر بل هو نص صريح في ادعاء الربوبية أيضا، والعجب ممن يدعون التصوف اليوم أنهم إذا ذكروا هؤلاء الزنادقة الحلوليين يترضون عنهم ويترحمون عليهم، كأنهم لم يعلموا أن الرضا بالكفر كفر، وأن من يترحم على كافر فضلا عن أن يترضى عنه فقد ارتكب الجرائم وجنى على نفسه أعظم جناية.

قال قيس بن الخطيم:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

والمقصود - أخي المسلم - مما ذكرنا أن دعوى الكشف والتجلي هي التي جرّت القوم إلى القول بالحلول ووحدة الوجود، ثم إلى ادعاء الربوبية المطلقة والعباد بالله تعالى من الحور بعد الكور، ومن الغواية بعد الهداية.

لو أن المصنف من ذوي الاطلاع والإدراك لما يتحدث عنه لما جعل القول بالحلول ووحدة الوجود وادعاء الربوبية مترادفات، إذ كل منهن تناقض الأخرى،

وأيضاً بالرجوع إلى الأبيات المذكورة سابقاً للجيلي رضى الله عنه يتضح أن الأمر شطح لا أكثر ولا أقل، إذ إن الغير ظاهر في كل الأبيات.

وإننا إذ نعجبنا من المصنف أن يعترض على هذا الكلام، فالأمر لا يعني أن يتهم قائلها بما لم يكن أصلاً، والباب مفتوح على مصراعيه أمام المصنف وغيره ليجدوا في سيرة أو كتب الشيخ الجيلي ما يثبت مثل هذه الافتراءات.

نعم قد يوجد ما يستعصى فهمه على غير أهل الشأن، ولكن من غير المنطقي ولا المعقول أن يجعل غيرهم من عدم فهمه سلماً يصعد عليه للنيل من قممهم الشامخة في الفكر الإسلامي، وهم رضى الله عنهم لا يدعون أحداً لأن يكون منهم أو لا يكون، وما عسى أن يقول القائل في أناس نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم العلم، وسمرهم الذكر، واسترواحهم المراقبة، وخلوقهم الدموع، ونومهم السهاد، فأرواحهم بلذاذة السنة غامرة، وقلوبهم بالرضاء في الأحوال كلها غامرة، إلحاق العلم بالعمل سرورهم ومجالس الذكر حبورهم، وأهل الإسلام قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم.

الأصل السابع

الفناء... من أصول المتصوفة الفناء، وحقيقته أن المرید إذ داوم على الإكثار من الذكر تحصل له بذلك طمأنينة القلب. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ثم يعتريه الذهول ثم السكر بحجب المذكور، ثم الفناء عن الأكوان، بمعنى أن لا يصبح يرى شيئاً، ثم يفنى عن الفناء، حتى إذا وصل إلى هذا الحد انمحق الغير والغيرية بهدم جميع الرسوم والأطلال وانمحق جميع الآثار، فلم يبق إلا معاينة الحق في الحق للحق بالحق ويعرفون الفناء بأنه:

عبارة عن اضمحلال الكائنات - في نظرهم - مع وجودها وأنه الغيبة

عن نسبة أفعالهم إليهم، وهو بأن يكون الولي بحال لا يشاهد فيها شيئا غير الله تعالى، كما لا يشاهد في النهار الكواكب إذا طلعت الشمس.

تعريف الفناء

المقصود بالفناء عموماً: هو سقوط الأوصاف المذمومة، ويقابله البقاء وهو وجود الأوصاف الحميدة، أي فناء الجهل ببقاء العلم وفناء المعصية ببقاء الطاعة، وفناء الغفلة ببقاء الذكر، وفناء رؤية حركات العبد ببقاء رؤية عناية الله تعالى في سابق العلم، وهذا يعني فناء إرادة العبد في إرادة الله بالله، Lafناء الوجود في الوجود فإن هذا يستلزم المجانسة وهي معدومة، فجنس المخلوق غير جنس الخالق.

هذا وعندما توزن أقوالهم هذه في الفناء في ميزان الشرع وينظر إليها بمنظار الوحي الكتاب والسنة، لم يبق منها إلا ما يحصل للقلب المؤمن من الطمأنينة والهداية بذكر الله تعالى وعلى شرط أن يكون الذكر بالمشروع من الأذكار، وعلى النحو الذي جاء الشارع به وبينه في الكمية والكيفية وذلك لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

مخالفة ابن القيم للمصنف السلفي في الفناء

إن المصنف يعرف ما يعني الفناء في الكتاب والسنة، ولكنه يأبى إلا أن يضع له شروطاً ونهايات ونتائج تتفق مع رأيه باسم الشرع، وإن كان هو في جهة والصواب في الأخرى، إذا لا يجحد الفناء إلا مكابر أو غافل.

يقول الشيخ ابن القيم رضي الله عنه: «والفناء الذي يشير إليه القوم ويعملون عليه، أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل، ثم تغيب صورة المشاهد

ورسمه أيضا، فلا تبقى له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضا فلا يبقى له شهود، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل⁽¹⁾.

وكلام ابن القيم - قيم جدا - وإن كان للأسف مخالفا لرأي المصنف «السلفي» إذ لم يضع له شروطا وبدايات ونهايات لأنه ببساطة أمر خارج عن الاختيار، فهو يُعرف الفناء بالتعريف الصحيح الذي يستحيل أن يصح سواه، وهو أنه فناء شهود لا فناء وجود، وقد يكون الفناء ذكرا أو فكرا أو غلبة وجد، ومن الذي يستطيع منع القلب عن الخفقان، أو الرئة عن التنفس، أو الدم عن الجريان في العروق.

أما تلك الشطحات والترهات من السكر والذهول والفناء وفناء الفناء والانعقاد، فإنها لا تعدو كونها مقدمات كاذبة باطلة فاسدة، وضعوها لنتج لهم شر النتائج وأفسدها، وهي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود على حد قولهم: إذا وصل المرید هذا الحد انمحق الغير والغيرية ولم يبق يشاهد إلا الله تعالى فتصبح الكائنات كلها بالله في زعمهم - أفماهم الله ولعنهم - فما لهم عموا عن قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ كما عموا عن قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

قال أبو الحسين النوري رضي الله عنه: «أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد، إذا وجدت ربي فقدت قلبي، وإذا وجدت قلبي فقدت ربي⁽²⁾».

(1) مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية (ج 1 ص 80).

(2) الرسالة - الأستاذ القشيري ص (499).

فالأمر استغراق كامل في الله تعالى، بضبط القوى ومراعاة الأنفاس حتى يفقد بنفسه الإحساس، فإذا ذكر غيره سبحانه فقد استغراقه، والمقصود بإيجاد القلب ذكر السوى فلا يتأتى أن يجمع بينه تعالى وسواه.

يقول الشهيد الحلاج شارحا لهذا الاستغراق: «فنسي نفسه وما سوى الله، فلو قلت. من أين وأين تريد؟ لم يكن له جواب غير قول الله»⁽¹⁾.

فإنه رحمه الله يشير إلى طي جميع المسافات من زمان ومكان في حقيقة «فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ» (البقرة: 115) فهي مشاهدة قلبية بيقين كامل للحقيقة، ويحدث من جراء هذا الاستغراق أن يغيب الشهود في الشهود فينطق بما لا يفهمه إلا من كان له من الذوق نصيب.

قيل لمجنون بني عامر: أتعجب ليلي؟ قال: لا، قيل: ولم؟ قال: لأن المحبة ذريعة للوصلة، وقد سقطت الذريعة فليلى أنا وأنا ليلي»⁽²⁾.

هذا حب مخلوق مخلوق، قد يكون لمنفعة أو حظ دنيوي، فعل باخوب ما فعل حتى قال إنه محبوبه، فما بالك بمن أحب الكرم الودود الذي أمر بمحبته ورغب فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» (المائدة: 54).

ويا عجباً لمن يغفل أو يتغافل فيظن قيساً اتخذ بليلى أو حل بها فأصبح هو عينها أو هي عينه.

وكان أبو بكر الهذلي يحادث السفاح العباسي، فعصفت الريح فأذرت تراباً وقطعا من الآجر من أعلى السطح إلى المجلس، فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك وارتاع له، والهذلي شاخص ببصره نحو السفاح لم يتغير كما تغير غيره، فسأله السفاح مستغرباً عن سر ثباته؟ فأجاب بقوله: «يا أمير المؤمنين ما جعل الله لرجل

(1) اللمع - السراج الطوسي ص (499).

(2) لوامع الأنوار - عبد الحافظ بن محمد ص (115).

من قلبين في جوفه، وإنما جعل للرجل قلب واحد، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال⁽¹⁾.

فيا أيها المعترض على شريف الأحوال وشريف الرجال، هذا مخلوق فني في ملك من ملوك الدنيا سرورا بفائدته رغبة أو رهبة حتى خرق العادة، فعلاَم الاعتراض على من فني في ملك الملوك فسقط عن قلبه كل ما سواه؟.

وكان معاوية بن أبي سفيان يحادث يزيد بن شجرة ويزيد مقبل على حديثه بكليته، فصك جبينه حجر عائر فأدماه فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه وغير ذلك، فلم يتغير عما كان عليه من الاستماع، فقال له معاوية: «لله أنت يا ابن شجرة أما ترى ما نزل بك؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا دم يسيل على ثوبك، قال: أعتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين الهانئ حتى غمر فكري وغطى قلبي، فما شعرت بشيء حتى نيهني عليه أمير المؤمنين⁽²⁾.

وبناء على منطق المصنف وأمثاله فإن يزيد حل بمعاوية أو على أحسن الأحوال اتحد به.

ويزيد المذكور هو يزيد بن شجرة بن أبي يزيد الرهاوي اختلف في صحبته، قال ابن معين والبخاري: «له صحبة»، وعده البعض في الطبقة الأولى من التابعين من أهل الشام، وفي كلا الحالتين من المحال أن ينطق بغير الحق، فإن كان صحابيا فقد انعقد الإجماع على عدالتهم، وإن كان تابعا فهو من أهل الصدق لا محالة.

إن الفناء الذي نتكلم عنه هو امتلاء للقلب بنور الله تعالى لا بسواه، مذاق رائق، وإحساس شائق، ورهافة حس، وصدق شعور، ومعاينة للملكوت بعين الفؤاد، مما يجعله عزيزا إلا على من وفق الله.

(1) ذكرها الجاحظ، ورواها أيضا المسمودي في مروج الذهب، ورواها أيضا محمد بن الأزرق الأندلسي في كتابه «بدائع السلك في طبائع الملك» (ج 2 ص 962).

(2) مروج الذهب - للمسمودي (ج 2 ص 212).

قال ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه :

وهذا لسان الكون ينطق جهرة بأن جميع الكائنات قواطع
وأن لا يرى وجه السبيل سوى امرئ رمى بالسوء لم تختدعه المطامع
ومن أبصر الأشياء والحق قبلها فغيب مصنوعا بمن هو صانع^(١)

وكي تعلم أيها المسلم أنا لا نكذب على القوم ولا نشنع عليهم بغير
باطلهم ، وما هم عليه من الكفر والزيغ والإلحاد فلنسمع إلى إمامهم
محي الدين بن عربي وهو يقول : سبحان من خلق الأشياء وهو عيناها ،
أليس قوله هذا هو عين وحدة الوجود ؟

سيأتي الكلام مفصلا عن هذه العبارة في الفصل الأخير إن شاء الله .

ولنسمع إلى قوله أو لإخوانه من أئمة الصوفية :

فيحمدني وأحمده ويعبدنني وأعبده
إن معنى هذا القول في هذا البيت من الناظم الفاجر أن الرب تعالى
قد حل في الشيخ فأصبحا واحدا ، يحمد بعضهما بعضا ويعبد بعضهما
بعضا ، أي كفر أعظم من هذا وأي افتراء ودجل أقبح من هذا .

بالاطلاع الواسع والعقل الراجح ، الذي يجعل من صاحبه يعقل أن ينطق
مخلوق بأن الله تقدس اسمه يعبد ، مما لم يقل به أحد منذ بدء الخليقة إلى اليوم ،
فإن غاية الانحراف الإنساني كانت إلى الكفر أو إلى الشرك أعادنا الله والمسلمين .

(١) التتوير في إسقاط التدبير - ابن عطاء الله السكندري (ص ١٨) .

ثم إنه لا يقبل ولا يسمح للمصنف بأن يفسر كلام السادة الصوفية خاصة وأن رأيه في هذا الشأن معروف، فليسلم القوس إلى بارئها كما يسلم إلى النحاة نحوهم، وإلى الاقتصاديين حسابهم، وإلى أهل القانون قانونهم، مع أن جميع أرباب الفنون يجوز عليهم الغش والتدليس والخداع والكذب، إلا أهل مقام الإحسان الذين يراقبون الله تعالى في كل أحوالهم، فلا يتكلم أو يفسر شعر السادة الصوفية إلا هم.

يقول الشعراني رضي الله عنه شارحا لهذا البيت: «معنى يحمدي أنه يشكرني إذ أطعته، كما في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وأما في قوله فيعبدني وأعبده، أي يطيعني بإجابته دعائي، كما قال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي لا تطيعوه».

ولنسمع إلى الجيلي أحد أئمة المتصوفة يقول مقررًا للحلول والاتحاد:
وأنسي رب للأنام وسيد جميع الورى اسم وذاتي مسماه
فقد بالغ الشيخ في ضلاله حتى أصبح يخبر بأنه هو الله لا غيره، كل
هذا ناتج عن سكرة الحب الكاذب وضلال الفناء وباطل الانمحاق وانهدام
الغيرية كما يزعمون ويفترون.

عودة إلى الشيخ الجيلي رضي الله عنه

للسيد عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه المولود في 767هـ والمتوفى في 832هـ عشرة مؤلفات وهي:

«الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل»، وهو من أشهر مؤلفاته وقد

(١) اليواقيت والجواهر - الشيخ عبد الوهاب الشعراني (ج 2 ص 13).

طبع مرارا، وكتاب «الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم» وهو مطبوع أيضا، وكتاب «الناظر الإلهية»، وكتاب «رسالة السفر القريب»، وكتاب «حقيقة اليقين» وكتاب «مراتب الوجود»، وكتاب «شرح مشكلات الفتوحات المكية»، وكتاب «الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية»، وكتاب «قاب قوسين وملتقى الناموسين»، وكل هذه الكتب مخطوطة ولم تطبع بعد.

أما أعظم كتبه على الإطلاق فهو «الناموس الأعظم والقاموس الأقدم» يتكون من أربعين جزءا لا زال بعضها مخطوطا، والشيخ الجليلي رضي الله عنه من المتفق على علمهم وغازاة معرفتهم عند أهل المعرفة.

ونحن وإن كنا قد تكلمنا عن هذه الأبيات فيما سبق، ولم نشأ التوسع في الإجابة صونا لهذه الأحوال الشريفة عن أن تكون خوضا لكل وارد، أو أن يدعيها كل دارج وداب وراق، ولكن حيث أبى المصنف السلفي إلا تكرار الحديث، فإننا سننقل رأي الشيخ أحمد بن تيمية رحمه الله في هذا الموضوع، فإنه يتحدث عن الفناء المؤدي إلى النطق بمثل هذه الشحطات الناتجة عن غلبة الشهود فيقول:

«الفناء عن شهود السوى، وهذا يحصل لكثير من السالكين فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، قالوا: فارغا من كل شيء إلا ذكر موسى، وهذا كثير ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور: إما حب وإما خوف وإما رجاء، يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء إلا عما أحبه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

فإذا قوي على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى، والمراد فناؤه عن شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها، وإذا قوي هذا

وضعف المحب حتى يضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي؟ فقال: غبت بك عني ظننت أنك أني⁽¹⁾.

فهذا يا أيها المصنف «السلفي» وكل من يرى رأيك من هؤلاء الذين ظهروا بيننا كالورم الحبيث، ممن لا يحسنون قضاء الحاجة وآدابه الإسلامية، ويخوضون مع ذلك في ما لا يعلمون ويدعون ما لا يفهمون، كلام الشيخ أحمد بن تيمية رضي الله عنه الذي تتقمصون شخصيته، والذي قلنا مرارا وتكرارا: إنكم لا تعرفون منه إلا شعارا ترفعونه وتتحدثون باسمه، وعند البحث والتحقيق نجد أنكم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، خالفتم الجميع وفرقتم الأمة وشتتم جمعها وخذعتم السذج والبسطاء باسم انتماؤكم لمدرسة ابن تيمية وسلفيته، التي فهمتها بضعيف فهمكم وضئيل علمكم على أنها مقدمة على الكتاب والسنة، بل ولم تفهموها منها إلا ما حسنه لكم غمطكم للحق الجلي وجحودكم للنور المبين، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ولولا خوفنا أن يتذرع بكتابنا هذا المدعون، فينطقون بما يظنونهم مباح النطق به طوعا واختيارا لا غلبة وقهرا، لنقلنا الكثير من هذا عن الشيخ أحمد بن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من علماء الأمة سلفا وخلفا.

ولأبأس بالرغم من هذا من ذكر تعليق جميل ونفيس للشيخ ابن تيمية على أحد الأحاديث النبوية الشريفة فإنه يقول: «روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي قوله تعالى: «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة»، فقوله: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، فجعل معاداة عبده الولي معاداة له، فعين عدوه عين عدو عبده، وعين معاداة وليه عين معاداته، ليسا هما شيئين متميزين⁽²⁾».

(1) المعبودية - الشيخ أحمد بن تيمية (ص4).

(2) الرسائل والمسائل - الشيخ أحمد بن تيمية (ص52).

وبالجملة إن الفناء لم يرد به ككتاب ولا سنة ولا عرفه سلف هذه الأمة، وإنما هو خدعة صوفية وخلصة شيطانية من وضع اليهودية العالمية والمجوسية الفارسية، توصل بها إلى تكفير الكثير من المسلمين بإدخال عقائد المجوس والنصارى في عقائدهم الإسلامية، وهكذا يفعل الأعداء والويل لمن لم يعرف عدوه.

اتصال المجوسية العالمية بأحد الصحابة

روى ابن المبارك في الزهد من طريق ضمرة بن حبيب: «أن الصحابي أبا ريحانة الأنصاري قفل من غزوة له فتعشى، ثم توضأ وقام إلى مسجده فقرأ سورة فلم يزل في مكانه حتى أذن المؤذن فقالت له امرأته: يا أبا ريحانة! غزوت فتعبت ثم قدمت أفما كان لنا فيك نصيب؟ قال: بلى والله، ولكن لو ذكرت لك لكان لك حق، قالت فما الذي شغلك؟ قال: التفكير فيما وصف الله في جنته ولذاتها حتى سمعت المؤذن»⁽¹⁾.

ويبدو أن المجوسية الفارسية واليهودية العالمية قد اتصلتا بهذا الصحابي وأقنعته بأن يغيب عن الدنيا وما فيها، فلا يذكر حتى زوجته بعد طول غياب، ولا يأوي لفراش ولا يخلد لراحة، فالويل لمن لا يعرف عدوه.

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة، وأنس رضى الله عنهما «أن النبي ﷺ مرّ يقوم يلحقون فقال: لو لم تفعلوا الصلح. فخرج شيصا، فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم»⁽²⁾.

تري أكان الرسول ﷺ الذي ولد وعاش هو وآبؤه في مكة والمدينة،

(1) انظر الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني (ج2 ص153) ترجمة رقم (3921).

(2) رواه مسلم بهذا النص، ونص آخر مشابه، ورواه كل من أحمد، وابن ماجه.

ولا يزرع فيهما إلا النخل يجهل فائدة التأبير للنخل⁽¹⁾، الأمر الذي يعرفه حتى الأطفال ممن يعيشون في بيئة ماثلة، أم أنه - وهو الصحيح - كان فانيا عن رؤية الأسباب باقيا برؤية المسبب، فلا يخفق قلب أو يضرب عرق أو تطرف عين أو يخرج ثمر إلا وفاعله الله تعالى، وهذا هو الإيمان الذي تخرق به العوائد وتنفعل به الأشياء، فإن لقحت النخلة أم لم تلقح لن يخرج الثمر إلا بإذنه تعالى وإرادته وعلى الكيفية التي أراد.

قال ابن القيم رحمه الله: «والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء، وهو أن تثبت إلهية الحق تعالى في قلبك وتنفي إلهية ما سواه»⁽²⁾، فلا فاعل ولا موجد ولا قادر إلا هو سبحانه.

الأصل الثامن

الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة.. إن من أصول المتصوفة وقواعد طرقهم البدعية تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن.

علم الظاهر وعلم الباطن

قال ﷺ: «العلم علمان، علم ثابت في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على خلقه»⁽³⁾.

- (1) فسر بعض العلماء هذا الحديث بأن النبي لا يشترط فيه أن يكون خبيرا بفتون الزراعة - انظر المذاهب الفقهية للشيخ أبو زهرة ص (10)، وفاتهم أن مثل هذا الأمر لا يستلزم خبرة ولا مهارة، وقد نطق النبي ﷺ بهذا الحديث بعد الهجرة، أي أنه لا ريب كان يعلم مثل هذه الأمور البديهة، وخير من فسر هذا الحديث الشيخ عبد العزيز الدباغ، انظر الإبريز ص (193).
- (2) مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية (ج 3 ص 312).
- (3) رواه الخطيب بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر مرسلا بإسناد صحيح. انظر الترغيب والترهيب (ج 1 ص 67)، وانظر كتاب الإيمان لابن تيمية (14).

فمن الغريب أن يسمى بعد ذلك تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن ابتداءً، ثم إنه ليس السادة الصوفية فقط هم الذين يقولون بهذا بل يكاد يكون كافة أهل العلم مجمعون عليه ومن بينهم - وبالألسف - الشيخ ابن تيمية رحمه الله فإنه يقول: «علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها، وهو علم بحقائق الإيمان الباطنة وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهر»⁽¹⁾.

وإن كان السادة الصوفية جرياً على عادتهم في شدة التمسك بالشرع الشريف تكلموا عنه بصورة أكثر وضوحاً.

يقول الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه: «هذا العلم الذي سماه بعضهم بعلم الباطن هو إصلاح القلب، فالأول عمل بالأركان وتصديق بالجنان، إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته، وقتلت وسرقت وزنت، وأكلت الربا وشربت الخمر وكذبت وتكبرت وأغلظت القول، فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك؟ وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وتصدقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد فما الفائدة من عملك»⁽²⁾.

وأضافوا إلى الدين الإسلامي (الطريقة) وقالوا: إن الطريقة هي الوسيلة، والثمرة هي الحقيقة، وهذا التقسيم للعلم والشرعية وتلك الإضافة للدين لا شك أنه من أكبر الإحداث في دين الله تعالى، وسحبان الله كيف يتصرفون في دين الله وكأنهم مأذون لهم بالزيادة والنقصان؟ وكأنهم عموا عن قول رسول الله ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

(1) الفرقان - أحمد بن تيمية ص (82).

(2) البرهان المؤيد - للشيخ أحمد الرفاعي ص (68).

الشرعة والطريقة والحقيقة

لقد تكلم السادة الصوفية في هذا الأمر ووضحوه بما لا مزيد عليه، قال الشيخ عبد القادر عيسى: «لقد ورد في حديث جبريل المشهور الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تقسيم الدين إلى ثلاثة أركان بدليل قول الرسول ﷺ لعمر: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

1- فركن الإسلام: وهو الجانب العملي من عبادات ومعاملات وأمور تعبدية، ومحله الأعضاء الظاهرة الجسمانية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشرعة، واختص بدراسته السادة الفقهاء.

2- وركن الإيمان: وهو الجانب الاعتقادي القلبي من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وقد اختص بدراسته السادة علماء التوحيد.

3- وركن الإحسان: وهو الجانب الروحي القلبي، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وما ينتج عن ذلك من أحوال وأذواق وجدانية ومقامات عرفانية وعلوم وهبية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة، واختص ببحثه السادة الصوفية.

ولتوضيح الصلة بين الشرعة والحقيقة نضرب لك مثلاً، الصلاة: فالإتيان بحر كاتها وأعمالها الظاهرة والتزام أركانها وشروطها وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه يمثل جانب الشرعة وهو جسد الصلاة، وحضور القلب مع الله تعالى في الصلاة يمثل جانب الحقيقة وهو روح الصلاة، فأعمال الصلاة البدنية هي جسدها، والخشوع وروحها، وما فائدة الجسد بلا روح؟ وكما أن الروح تحتاج إلى جسد تقوم فيه فكذلك الجسد يحتاج إلى روح يقوم بها.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ولا تكون الإقامة إلا بجسد وروح، ولذا لم يقل أوجدوا الصلاة، ومن هنا ندرك التلازم الوثيق بين

الشريعة والحقيقة كتلازم الروح والجسد، والمؤمن الكامل هو الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة وهذا هو توجيه الصوفية للناس مقتفين بذلك أثر الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، وللوصول إلى هذا المقام الرفيع والإيمان الكامل لابد من سلوك الطريقة، وهي مجاهدة النفس وتصعيد صفاتها الناقصة إلى كاملة، والترقي في مقامات الكمال بصحبة المرشدين، فهي الجسر الموصل من الشريعة إلى الحقيقة^(١).

ولا أظن أن الشيخ عبد القادر عيسى ترك مجالاً للزيادة أو التوضيح، فالشريعة هي الأساس، والطريقة هي الوسيلة، والحقيقة هي الثمرة، وهي أشياء متكاملة منسجمة، فالتمسك بالشريعة يؤدي إلى السلوك على الثانية ويصل إلى الثالثة، وأما الاصطلاحات فبالإمكان حذفها ووضع غيرها، فالأمر لا يقدم ولا يؤخر شيئاً.

ولنثبت ما لا يحتاج إلى إثبات من أن المصنف وقبيله – سامحهم الله بمنه وكرمه – لا يعني اتباعهم للشيخ ابن تيمية إلا التظاهر وترديد اسمه كعنوان يكتبون تحته ما شاءوا، باسم سلفية ابن تيمية ومدرسته لخداع السذج الذين ينطلي عليهم زخرف القول غرورا، لتحقيق مآربهم وأغراضهم.

ننقل رأي ابن تيمية في هذا الموضوع فإنه يقول: «والحقيقة حقيقة الدين، دين رب العالمين هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاجا، فالشرعة هي الشريعة قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرْعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، والمنهاج هو الطريق قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر، والمنهاج هو الطريق

(١) حقائق عن التصوف – الشيخ عبد القادر عيسى ص (473 - 474).

الذي سلك فيه، والغاية المقصودة هي حقيقة الدين وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وهي حقيقة دين الإسلام»^(١).

ويا حبذا لو أن المصنف - زاده الله علما - زيادة في الخير ألف كتابا قيما آخر، مثل هذا الذي بين أيدينا في الرد على ابن تيمية الذي قسم الدين إلى شريعة وطريقة وحقيقة، فإن هذا من أكبر الإحداث في دين الله تعالى وكأنه - حاشاه - قد عمي عن قول رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

وسبحان الله كيف لا يتورعون عن الكذب على أئمة الإسلام، فينسيون إليهم شر البدع وأسوأها، ولنسمع إلى ما يقولون عن مالك إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى القائل: من ابتدع في الإسلام بدعة فآها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ إنهم قالوا: إن مالكاً رحمه الله تعالى قال: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، فانظر كيف يفترون على مالك الكذب وهو السيف المصلت على رؤوس المستدعين، وهم يعلمون ليبرروا لكذبهم، وما وضعوا من أصول وقواعد لم ينزل الله بها من سلطان، وكأنهم على وفاق مع واضعي قاعدة - الغاية تبرر الوسيلة - وهم اليهود، وإلا فقل لي بربك كيف يكذبون على إمام جليل من أئمة الإسلام مثل هذا الكذب الفاضح المقوت.

فهل من المعقول أن يقول عالم بشريعة الله قائم بنشرها وتعليمها والذب عنها كمالك رحمه الله تعالى: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق

أي صار طالباً للفسق قائماً به، والرسول ﷺ يقول «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وهل التصوف عرف في عهد مالك وأصبح ذا شأن حتى يقول مالك ما قالوا من الكذب والباطل؟ اللهم لا، لا، إن التصوف لم يظهر ولم يعرف بين المسلمين إلا بعد انقراض أهل القرون المفضلة، وأخذ الشر والفساد ينتشران في بلاد المسلمين.

فقلست له هداك الله مهلاً وخير القول ذو اللب المصيب

الإمام مالك والتصوف

لقد مللنا من تكرار أن الدعاوى لا تثبت بمثل هذا الأسلوب الساذج البسيط، والتهويلات والخطب الصبغانية، بل بالأسلوب العلمي الصحيح، فلو استمعنا إلى كل من نفى في الدين أو أثبت ما يتفق مع وجهة نظره، لأصبح عندنا أديانا بعدد البشر ولما صحت في الوجود حقيقة واحدة.

فأولاً: إن هذه العبارة رواها كبار علماء المذهب المالكي عن الإمام مالك خلفاً عن سلف، وهي موجودة في:

1) حاشية العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزبة في الفقه المالكي ج 3 - ص (195).

2) موجودة أيضاً في كتاب شرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي القارئ، انظر جزء 1 - ص (33).

3) وعلى مستوى كبار المؤرخين وثقاتهم ذكرها ابن خلدون عن الإمام مالك في كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل.

4) وذكرها الشيخ أحمد زروق في قواعد التصوف - ص (13) قاعدة رقم (4).

والتتائي في شرحه على ابن رشد ص (5)، والشيخ ميارة في شرحه على ابن عاشر.

وكل هؤلاء ليسوا من أهل التصوف باستثناء الشيخ أحمد زروق، والذي هو من كبار علماء المذهب المالكي أيضاً، وهذا على مستوى أمهات المراجع فقط، أما غيرهم فالعدد يخرج عن الحصر.

وعليه فإن أردت - يا حفظك الله - أن تثبت خطأ أو صواب نسبة هذه العبارة إلى الإمام مالك فتتبعها في مظانها ومصادرها بالدراسة والتحقيق دراية ورواية، ثم تجدنا آذانا صاغية نسمع ونحترم وجهة نظرك، وحتى إن اختلفنا معك فبأسلوب علمي يقوم على الحجة والبرهان، أما ما بين أيدينا منك الآن فهو كما قال الشاعر:

إن هو مستولياً على أحد إلا على أضعف المجانين

فهل ترى كل هؤلاء وعلى رأسهم أكبر مؤرخي العرب والإسلام بلا منازع على خطأ، وأنت يا أيها المصنف على صواب.

ثانياً: إن تفسير كلام الإمام مالك ليس كما ذكرت، بل هو كما يلي:

تزنديق الأول: لأنه نظر إلى الحقيقة مجردة عن الشريعة فقال: إن الإنسان لا خيار له.

وتفسق الثاني: لأنه لم يدخل قلبه نور التقوى وسر الإخلاص وواعظ المراقبة وطريقة المحاسبة، فكان عمله جسداً بلا روح.

وتحقق الثالث: لأنه جمع أركان الدين وهي الإسلام والإيمان والإحسان.

ثالثاً: إن الإمام مالك رحمه الله توفي سنة 179هـ في المدينة المنورة، وقد قلنا سابقاً: إن لفظ ومعنى التصوف كانا معروفين قبل ذلك التاريخ بكثير فليراجع.

رابعاً: ليس عندنا للسبب والشتم وباطل الاتهامات جواب إلا الدعاء بالهداية والمغفرة.

والذي لا يشك فيه أن للقوم من وراء وضع هذا الأصل أهدافا يهدفون إليها ويريدون تحقيقها والوصول إليها وهي تتلخص في النقاط التالية :

تحويل أمة الإسلام إلى أمة سلبية لا تبدي ولا تعيد ، تعيش على الفقر والتزهد والاتكال حتى تبيد وتفتنى ، وهذا هو الهدف الرئيسي الذي من أجله وضع التصوف ، وشارك في وضعه ونشره والدعوة إليه أكبر خصوم الإسلام وأعدائه من زنادقة اليهود والنصارى والمجوس ، وساعدهم على ذلك أغرار المسلمين وجهالهم مع الأسف الشديد .

اللهم نسألك العصمة من الزلل والحفظ ومن الخطل .

أما كون الفقر والزهد والتوكل من الأمور التي اشتهرت عن الصوفية، بل وأصبحت تكاد تكون من خصائصهم فهذا صحيح، ولكن غير الصحيح هو أن هذه الصفات تجعل من أمة الإسلام لا تبدي ولا تعيد ومن ثم تبيد وتفتنى، وها هم المسلمون اليوم من أغنى شعوب المعمورة، ومع هذا فأراضيهم مغتصبة وحقوقهم مهذرة، وقد كان المسلمون قبل غزوة بدر في فقر مدقع وانتصروا في معركة غيرت مجرى التاريخ الإنساني قاطبة، وكان الرسول ﷺ لا يُوقد في بيته نار لعدة شهور، وإنما يأكل وأهله الأسودين التمر والماء⁽¹⁾ وكان يعصب على بطنه الشريف الحجر من الجوع، وكان أزهد الناس، وما زادت هذه الصفات إلا شرفا إلى شرف، وأما توكله وأصحابه على الله تعالى فلا أظن أن مسلما يجادل في حقيقته .

ونحن هنا نتحدث عموما فقط لنبين أن الفقر والزهد والتوكل التي يريد المصنف أن يعيب بها أهل التصوف ليست إلا الإسلام ووقتما اتصف المسلمون بهذه الصفات حقيقة دانت لهم مشارق الأرض ومغاربها، أما على التخصيص فقد قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ (محمد : 38) .

(1) متفق عليه .

وعن سهل الساعدي رضي الله عنه قال: «مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشرف الناس. هذا والله حري إن خطب ينكح، وإن شفع يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل فقال رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله هذا من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض من هذا»⁽¹⁾.

وقال ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»⁽²⁾، وقال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء»⁽³⁾، وقال: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»⁽⁴⁾.

ومما جاء في الزهد، قوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله»⁽⁵⁾، وقد كان الرسول ﷺ مثالا للزهد في الدنيا وزخرفها الباطل، ولو شاء لكان ملكا رسولا.

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان فراش رسول الله ﷺ من آدم وحشوه من ليف»⁽⁶⁾، وعنها أيضا: «توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر من شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني»⁽⁷⁾، وعنها أيضا: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض»⁽⁸⁾.

(1) متفق عليه.

(2) رواه مسلم.

(3) متفق عليه.

(4) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

(5) رواه ابن ماجه، وغيره بإسناد صحيح، قال النووي: «حديث حسن»، انظر رياض الصالحين ص (146).

(6) رواه البخاري.

(7) متفق عليه.

(8) متفق عليه.

وأما ما جاء في التوكل فإنه يخرج عن الحصر، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: 11)، وقال جل اسمه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: 3)، وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطائناً»⁽¹⁾.

والخلاصة أن ما قاله المصنف عن اتصاف الصوفية بالفقر والزهد والتوكل هو عين الحقيقة، وهم في التزامهم بهذا ممثلين لأمر الشارع، وقد شرحوا هذه الأمور وتحدثوا عنها، وبينوا أن الفقر ليس عدم كسب المال والسعي لتحصيله من طريق المباح، بل ببذله في أوجه الخير والإحسان إن وجد، والصبر عنه إن فقد، وحمد الله وشكره على كل الأحوال، وأن الزهد يكون في القلب لا في اللباس، وكذلك التوكل لا يعني ترك الاكتساب بالقلب والبدن والسقوط على وجه الأرض بدون حراك كقطعة الثوب، فإن هذا حرام في الشرع ولا يظن التوكل هكذا إلا الجهال.

وكان السري السقطي تاجرا، والشاذلي يمتلك مزارعا ومواشي ومحمد بن عيسى يمتلك في مكناس بالمغرب أرضا وثيرانا للحرث ويساعد بها فقراء المسلمين أيضاً حسب ما هو مشهور، وكان له خدم في داره، وكان يعطي مريديه وتلاميذه النقود، بل ويستأجر العمال والفعلة ليذكروا الله معه، وأنت لو تأملت أسماء السادة الصوفية لوجدت: القواريري، الخراز، الحلاج، الحداد، الخواص، الوراق، البزار، السماك، البناء، الحرار، راعي الإبل، النجار، الدباغ. وغيرها، وكلها أسماء لمهن غلبت على أسماء أصحابها.

نعم عاش السادة الصوفية الفقر والزهد والتوكل والتزموا بها، فإن كان على هذا اعتراض، فما أعذب الاعتراض على القلوب، إن كان على الالتزام بأوامر الله ورسوله ﷺ.

(1) رواء الترمذي، وقال: «حسن صحيح».

استباحة المحرمات وغشيان كباثر الإثم والفواحش وبخاصة المشائخ
 المربين من رؤساء الطرق، تستراً تحت شعار قولهم: الحقيقة غير
 الشريعة، فكم ارتكبت من فواحش، واستبيحت من حرمات بدعوى أن
 الحقيقة غير الشريعة، إذ يجوز لصاحب الحقيقة ما لا يجوز لصاحب
 الشريعة في حكمهم وما تقتضيه أصولهم.

قال الشيخ جمال الدين الميلادي:

مهلاً يا صاحبي عفوا ومعهذرة أعـد لي رشدي فإن الحال أبـكاني
 من ذا الذي يدعي التقويم من عوج والسدين في خطر والناس في شان
 الدين ليس بمزروع تحصده أو متجراً أو بالات لعمران
 هات الصلاة وزنها باعتنائك في أذبة الناس تعلوها برجحان
 وزن إن شئت تسبح اللسان مع الـ كلام في العرض والشتم بإمعان
 تجحد إذ ليس دين الله ملعوبة بل دين حق يفوق كل أديان
 الدين قول وفعل لا نفاقاً ولا قملقاً بل صفاً سر وإعلان
 رحم الله الشيخ المجاهد جمال الدين الميلادي كأنه ينظر إلى الغيب من
 ستر رقيق.

قال رحمه الله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان،
 فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر
 بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»^(١).

فكيف بمن سأل الحق سبحانه عن بينة دعواه، وطالبه بالبرهان والدليل على
 ارتكاب صالح المؤمنين للكباثر والفواحش واحداً بعد واحد، لا شك أن الموقف

(١) متفق عليه.

عصيب على الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (النور: ١٩).

وأرجو أن أكون ماذونا من الله تعالى في أن أقول للمصنف نيابة عن جميع من ذكرهم بالسوء، وقذفهم بالفاحشة من أهل التصوف: سامحك الله وغفر لك بمنه وكرمه، وأبدلك بكل حرف ألف حسنة وما ذلك على الله بعزيز.

ويحتجون على هذا الباطل بخرق الخضر عليه السلام للسفينة، وقتله للغلام الزكي، وإقامته لجدار اليتيمين، وإنكار موسى عليه ذلك بدعوى أن موسى كان من أهل الظاهر فأنكر، والخضر من أهل الباطن فأقر، وما دروا أن الخضر فعل ما فعل بأمر الله ووحيه حسب شريعته التي تعيده الله بها، ولهذا لما قال له الخضر: إني على علم مما علمني الله، وأنت على علم مما علمك الله سكنت نفس موسى واطمان، إذ كانت الشرائع تتعدد بتعدد الرسل، ولم تجتمع الشرائع إلا في شريعة الإسلام، حيث نسخ الله كل ما سبقها من الشرائع التي جاءت بها الرسل قبل خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وبذلك بطل العمل بغير شريعة الإسلام التي ظاهرها هو باطنها وباطنها هو ظاهرها، شريعة واحدة لا ثانية لها ولا ثالثة، وبناء على هذا فإنه لا حجة لهم على تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن والدين الإسلامي إلى شريعة وحقيقة.

الخضر عليه السلام

هو بلياً بن ملكان بن فالغ من سلالة نوح عليه السلام ويكنى بأبي العباس، والبعض يسميه أحمد.

وقال الرسول ﷺ معللاً لسبب تلقيبه بالخضر: «إنما سمي الخضر لأنه

جلس على فروة فإذا هي تهتز من خلفه خضراء⁽¹⁾. والفروة هي وجه الأرض أو العشب الذي على وجه الأرض، والعلماء متفقون على أن الخضر عبد صالح من عباد الله الذين أكرمهم بفيوض من رحمته وعلمه، وقد تواترت الأخبار في بقاءه حيا والاجتماع به، وقيل: إنه نبي، ومن القائلين بهذا خاتمة المحدثين الشيخ عبد الله الصديق الغماري رحمه الله، وقيل: إنه نبي رسول، ومن القائلين بهذا الرأي الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات، وقيل: إنه ولي ولم يكن نبيا، وهو الذي ذهب إليه الأستاذ القشيري، وفي المسألة خلاف مشهور، وزاد البعض أن لكل زمان خضر.

واشتهر العديد من الأولياء والصالحين بملاقاته رضي الله عنه والاجتماع به، حتى إن الشيخ محمد بن عيسى كان يجمع به من هو أهل لذلك من تلاميذه⁽²⁾ وأصحابه.

قال الإمام النووي في تهذيبه: «قال الأكثرون من العلماء هو حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة، وحكايتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر».

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «قام موسى النبي خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال: أنا أعلم فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبدا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: يارب وكيف به؟ قال: أحمل حوتا في مكمل فإذا فقدته فهو، ثم فانطلق، وانطلق بفتاه يوشع بن نون وحمل حوتا في مكمل، حتى كانا عند الصخرة وضعا رءوسهما وناما، فانسل الحوت من المكمل فاتخذ سبيله في البحر سررا، وكان لموسى وفتاه عجبا، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال

(1) رواه البخاري.

(2) النور الشامل - أحمد بن المهدي الغزال ص (46-45).

موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، ولم يجد موسى مسا من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به فقال له فتاه: أرايت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت، قال موسى، ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا، فلما انتهيا إلى الصخرة إذ رجل مسجى بثوب أو متسجى بثوبه فسلم موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبرا يا موسى، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه، وأنت على علم علمك الله لا أعلمه، قال: ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرت فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر فحملوهما بغير نول، فجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت فكانت الأولى من موسى نسيانا، فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفسا زكية بغير نفس؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا؟ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه، قال: الخضر بيده. فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجرا، قال هذا فراق بيني وبينك.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما»^(١).

ولنعد إلى ما نحن بصدده فنقول:

(١) رواه البخاري.

أما العبارة التي استدلت بها المصنف وهي قوله: إني على علم مما علمني الله . . فإن الرسول ﷺ لم يذكر أن الخضر قالها لموسى بعد رحلتها كما يتضح من كلام المصنف بل قبلها، كذلك يتضح أن الخضر أعلم من موسى بعلم الباطن ﴿ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ ﴾، والتعلم لا يكون إلا بمن هو أكثر علما، وأن قتل النفس بدون بينة، وإعطاب السفينة، وبناء الجدار لم يفعله الخضر عن أمره ومن نفسه ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾، فإن كان نبيا فيوحى، وإن كان وليا فقط فيإلهام. وأن ظاهر هذه الأفعال هو المعصية، وأن باطنها طاعة، وأيضا فإن الخضر علم منذ البداية أن موسى لن يستطيع معه صبرا.

والأهم من كل هذا أنه عندما وضع الخضر لموسى الأمر اتضح أنه لم يأت بمعصية، والخلاف كان في وسيلة المعرفة والحكم على الأمور، فإن خرق السفينة كان لأجل أن ينتفع بها أصحابها الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، قيل: إنهم أيتام، وقتل الغلام خشية أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا بأن تحملهما محبته على متابعتة على الكفر وليقتصر حب أبويه على من هو خير زكاة وأقرب رحما، أي المسلم الذي سبيلهما الله به، وأما الجدار فكان لغلامين من ذرية رجل صالح وتحتة كنز، قيل: صحف من علم، وقيل: سبائك من ذهب، وفي سقوط الجدار انكشاف له وذهابه من أيدي أهله لأهل القرية.

والخلاصة: أنه إن كان الاستدلال بقصة الخضر وموسى على الاختلاف في وسيلة المعرفة فهذا استدلال صحيح، إذ من الطبيعي أن تتعدد وسائل المعرفة، ومن ثم الحكم على حقائق الأمور، أما إن كان الاستدلال لفعل أمر مخالف للشرع الكريم احتجاجا بفعل موسى والخضر فهذا مردود مرفوض، فإن مخالف الشريعة المحمدية التي هي ناسخة لكل الشرائع خارج عن أمة الإسلام، وقد تشدد السادة الصوفية في هذا الأمر، بل وقاوموا بالحجة البينة والبرهان القاطع هذه الأفكار.

يقول الشيخ أحمد زروق رضي الله عنه رادا وناقضا ومعترضا على أحد الذين يخالفون السادة الصوفية في رأيهم هذا: « ادعى أنه يأخذ عن الخضر

الأحكام، فدعا الناس إلى اتباعه وحملهم على أمور مفارقة لأصل الملة المحمدية -فيما ذكر لنا - واحتج على ذلك بقصة الخضر مع موسى، واحتجاجة باطل لأن موسى عليه السلام إنما التزم التسليم له لا اتباعه فيما يأمره به من صورة المنكر، وهو إنما ألزمه الصبر عليه لا وجوب اتباعه والعمل بمثل فعله، ثم هب أن الخضر عليه السلام يأتي بالأحكام، فشرعية نبينا ﷺ ناسخة لجميع الشرائع، وبهذا أصل الدين الذي يتعين اعتقاده ومخالفه كافر إجماعاً».

صرف المسلمين عن العلوم الشرعية وتزهيدهم فيها وشغلهم بما يسمونه بالعلوم الباطنية الخيالية، ويدل على صحة هذا قول الجنيد -وهو إمام المتصوفة في زمانه -: أحب للمبتدئ - المريد - أن لا يشغل قلبه بهذه الثلاث وإلا تغير حاله: الكسب، وطلب الحديث، وأحب أن لا يقرأ ولا يكتب، لأنه أجمع لهم، فما معنى لا يقرأ ولا يكتب؟! أنه لا يتعلم، وإذا لم يتعلم فكيف يعبد الله تعالى عبادة تركزى نفسه، وتؤهله لولاية الله تعالى كأنهم يقولون: إن المريد ليس في حاجة إلى العلم ولا إلى العبادة، إذ يكفيه الذكر والأوراد يلزمها حتى يصبح من أهل الكشف والعلم اللدني، وبذلك يستغني بعلم الباطن عن علم الظاهر، ويعلم الحقيقة عن الشريعة، وهذه هي النهاية التي وضعوا لها هذا الأصل الباطل وهو تقسيم العلم إلى باطن وظاهر، والدين إلى شريعة وحقيقة، وهو نهاية ينسلخ فيها العبد من المعرفة والإيمان والتقوى ويعيش على الجهل والإلحاد والفجور والعياذ بالله تعالى.

ارتجاج الفكر يؤدي إلى اضطراب الحديث

أولاً: لقد نقلنا أقوال ابن تيمية رضي الله عنه، وذكرنا المصدر الذي ذكر فيه تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن، والدين إلى شريعة وحقيقة، وحددنا حتى رقم

الصفحة، فإن كان هذا جهلاً أو إلحاداً أو فجوراً - نستغفر الله من ذلك - فإنه أحد القائلين به، وكذلك أهل العلم، أما غيرهم فلا شك أن الأمر غريب بالنسبة لهم، ولهم أن يسموه ما شاءوا.

ومن لا يقدم رجله مطمئنة فيثبتها في مستوى الأرض يزلق

ثانياً: لا يفوتنا بالمناسبة أن نذكر المصنف أنه قد أثبت بطريقة علمية سليمة أن التصوف لم يعرف إلا في القرن الرابع، وها هو الآن يقول: إن الأستاذ الجنيد من أئمة الصوفية، وهو الذي توفي كما بينا في حينه في ٢٩٧هـ؛ مما يسحب الثقة في كل ما قاله في كتابه الذي بين أيدينا، لأنه ما بني إلا على المغالطات والجهل والتدليس والغش ومخالفة حتى أبسط البديهيات، كل هذا باسم الدين والدين منه براء، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثالثاً: لقد قلنا مراراً: إن للسادة الصوفية منهجهم في المعرفة وتحقيق الإيمان، وبيننا سابقاً أن هذا المنهج من صميم الكتاب والسنة، وأن المعرفة الكمبية قابلة للزيادة والنقصان، بل وللكذب والتدليس كما رأينا، وهي لا تعدو كونها تقليداً محضاً، أما إيمان ومعرفة العارفين من أهل الله وخاصته فإنه مشاهدة بنور اليقين.

قال ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمرو»^(١).

أتري بني إسرائيل أفضل عند الله من أمة محمد ﷺ، أم أقرب إليه من غيرهم؟ كلا وألف كلا، فلا شك ولا خلاف في أن أمة محمد ﷺ هي أفضل الأمم، ونبيها أفضل البشر، ورسالتها هي الخاتمة الناسخة الجامعة، وما كان في بني إسرائيل منه رطل ففي الأمة المحمدية منه قناطير مقنطرة.

ثم إن السادة الصوفية بالإضافة إلى هذا شددوا على طلب العلم الكسبي للمريد في بدايته، وهذا مشهور عنهم لا يكاد يجهله أحد، والغريب في ذاته غير

(١) رواه البخاري.

المستغرب من المصنف أن ابن تيمية رضي الله عنه يعرف هذا الأمر ويرويه عنهم، بل إنه ينقل عن الأستاذ الجنيد عبارة تخالف بل تناقض ما افتراه المصنف عليه فيقول: « قال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن وكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتدى به ⁽¹⁾ ».

ولم ينفرد الشيخ ابن تيمية بهذا، بل هو موجود في الرسالة القشيرية (ص 18 - 19)، وفي طبقات السلمى (ص 115 - 163) وغيرها.

ولا ريب أن ابن تيمية رضي الله عنه يخالف المصنف، إن لم نقل يعاكسه في ما ذهب إليه، وربما كان المصنف السلفي على صواب وابن تيمية على خطأ، فإنه من باب الممكن، ونرجو أن لا يغيب المصنف أن يعلم أن ابن تيمية بالإضافة إلى هذا كان يعرف سمو منزلة الأستاذ الجنيد العلمية، وفضله وعلو قدره بين أقرانه من كبار أئمة المسلمين فإنه يقول عنه: « فإن الجنيد قدس الله روحه كان من أئمة الهدى ⁽²⁾ ».

فيا أيها المصنف المحيط بكافة العلوم، ما عدنا نعرف بأي لسان نتحدث معك، فقد خالفت الأولين والآخرين والسابقين واللاحقين، زادك الله وأمثالك من المتوهبين علما.

ثم إن الشيخ ابن تيمية يشهد للإمام الجنيد بأنه من أئمة الهدى، وأنت تقر أنه كان من أئمة التصوف، فإذا جمعنا القولين خلصنا إلى أن الصوفية هم أهل الهدى، فسبحان من ينطق الإنسان بالحق من حيث لا يدري، هذا عن الشيخ ابن تيمية رضي الله عنه، فإذا ما جئنا إلى تلميذه الأكبر ابن قيم الجوزية فإننا نجد ينقل عن الأستاذ الجنيد قوله: « مذهبنا هذا مقيد بالأصول بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يقتدى به ⁽³⁾ »، ولا زيادة لنا قرب صمت أبلغ من كلام.

(1) الفرقان - الشيخ أحمد بن تيمية ص (65).

(2) الفرقان - الشيخ أحمد بن تيمية ص (98).

(3) إغاثة اللهفان - الشيخ ابن القيم (ج 1 ص 125).

أقطاب الصوفية وأولياؤهم

الأقطاب... جمع قطب، والقطب لغة ما عليه مدار الشيء، ومنه قطب الرحي، وفي اصطلاح المتصوفة القطب هو سيد الوجود في كل عصر.

المقصود بلفظ القطب

هذا ليس في اصطلاح السادة الصوفية وحدهم بل حتى أهل اللغة، إذ جاء في العديد من كتب اللغة والمراجع (أن القطب سيد القوم)⁽¹⁾.
والتعريف الأكمل أن القطب هو: أكمل الناس إيماناً في عصره، وكل الصفات الأخرى تابعة لهذه الصفة، فالناس يتفاوتون في البعد والقرب من الله سبحانه، فكما أن هناك أعصاهم وأبعدهم، فهناك أقربهم في الطرف المقابل.

وهو للوجود بمنزلة الروح للجسد، فكما أن الجسد لا قيام له إلا بالروح، فكذلك الوجود كله قائم بالقطب، وإذا زالت روحانية القطب من الوجود انعدم الوجود كله، وهذه القوة للقطب يقولون إنها من تحمله لسر الاسم الأعظم.

أولاً: يسمى الصفوة من عباد الله جلّ اسمه وتقدس صفاته كما جاء في الأحاديث الصحيحة بالأبدال، ووفقاً لما هو معلوم بالضرورة من استحالة تساوي العباد في القرب من الرب الكريم، فهناك أفضلهم، وقد توارثت الأمة تسميته بالقطب.

(1) انظر القاموس المحيط - للفيروز آبادي (ج 1 ص 118).

ثانياً: عن قتادة، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث، عن الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الأبدال في أمتي، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون، قال قتادة: إني أرجو أن يكون الحسن منهم»⁽¹⁾.

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في الزهد، عن كعب رضي الله عنه قال: «لم يزل من بعد نوح في الأرض أربعة عشر يدفع الله بهم العذاب»، وفي نفس المصدر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض».

والمقصود أنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فتنبئ لهم الأرض، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء، والأمر مشروح بتوسع في فتوحات الحاتمي فليراجع.

وعن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال، وسبوا ظلمتهم»⁽²⁾.

فإن كانت روحانية القطب المذكورة هي ما جاء في الأحاديث عن الصادق المصدوق ﷺ فنعم، وإلا فلا ندري عما يتحدث المصنف.

ويقولون في كيفية وصول القطب إلى مرتبة القطبانية: إن القطب يترقى في مراتب كمال المعرفة والمشاهدة والمراقبة حتى يحصل له التحقق بالله في كل مرتبة، وبذلك يكون سيداً للوجود.

(1) رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک وقال: «صحيح»، وأقره الذهبي، ورفع الطبراني إلى الرسول ﷺ من غير «وسبوا ظلمتهم» وقواه ابن عساكر بمتابعات أخرى.

لقد قلنا سابقاً: إنه كلما ازداد المؤمن إيماناً وتقوى زاد قرباً من الله، والحكمة يعلمها الله وحده لم يخلق العباد متماثلين في درجة القرب هذه، ولا يجهل أحد من المسلمين وإن كان لا يعرف حتى كتابة اسمه أن الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم أفضل الأمة الحمديّة، وأن الصحابة أفضل ممن جاء بعدهم.

قال ﷺ: «في كل قرن من أمتي سابقون»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانه، قالوا: يا رسول الله! دلنا على أعمالهم؟ قال: يعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم»⁽²⁾.

وما من مسلم يندم على تفريطه في أمسه وتقصيره إلا وهو قد ترقى عما كان عليه بالأمس، وهذا ترقى العموم، أما الخواص فترقيهم من جنس حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقد كان رسول الله ﷺ يستغفر الله في الجلسة الواحدة أكثر من سبعين مرة، وفي رواية مائة مرة، وإذا علمت أنه ﷺ ما كان تصدر عنه المعصية أصلاً، علمت أنه كان في ترقى مستمر في درجات المعرفة والمشاهدة، وكلما وصل إلى درجة استغفر من التي قبلها، وهو الذي صح عندنا من ترقى الخواص.

هذا وما نقرره هنا أمور منها:

١) أن القوم يكذبون، وأمرهم مبني على الكذب، ثم هم في نفس الوقت يدعون أنهم لا يحييدون عن الكتاب والسنة قيد شعرة، ويتبجحون بذلك بلا حياء ولا خجل، رأيت لو قيل لهم في أي آية، أو

(١) رواه أبو نعيم، والحكيم الترمذي.

(٢) رواه الطبراني، وأبو نعيم، وابن عساكر من عدة طرق.

في أي سنة جاء ذكر القطب وصفاته وخصائصه ومراتب ترقياته ، حتى وصل إلى مرتبة القطبانية فأصبحت له السيادة على الوجود كله ؟ قطعاً إنهم لا ينطقون ، ونحن نقول لهم : إنه لا يوجد للقطب ذكر في كتاب ولا سنة ، وإنما يوجد ذكره وصفاته ومراتب ترقياته في كتب الزنادقة من غلاة الباطنية الناقمين على الإسلام .

بعض مما جاء في القطب والأبدال

عن شريح بن عبيد قال : « ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب فقالوا : العنهم يا أمير المؤمنين ، قال : لا ، سمعت رسول الله يقول : « الأبدال بالشام ، وهم أربعون رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، يسقى بهم الغيث ، وينتصر بهم على الأعداء ، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب »⁽¹⁾ .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن ، فيهم يسقون ، وبهم ينصرون ، ما مات أحد إلا أبدل الله مكانه آخر »⁽²⁾ .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً »⁽³⁾ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال ﷺ : « إن لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة ، قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ، ولله في الخلق أربعون قلوبهم

(1) رواه أحمد بن حنبل في مسنده ، ورجاله رجال الصحيح غير شريح بن عبيد وهو ثقة ، وهناك من يقول : « إن شريعا لم يلق الإمام علي » والأمر على كل حال لا يؤثر في صحة الحديث .

(2) رواه الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : « إسناده حسن » .

(3) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الواحد بن قيس وقد وثقه المعجلي وأبو زرعة .

على قلب موسى عليه السلام، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة، فيهم يحيي ويميت ويمطر ويدفع البلاء⁽¹⁾.

فلا ندري كيف يعد كل هذه الأحاديث التي يعضد بعضها بعضا ويقويه يكون أمر القائلين بالأبدال والأقطاب مبنيا على الكذب.

هذا من ناحية، أما الحكم الشرعي في القول بالقطب ووجوب الإيمان فقد بينه العلماء، ومن بينهم لشدة سوء حظ المصنف السلفي - الشيخ أحمد بن تيمية - فإنه يقول في معرض رده على الشيعة في قولهم بالمعصوم: (فإن قلتم إيماننا به - يقصد المعصوم عند الشيعة - كإيمان كثير من الصالحين والزهاد بإلياس والخضر والغوث والقطب ممن لا يعرف بوجودهم ولا أمرهم ولا نهيتهم قلنا: ليس الإيمان بوجودهم واجبا عند أحد، فمن أوجب الإيمان بوجودهم كان قوله مردودا كقولكم، وغاية ما يقوله الزهاد في أولئك: إن المصدق بوجودهم أكمل وأفضل ممن ينكر وجودهم⁽²⁾).

وهذا الكلام من الشيخ ابن تيمية رضي الله عنه نفيس جدا فإنه يقرر فيه أهم قاعدتين في هذا الأمر وهما:

(1) رواه أبو نعيم، وابن عساكر.

(2) منهاج السنة - للشيخ ابن تيمية، وانظر مختصر منهاج السنة المسمى منهاج الاعتدال للذهبي ص (26).

(1) أن الصالحين والزهاد هم الذين يقولون بالقطب والغوث دون غيرهم .
(2) أن الإيمان بهؤلاء ليس واجبا ولا محرما، بل يقول الصالحون من الزهاد:
إن المؤمن بهم أكمل من غيره .
وإن تعجب فعجب أن يرمي المصنف القائلين بهذا بالكذب مع ما صح في
هذا الشأن من أحاديث وآراء لكبار العلماء ويكون هو الصادق المصدوق .

2) إذا كان الكون والوجود كله قائم بروحانية القطب فماذا بقي لله تعالى؟ وما معنى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إذا كانت القيومية للأقطاب في كل شيء وعلى كل شيء .

أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه .
لا أدري من أين يأتي المصنف - هداه الله - بهذا الكلام، بل وكيف يتصور
أن يعتقد مسلم أن هناك مخلوقا إنسانا كان أم ملكا أم جناً أم جمادا يشارك من له
الخلق والأمر في ملكه أو قيوميته .
قال ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت،
خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما
صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا
أنت»⁽¹⁾ .

ولو سألناهم عن كيفية تحمل القطب لسر الاسم الأعظم، فهل
يقدرّون على الإجابة؟ اللهم لا، إنهم يفترون الكذب والله لا يهدي القوم
الكاذبين .

(1) رواه البخاري.

وسؤال آخر: كيف عرف أقطابهم بسر الاسم الأعظم دون سائر عباد الله؟.

جاء في كتب الفتوح والسير قصة العلاء بن الحضرمي، ونحن نختار الرواية التي اختارها الشيخ ابن تيمية رحمه الله فإنه يقول: «العلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حلیم يا علي يا عظیم، فيستجاب له، ودعا بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم»⁽¹⁾.

والسؤال الذي يوجه الآن للمصنف، كيف عرف العلاء بن الحضرمي بسر اسم الله الأعظم الذي دعا به حسب ما هو مشهور في مصادره دون من كان معه؟ وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «رأيت من العلاء بن الحضرمي ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبداً، رأيت قطيع البحر على فرسه يوم دارين»⁽²⁾.

ولو أن المصنف يتحدث بما يعقل لقلنا له: إن مثل هذه الأمور يتفضل الله بها على من يشاء من عباده، ولا دخل لكلمة كيف أو أي أداة من أدوات الاستفهام في هذا الشأن، ولكنه أبى إلا السؤال عما لا يسأل عنه، فنرجو منه بالمقابل أن يجيب عن سؤالنا.

إن الأحاديث النبوية الصحيحة تكاد تجمع على أن اسم الله الأعظم لا يخرج عن كونه الله أو الحي القيوم.

(1) كتاب الفرقان - للشيخ أحمد بن تيمية ص (146-144).

(2) طبقات ابن سعد (ج 4 ص 363).

الاسم الأعظم

مع شديد احترامنا لفقه المصنف لا سيما وأنه مدرس بالجامعة الإسلامية حسب ما ذكر على غلاف كتابه، إلا أن للعلماء في مسألة الاسم الأعظم عشرون قولاً، وللمحدثين اثني عشر حديثاً موقوفاً، وأحد عشر حديثاً مرفوعاً، فقليل: إنه (هو) وقيل: إنه (الله) وقيل: إنه (الله الرحمن الرحيم)، كما ذكر العلامة ابن حجر في فتح الباري، وقيل: إنه (بسم الله الرحمن الرحيم) لحديث عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين وصححه، وقيل: إنه في (الست الآيات الأخيرة من سورة الحشر)، كما رفع ابن عباس على ما جاء في مسند الفردوس للديلمى، وقيل: إنه (الرحمن الرحيم الحي القيوم) لحديث الترمذي، وقيل إنه (الحي القيوم) لحديث ابن ماجه والحاكم عن أبي أمامة رضي الله عنه، وقيل: إنه (الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام) لحديث أحمد وأبي داود وابن حبان والحاكم عن أنس، وقيل: إنه (بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام) لحديث أبي يعلى، وقيل: إنه (ذو الجلال والإكرام) لحديث الترمذي أيضاً، وقيل: إنه (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) لحديث أبي داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وقيل: إنه (رب رب) لحديث الحاكم، وقيل إنه (مالك الملك) كما أخرج الطبراني في الكبير، وقيل: إنه (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) لحديث النسائي والحاكم.

ثم وللسادة الصوفية في المسألة قول معروف عندهم، والكارثة أن يزج من لا يعرف مثل هذه التخصصات بنفسه فيها فيفسد من حيث يظن نفسه مصلحاً، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وإن خاصيته ليست في إدارة الملك والملوك والتصرف في الكائنات، وإنما هي في أن العبد إذا سأل به ربه أعطاه من الممكنات ما كتبه وقضى به أزلاً وقدرًا.

إن خاصية اسم الله الأعظم كما هو معروف عند كل أهل العلم بدون استثناء، لما علموه من السنة النبوية المطهرة تكمن في أن الله تعالى إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب، ومن المسلم به أن الله تعالى إذا استجاب للعبد فإن هذا يعني بالضرورة أنه علم وأراد لهذا الفعل أن يكون، ولا أظن أن المصنف يرى أن المسلم إذا دعا الله جل وعلا باسمه الأعظم تحقق الطلب رغما عن الملك القدوس تبارك اسمه، فإن مثل هذا لا يخطر على ذهن مسلم.

وعلى شرط أن لا يتعدى في الدعاء فإن الله تعالى حرم ذلك بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ومن الاعتداء أن يسأل ما لم تجر به سنن الله تعالى بين الخلق في هذا الوجود، ومن ذلك أن يسأل الله أن يجعله متصرفا في الكون.

المقصود غالبا بالاعتداء في الدعاء التكلف، فقد سمع الصحابي عبد الله بن مغفل ابنه يقول: «اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون بالدعاء»^(١)، فهذا تفسير صحابي وهو أقرب من غيره فهما للمراد.

هذا من أغرب ما يسمع عن القطب والقطبية ادعاء الشيخ أحمد بن أحمد التجاني - راجع الجواهر والرماح التجانية - أنه خاتم الأولياء والأقطاب، فلا ولي بعده ولا قطب أبدا، كما أن الرسول ﷺ لا نبي بعده ولا رسول أبدا، وما أبعد هذه المقارنة وما أغربها.

(١) رواه ابن ماجه، والحاكم في المستدرک وصححه.

لقد بُحَّتْ أصواتنا وآلمتنا رقابنا من ترديدنا بأعلى صوت نستطيعه أن
كتاب جواهر المعاني وكتاب الرماح ليسا من تأليف الشيخ أحمد التجاني رضي
الله عنه، كما أنهما ليسا من الكتب الموثوق بكل ما جاء بها، ولا ينال القارئ من
قراءتها إلا تضییع الوقت، اللهم إلا إذا كان باحثاً مدققاً ذا إلمام وحسن فهم
ودراية، ثم كيف ينطق الشيخ التجاني وهو من هو بأنه لا ولي بعده مع علمه
المؤكد بما يعلمه عوام الناس وسوقتهم، فضلاً عما هو في مكانته أن كل مؤمن
تقي هو ولي الله.

اللهم إذا كان يقصد بأنه لا ولي بعده في درجته ومستواه، فهذا يعقل، إذا لا
ريب أنه كان وسيكون من هو دونه ومن هو أعلى منه، وكل إنسان هو حالة خاصة
بذاتها لا تتكرر كما لا تتكرر بصمة إصبعه أو ذبذبة صوته، وفضل الله وقدرته
سبحانه لا حد لهما، ولهذا لم يكن في كل الأمة المحمدية إلا أبو بكر واحد، وعمر
واحد، وعثمان واحد، وعليّ واحد.

الأولياء، جمع ولي، وهو لغة من يتولى الأمر قياماً به، ومحافظة
عليه، ولذا يطلق على الحاكم والوصي والقريب، وفي عرف الشرع:
الولي هو المؤمن التقي، وذلك لقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ۝﴾.

وظهور الكرامات على يديه ليست شرطاً في إثبات الولاية وإن كانت
من لوازم الولاية والاستقامة على الشرع قياماً بالأمر واجتناباً للنهي من
أظهر الكرامات وأجلها.

صفة ولي الله تعالى

نعم، كل ما قاله المصنف عن الولي والولاية صحيح مع إضافة أن ولي الله هو المؤمن التقي المخلص لربه المحكم للنبي ﷺ في الحلال والحرام، الذي لا يدع الكتاب والسنة لغيرهما ويدع ما سواهما لهما، الذي لا يدعو إلى بدعة ولا ينتصر لغير الله تعالى ورسوله ﷺ، حاله ومعناه في مرضاة وليه سبحانه يدعو إليه ويحارب من نهاه عنه، لا يتخذ دينه لهوا ولعبا ويحسن التوحيد والعبادة ويعلم الصراط المستقيم ويحب أهله ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: 177).

وأما الولي عند المتصوفة فقد عرفه صاحب الطريقة التجانية بعد أن سئل عنه فقال: الولي من تولى الله أمره بالخصوصية مع مشاهدة الأفعال والصفات، وهو كما ترى تعريف غامض لا شتراطه الخصوصية مع قيد المشاهدة، مع العلم أن الله تعالى لا يتولى إلا المؤمن التقي، ولا تتم التقوى إلا بالعلم، وهو معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته ومعرفة محابه ومكارهه، ليفعل المحاب ويتجنب المكاره.

ولاية الله للعبد وولاية العبد لله

هناك نوعان من الولاية: (الأولى): ولاية الله تعالى للعبد وهذه تكون اجتناباً بمحض الفضل والكرم الإلهي، إذ إن الله تعالى غني عن عبادة العالمين، ولا يلزم تقدست ذاته وجلت صفاته بموالة العبد وهو معنى قوله تعالى كما هو

معلوم: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء: III).

(والولاية الثانية): هي هداية بمحض الفضل والكرم الإلهي، وهي ولاية العبد لله تعالى حيث يوالي الولي لله العمل بطاعته سبحانه وتعالى لفرقه وحاجته فيلتزم بما يرضي ربه فعلاً وتركاً.

والمقصود بالعبارة المذكورة، الحديث عن الولي بولاية الله تعالى له وهو المقصود بتولي الأمر بالخصوصية، إذ لولا خصوصية الله تعالى لهذا العبد لما قبله ووالاه، فتكون من الله له الولاية ومنه لله المراقبة وهي مشاهدة الأفعال والصفات فتجتمع الولايتان، ولاية الولي لمولاه، وولاية العبد الذي آمن واتقى لوليه.

وأولياء الله تعالى مراتب ودرجات، إذ كما قلنا سابقاً: كما يتفاوت الناس في عداوة الله سبحانه وتعالى، يتفاضلون في ولايته، وأفضل أولياء الله تعالى فاطمة هو سيدنا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين، وإمام المرسلين المتقلب في الساجدين ورأس العارفين، ثم بقية أولي العزم من الرسل وهم: نوح، وإبراهيم وموسى، وعيسى عليهم وعلى نبينا وكل الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأطيب السلام، ثم بقية المرسلين ثم الأنبياء ثم صالح المؤمنين.

وأولياء الله عموماً ثلاث مراتب: سابق مقرب، أو صاحب يمين مقتصد، أو من الأبرار وهم الممثلون للأمر والنهي دون النوافل والمندوبات، وخير منهم جميعاً السابقون المقربون الذين جمعوا بين الواجب في الأمر والمحرم في الترك، وفي كل هذه الحالات من الولاية يلزم أن يعرف الولي محاب الله ومكارهه ليتقرب إلى الله تعالى بما يحب ويترك ما يكره.

والسر في غموض تعريف القوم للولي هو احتكارهم للفضائل كي لا تكون لغيرهم من سائر المؤمنين والمسلمين.

لقد شرحنا التعريف المذكور، ووضح أنه ليس في الأمر غموض ولا عدم وضوح إلا عند المصنف، الذي كان عليه أن يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، ليشرحوا له ما عجز عن فهمه، لا أن يجعل من ذلك حجة، ومن ثم قاعدة ينطلق منها ليثير الزوابع والأعاصير، فعدم فهمه لما يقال لا يتحمل مسؤوليته أحد إلا هو نفسه.

وبذلك تختص الولاية بمشائخ الطرق المأذون لهم في إعطاء الورد والتربية الخلوية.

قلنا: إن أولياء الله تعالى هم صنف وإلاه الله تعالى، وصنف وإلى الله، ومشائخ الطرق مثلهم في هذا مثل كل الموحدين منذ أن وجد الخلق، فهم إما أن يكون الله سبحانه قد والاهم أو يكونوا قد والوا الله، فإن كل من آمن واتفق واشتغل بالله يصدق عليه أحد تعريفى الولاية، ولكن لأن المصنف لم يعرف المقصود بكلمة الولاية فإنه قد أكثر من استعمال الألفاظ في غير ما محلها حتى خلاص إلى هذه النتائج التي نترك للقارئ تقييمها.

ومن هنا كان الولي عند الصوفية لا يعرفه إلا الخواص، أما عامة المسلمين فلا سبيل لهم إلى معرفة الولي، يشهد لهذه الحقيقة ويقررها كما يلي:

سئل الشيخ أبو العباس أحمد التجاني عن الله تعالى وعن الولي، أيهما معرفته أصعب؟ فقال: معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى، وعلل ذلك بقوله: لتمييز صفات الله تعالى لمباينتها لصفات الخلق، أما الولي فإن صفاته كصفات سائر الناس من الأكل والشرب والنكاح... إلخ، فلذا هو لا يتميز ولا يعرفه إلا الخواص.

معرفة الولي

كل يوم تبدي صروف الليالي خلقا من أبي سعيد عجيبا

وقد بلغ الأمر بأبي سعيدنا إلى المخالفة حتى فيما لا يخالف فيه، فمن ينكر أن معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى، وهاهم كفار قريش يؤذون ويحاربون رسول الله ﷺ الصادق المصدوق ويكذبونه، في الوقت الذي يعترفون فيه بالله ووجوده، على كفرهم وشركهم وشدة وثنتهم ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿المؤمنون: 84، 89﴾.

بل إنهم أقروا بأنهم لا يعبدون أصنامهم إلا لتقريبهم إلى الله زلفى، فهم لا ينكرون وجود الله سبحانه، بل ويعترفون أن للكون خالقا وصانعا يتقرب إليه، ولو أنهم عرفوا وشاهدوا ولاية الله تعالى لرسوله ﷺ وولاية رسوله له لما خالفوه وأخرجوه وقاوموه، فإن الخلاف كان مركزا على نبوة محمد بن عبد الله ﷺ، وهي من أرفع درجات الولاية، ولقادهم ذلك بالضرورة إلى الإيمان بكل ما جاء به.

فالولاية غيب من الغيوب، والإيمان بها أصعب من الإيمان بالمعروف بكماله وجماله، وأشد أنواع الحجب هو حجاب المماثلة أي البشرية، وذلك بأن يمارس الولي عادات وأفعال عامة الناس، وقد قال المشركون لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصْهَبُوا عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مِثْلِ﴾ (إبراهيم: 10).

فوضح أن البشرية هي الحجاب الذي ستر خصوصية الرسل، وهو المقصود بالضبط بالتعريف المذكور، والذي هو من كلام الشيخ أبي العباس المرسى وليس التجاني كما وهم المصنف.

ويتتابع عرض القضية في القرآن الكريم، فيذكر إجابة الرسل على الكفار والمشركين: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١١﴾ (إبراهيم: ١١)، فذكر أنهم وافقوا المشركين على أنهم بشر، ولكنهم اتبعوا هذا الإقرار بذكر خصوصيتهم، بل وشهد الكافرون بأن ما حجبهم ومنعهم الإيمان بما جاء به الرسل هو بشريتهم بوضوح أكثر إذ قالوا: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 7)، فكان رد الله تعالى عليهم أن شهد لهم بالضلال فلا يستطيعون سبيلا.

والخلاصة أنه كما قال الشاعر:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وأبعد المراسي وهو من أئمة الصوفية في تعريف الولي حتى قال: إن الولي لو كشف للناس لعبوده، لأن حقيقة الولي أن يسلب من جميع البشرية ويتحلى بالأخلاق الإلهية ظاهرا وباطنا، ولذا لو كشف الولي للعبد لعبده، وقالوا: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي، وهذا تفضيل منهم للولي على النبي بأسلوب خفي، وعللوا ذلك بأن دعوة الأنبياء خاصة بأئمتهم ودعوة الولي عامة، فلذا هو أوسع دائرة، ولازم هذا أن الولي أفضل من النبي، وهو كما نرى ضلال مبین.

لقد شرحنا سابقا أن المقصود بتفضيل الولي عن النبي يكون في الشخص الواحد، فكل نبي ولي ولا كل ولي نبي، والله تعالى لا يتخذ نبيا من أعدائه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 257).

واشترطوا للولي الأوسع دائرة أن يكون مأذونا له في الدعوة بالإذن الخاص لا بالإذن العام، الذي هو مثل قوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»، والإذن الخاص يحصل عليه إما بإذن الشيخ المأذون له، وإما بالكلام اللدني الذي أقام جل أصحاب الطرق طرائقهم عليه، وهو ضلال وكذب وكفر والعياذ بالله تعالى، وقالوا: إن من نهض إلى دعوة الخلق إلى الله تعالى بالإذن العام وليس له شيء من الإذن الخاص لم يشفع لكلامه، ولم يقع عليه إقبال، فإن لسان الحق يقول له بلسان الحال في بساط الحقائق: ما أمرناك بهذا، ولا أنت له بأهل، إنما أنت فضولي.

خرج المصنف عن موضوع البحث وهو الولاية، إلى أمور سبق وأن تكلمنا فيها ووضحناها فليراجع ما كتبناه عن الإذن والعلم الوهبي.

ويعظمون من شأن الولاية.

لو أننا مثل بعضهم من عبدة الألفاظ المتمسكين بالظاهر من كل شيء دون لبه ومعناه، لقلنا في المصنف ما يقال لمن ينطق بمثل هذه الألفاظ. وإلا فما الذي يُعَظَّم إن لم تعظم ولاية الله تعالى يا سيادة المصنف؟ وفيما نسعى إذا؟.

حتى قالوا: من ادعى أنه ولي يموت كافرا والعياذ بالله.

عقوبة مدعي الولاية

سبرت كل ما بيدي من كتب السادة الصوفية والتصوف، بعد أن راجعت

ما قدرني الله تعالى على مراجعته مما أحفظ في هذا الشأن، فما استطعت أن أجد لهذه الجملة أصلاً أو ذكراً، ولسوء الحظ فإن المصنف لم يذكر من أين أتى بها، فإن كانت من بنات الأفكار فقد أخطأ لسان قائلها، وإن كانت منسوبة للمذهب - وهو ما يستحيل كونه - فيعلم الله أنني لا أعرف لها معنى، إذ المعروف أن الأعمال بخواتمها، وأكفر الكفرة وأشدهم عداوة لله نشهد له بالموت على الإسلام إذا نطق بالشهادتين وتاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

وارتداد العديد من الصحابة كالاشعث بن قيس وغيره، ثم إسلامهم من جديد ما أخرجهم عن فضلهم كصحابة أو تابعين على خلاف بين أهل العلم.

وأين ادعاء الولاية من ادعاء صحبة الرسول ﷺ كذباً وزوراً، وما في ذلك من خطر شديد على الدين، إذ قد يصدقهم الجهلة والعوام وأشباههم فينسبون للرسول ﷺ ما يحسبه البسطاء من الدين كما فعل رتن الهندي، ومكلمة بن ملكان، وأسد التركي، وجبير بن الحارث، وجعفر بن نسطور الرومي، وسرياتك الهندي، وغيرهم ممن ادعى صحبة الرسول ﷺ بعد موته بمئات السنين، ولم نعلم أن أحداً من أهل العلم شهد لهم بالموت على الكفر، وغاية ما وصفوا به أنهم كذابين مدعون، وهو ما يوصف به مدعي الولاية.

والحكاية التالية تكشف لنا عن مدى بعد الولاية في اعتقاد القوم واحتكارهم لمنصبها ومقامها، ليبقى كل المؤمنين أعداء لله تعالى غير أولياء له، إلا ما كان من مشائخ التصوف وأئمتهم فإنهم الأولياء.

قال الشيخ أحمد التجاني في كتابه الجواهر في رجل لا يمشي إلا ساتراً وجهه، قال: ولعله بلغ مرتبة الولاية، فإن من بلغها يسير كل من رأى وجهه لا يقدر على مفارقتها طرفه عين، وإن فارقه وانحجب مات لحينه، وحسبك أخي المسلم بهذا التعريف للولي من تعريف، إنه سخرية وهزاء بعقول المؤمنين.

أولاً: لا زلنا نحسن الظن بالمصنف رغم إصراره على نسبة كتاب الجواهر للشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه ورغم أن اسم مؤلفه مكتوب على غلافه، وننسب فعله للغفلة التي زادت عن المعدلات المتعارف عليها.

ثانياً: لقد قلنا: إن كتاب جواهر المعاني لعلي حرازم، ليس من الكتب الموثوق بكل ما جاء بها.

ثالثاً: نذكر المصنف أنه نقل منذ قليل في ختام حديثه عن الأقطاب عن الجواهر أن الشيخ التجاني قال: إنه خاتم الأولياء.. إلخ، ومن المعروف عند كل أحد علم أو جهل، إن الشيخ التجاني لم يكن يستتر وجهه، وما هو ينقل لنا أن من بلغ مرتبة الولاية لزم أن يغطي وجهه، لأن من رأى وجهه لا يقدر على مفارقتة طرفه عين، وبناء عليه كيف يكون الشيخ التجاني ولياً ولا يغطي وجهه؟ فلزم بالضرورة أن تكون إحدى الروايتين كذباً لاستحالة صدقهما معاً، هذا عقلاً.

أما نقلاً: فإنه لا يوجد في كتب الحديث والسير والسنن أن الرسول ﷺ أو أيّاً من الصحابة كانوا يسترون وجوههم، وبناء عليه فهم ليسوا من أولياء الله تعالى، وكيف يتصور أن ينطق الشيخ التيجاني وهو الشيخ التيجاني بهذا الهرء، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

هذا والذي يستنتج من صنع القوم في تعريف الولي، أنهم يحتكرون هذه الألقاب لاستغلال العامة بها، والتحكم فيهم بواسطتها.
فدل هذا على أن التصوف قد استغل استغلالاً فاحشاً في ضرب أمة الإسلام وتحطيمها والقضاء عليها، فكم عانت أمة الإسلام من أتعاب، وكم ذقت من ويلات، وكم تعرضت لفتن آثاراها استعمار الغرب لجل بلادها.

هذا الكلام سبق وأن ذكره المصنف شبه حرفيا في بداية الكتاب فليراجع ما ذكرناه حين ذاك، فليس لنا مقدرة المصنف على التكرار.

وذلك منذ أن ظهر التصوف النظري الفلسفي في حدود القرن الثالث الهجري.

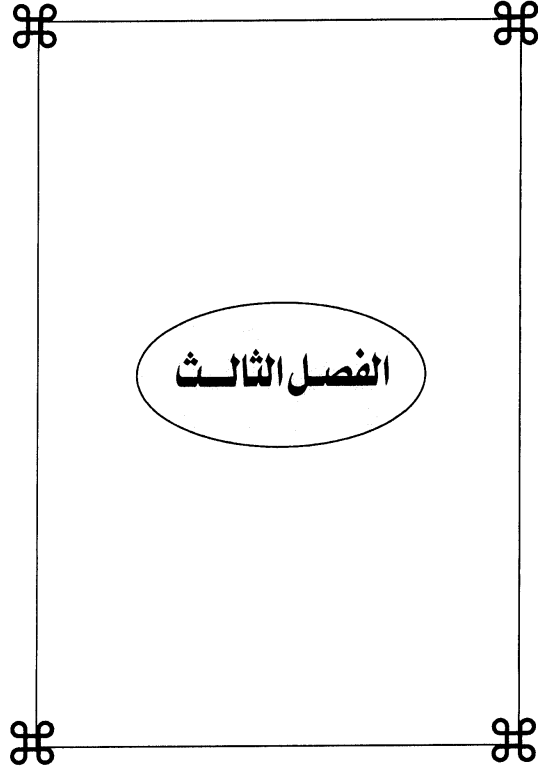
يظن الكثيرون خطأ أن هناك تصوفا فلسفيا وآخر عمليا وآخر نظريا... إلخ، ولكن في الحقيقة أن التصوف كله واحد، والذي يختلف هو أسلوب التعبير من صوفي الآخر، والمقدرة على ترجمة الواردات من ثم.

وإن شئت قلت: إن التصوف كتاب تتغير صفحاته بدون أن تخرج عن الموضوع، ولو حاولت حذف إحدى ورقاته صار الكتاب ناقصا، وإن أدخلت ورقة أجنبية عنه شذت عن الباقيات.

وإن أردت وضوحا أكثر قلت: إن الصوفي هو رجل بعينه لم يتغير منه على مر القرون إلا عصره وما يستلزمه.

ومع ظهور اليوم دعاء للتصوف، إذ عز عليهم أن تحررت أمة الإسلام من الاستعمار الغربي، فجاءوا يلهثون يؤلفون الكتب، وينشرون الرسائل، يدعون إلى التصوف من جديد، وما علموا أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

يكاد المصنف يجبرنا على إعادة كتابة الكتاب كما هو من جديد، فقد ابتدأ في تكرار مقدمته من حيث ظنناه انتهى.



الفصل الثالث

فى الحقيقة، ما كنت أود الخوض والحديث فى هذا الفصل الذى اختار له المصنف عنوان «لغات من الوجه المظلم للتصوف» وذلك لأن المصنف خرج فيه عن الأسلوب العلمى السليم إلى التحامل وسرد الحكايات والروايات بأسلوب يقرب إلى قصص العجائز فى ليالى الشتاء حول المواعيد، فإنه طوال هذا الفصل لم يعمد إلى مناقشة أو تحقيق أى من الأقوال التى ذكرها، واكتفى بذكر الفقرات والجمال والعبارات التى وقع اختياره عليها بدون تخريج أو ذكر للمصدر الذى نقلها عنه، وغالبًا ما ينسب الأقوال لغير قائلها قاذحًا، والقذح سلاح العاجز، ثم يهول ويشنع.

ولا يخفى على عاقل أن مثل هذا الأسلوب فاقد للمصداقية العلمية التى تجعل منه موضوع مناقشة وحوار، وليس هناك من فائدة فى التحدث فيه، إذ لا ينطلي هذا الكلام إلا على السذج والبسطاء الذين يصدقون كل من يخدعهم بكلام منمق وبراق دون المطالبة بمستند الدعوى والمصادر والمراجع، اتباع كل ناعق ممن لا يحمدون عدلاً، ولا يذمون جوراً، وهؤلاء ليسوا هم المقصودين بحديثنا أصلاً.

كذلك فإن تتبع التشابه والموضوع والتقاطه من هنا وهناك، والإعراض عن الآراء الصحيحة الصريحة قطعية الصدور، يسحب الثقة من آراء المتكلم وعلمه، ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيصبح منطقياً غير أهل للثقة.

ثم إنى رأيت أن الكتابة فى هذه الكلمات التى بذرها البعض فنبتت كالورم الخبيث، واخترعت تضليلاً وافتياتاً، ملفقة مزيفة مريضة ضالة تافهة، لا تحوى قيمة شاذة وأجنبية عن الجو الصوفى الطاهر النقي العفيف، ما وجدت فى كتاب صوفى ولا خطها قلم ولا جرى بها يراع، وحتى إن وجدت فقد حرفت عن معناها ومقصدها الذى أرادها لها أصحابها إلى وجهات تتفق مع الأغراض والمآرب المشبوهة، رأيت أنه قد يكون من المفيد عدم الإعراض عن هذا الفصل.

وقد عول المصنف في هذا الفصل على كتب خاضت في هذا الموضوع نقل منها حرفياً ما أراد، من أهمها كتاب اللواعظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (597هـ) – ويلاحظ أنه غير ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية (751هـ)، وغير فيزوغلي سبط الجوزي (654هـ) – أسماه «تلبيس إبليس»، جعل أكثر من نصفه قدحا وذما وتأليباً على التصوف وأهله، وحشى كتابه بالأباطيل والترهات والأكاذيب، وهو في كتابه هذا بين أمرين:

إما أنه كان ساذجاً وبسيطاً، صدق كل ما سمعه بدون أدنى درجات التثبت، وإما أنه كان يختلق الروايات ليقيم حجته، ولكنه على كل حال ما كان من المحققين، ولا كان كتابه من المصادر الموثوقة، وقد ذهب في سبيل إثبات صحة رأيه إلى الخروج حتى عن أبسط البديهيات، فعلى سبيل المثال لم الحارث المحاسبي بسبب حديث ذكره الحارث في أحد كتبه فأنكره ابن الجوزي بحجة أن أبا ذر الغفاري توفي قبل عبد الرحمن بن عوف بسبع سنين (انظر ص 173-174)، وإذا علمت أنه حتى المبتدئ في علم الرجال يعرف أنهما توفيا في سنة واحدة، عرفت أن الرجل كان متحاملاً إلى أقصى درجة، ناهيك عما حشى به كتابه من الأحاديث الموضوعية، والروايات التي لا تصح ولا تعقل كروايته عن أبي بكر بن حبيب، عن أبي صادق، عن ابن باكوويه قال: سمعت عبد الله بن خفيف يقول: كنت في ابتدائي بقميت أربعين شهراً أفطر كل ليلة بكف باقلاء، فمضيت يوماً فافتصدت، فخرج من عروقي شبه ماء اللحم، وغشي على فتحير الفصاد، وقال: ما رأيت جسداً لا دم فيه إلا هذا (انظر ص 203)، وإذا أردت أن تعرف الكذب في هذه الرواية فاسأل أي طبيب تعرفه عن إمكانية كون الدم بدون لونه المميز كما يبدو ماء اللحم، هذا لأنهم كانوا يرون أن للون الدم علاقة بالأكل، فيخضر ويصفر ويحمر تبعاً له إذا لم يكونوا قد عرفوا بعد كريات الدم الحمراء أو البيضاء، وذكر ابن الجوزي في تلبيسه الكثير من هذا الهراء والخزعبلات ليدلل من خلالها على رأيه منها: أن خبز الشعير والملح يضران الدماغ، وتقليل الطعام يوجب تنشيف المعدة وضيقها، وأكل الخبز بدون أدام يورث القولنج (انظر ص 207).

واعطف عليه قوله: «أخبرنا محمد بن القاسم، عن أبي محمد التميمي، عن عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا بكر الرازي يقول: قلت لأبي بكر الدقاق وكان يفرد عين: ما سبب ذهاب عينك؟ قال: كنت أدخل البادية على التوكل، فجعلت على نفسي أن لا أكل لأهل المنازل شيئاً تورعاً، فسالت إحدى عيني على خدي من الجوع»، وإذا علمت أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحدث هذا، إذ للجوع مراتب من الضر والأذى آخرها الموت جوعاً، وليس منها سيلان العين أو الأذن، وإن لم تكن طبيبا لتعلم هذا فإنك لا شك قد سمعت وسائل الإعلام تتناقل كل فترة أخبار المضربين عن الطعام، ولم ولن يحدث أن سالت عين أحدهم أو أنفه، وأقصى ما حدث لهم هو الموت.

أما في مجال الأسانيد، فحدث ولا حرج، فإنه يروي مثلاً: «قال أبو محمد ابن جعفر بن عبد الله الصوفي: رأيت بيت المقدس فتى من الصوفية... إلخ (انظر ص 262)»، وإذا علمت أن أبا حمزة الصوفي توفي في (270هـ)، وأن ابن الجوزي توفي في (597هـ) لزم أن يكون عمر الراوي أبو محمد بن جعفر الصوفي ما يزيد عن مائتين وخمسين سنة.

والخلاصة أنك إن تعقبت هذا الكتاب بالبحث والتحقيق لن تحصل منه على مقدار الخمس حقائق ووقائع صادقة، والعجب أن نجد في وقتنا هذا أناساً لا زالوا يصدقون هذه الحماقات والسخافات ويأخذون ما بهذا الكتاب وأشباهه من مخلفات السذج والبلهاء أو ذوي الأغراض المنحرفة حقائق قرآنية غير قابلة للنقاش، مما يدل على تفاهة عقولهم وضحالة علومهم وارتجاج فكرهم.

واعطف عليه كتاب آخر لكاتب معاصر اسمه عبد الرحمن الوكيل، جمع فيه كتابين لبرهان الدين البقاعي اسم الأول «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي»، والثاني «تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد» في كتاب واحد أسماه (مصرع التصوف)، وجعل تحته حاشية من تعليقه لم يترك فيها واحداً من كبار علماء الإسلام إلا قذفه ونبزه ولمزه، كحجة الإسلام الإمام الغزالي (انظر ص

135/68/67/51/23)، والقاضي عياض صاحب الشفاء (انظر ص 24)، والقاضي الحنفي السراج الهندي (انظر ص 56/55)، والحافظ السخاوي صاحب الضوء اللامع (انظر ص 56) والباقلاني (انظر ص 118)، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني (انظر ص 118) والأشعري نفسه والأشاعرة عموماً (انظر ص 118) ورمي من يرى رأى الخلف في الصفات بذيمة الأوصاف (انظر ص 255/191/187/66)، واعترض على المذاهب الأربعة بحجة أنها ليست هي الكتاب والسنة (انظر ص 217)، بل ولم يسلم من سخاء قلمه حتى البرهان البقاعي نفسه (انظر ص 195/24/18)، وكأنه لا يوجد علم ولا عالم إلا فضيلته، ويطلب منا جميعاً التسليم الكامل لفخامته في كل ما قال، إذ الجميع في ضلال وجلالته على صواب. ثم أتى بقاصمة الظهر وشنيعة الدهر، فشكك بخبث وقلّة حياء في أصدق كتاب موجود بين أيدي المسلمين بعد القرآن الكريم وهو الجامع الصحيح للبخاري (انظر ص 85/84)، الكتاب الذي أجمعت الأمة قاطبة على تلقي ما فيه بالقبول بعد أن تأكدت أنه لا يحتوي إلا على أصدق الأحاديث والسنن.

وهذا مذهب هؤلاء المفسدين في الأرض، الذين يريدون سلب روح الإسلام وهو التصوف عن جسده، فيذهبون في سبيل تأكيد أكاذيبهم وادعاءاتهم كل مذهب، ثم تقول: إنهم رأس الفساد والشقاق والفتن بين المسلمين، فالأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لحاجات من الوجه المظلم للتصوف

تبياناً للحق، ومبالغة في التحذير من الوقوع في حبال صيد المتصوفة، ننشر بعض الكلمات التي أثرت عن أئمة الصوفية.

1- ليس على المخلوق أضر من الخالق.

أبو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب

أبو طالب المكي

لأبي طالب المكي رضي الله عنه تفسير كبير أشار إليه الخفاجي في شرح الشفاء، ولم يذكره غيره إلا نقلاً عنه ولم يشير أي من الباحثين المهتمين بنشر كتب التراث والعلوم الإسلامية إلى عثوره على هذا المخطوط فيما نعلم، وله أيضاً كتاب علم القلوب، والذي لا ريب فيه أن المصنف لم يسمع به فضلاً عن أن يراه، لا توجد به هذه العبارة، وله أربعون حديثاً أخرجها لنفسه ليس له فيها إلا الرواية، ولا أثر لهذه العبارة بها، وأشار ابن خلكان⁽¹⁾ إلى كتاب التوحيد لأبي طالب المكي، والغالب أنه قصد كتاب قوت القلوب، وهو يتكون من جزئين، الأول (272) صفحة، والثاني (298) صفحة، ولا توجد هذه العبارة بهذين الجزئين، ولا حتى إشارة لها، ولم يذكرها إلا ابن الجوزي في تليسه، وقد تحدثنا سابقاً عن هذا الكتاب، ونقلها عنه من جاء بعده.

وأيضاً فإننا قد أشرنا إلى سماجة وسخافة ترك كتب القوم ومصادرهم الصحيحة والتقاط الأكاذيب وسوق التهم جزافاً بدون بينة.

2- أنا أعشق الله والله يعشقني.

أبو الحسن النوري

اكتفى المصنف هنا بإيراد هذه العبارة، ولم يذكر الوجه المظلم بها على حد زعمه، مما لا يجعل أماننا من سبيل إلا الاجتهاد.

فإن كان الاعتراض على كلمة عشق، فهي تعني كما قال الفيروزآبادي صاحب القاموس «عجب المحب بمحبوبه»، وللمحب في اللغة ستون اسماً تقريباً،

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان - تحقيق د/ إحسان عباس (ج 4 ص 203).

أحدها العشق⁽¹⁾ وحين أقبل الرسول ﷺ إلى جبل حراء حيث كان يخلو بربه ويتعبد، قالت العرب: إن محمداً قد عشق ربه، فكان القائل قال: أنا أحب الله والله يحبني، ومعلوم أن العبد لا يكون في حال إلا إذا سبق له من الله، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (التوبة: 118) وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: 54)، فانت لا تحب الله حتى يحبك، ولا تتوب حتى يتوب عليك، وقس عليه سائر الأحوال.

وإن كان الاعتراض على استعمال لفظ العشق في حق الله تعالى، فهذا لقلة الاطلاع، وإلا فقد قال تعالى في الحديث القدسي: «إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بي جعلت بغيته ولذته في ذكرى، فإذا جعلت بغيته ولذته في ذكرى عشقني وعشقتني، رفعت الحجاب بيني وبينه، وصيرت ذلك غالباً عليه لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء»⁽²⁾. والحديث من مراسيل الحسن، وقد اتفقت الأمة على قبول مراسيل اثنين من التابعين هما: سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وكان الحسن يقول: (إنما أطلقه - الحديث المرسل - إذا سمعته من سبعين من الصحابة)⁽³⁾ وقد ذهب إلى الاحتجاج به الأئمة الثلاثة⁽⁴⁾.

٣- علماء الرسوم (الشريعة) يأخذون خلفاً عن سلف، والأولياء يأخذون عن الله مما ألقاه في صدورهم.

ابن عربي

ومعنى هذا القول، أن الأولياء في غنى عن الشريعة الإسلامية، حيث هم يتلقون عن الله مباشرة، وهذا والله الكفر، وهو مذهب كثير من الروافض فليتأمل.

(1) روضة المحبين - ابن القيم ص (25).

(2) رواه أبو نعيم.

(3) مصطلح الحديث، الشيخ عبد الفنى محمود ص (23).

(4) الحديث المرسل حجة عند الأئمة: مالك، وأحمد، وأبي حنيفة، ولكنه عند الشافعي إذا اعتضد بأحد أمور معروفة عند أهل الاختصاص.

عودة إلى العلم الوهبي

أولاً: إن تكفير المسلمين الذين يشهدون أن الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله هو مخالفة لهدي المصطفى ﷺ الذي قال: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»⁽¹⁾.

ثانياً: ليس في هذا القول ما يعني الاستغناء عن الشريعة الإسلامية، إذ إن الأخذ عن الله تعالى هو من قبيل ما يفتح الله به على عبده، كما روى البخاري في الجزء الخامس ص (15) من صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر»، وليس في هذا ما يخرج بالمسلم عن الشريعة، بل هو نتيجة لحسن القيام بأوامر الشرع الكريم، ولو سلمنا لمنطق المصنف الأعوج لقادنا إلى أن عمر رضي الله عنه مستغن عن الشريعة وله شرع خاص به.

والمقصود بالأخذ عن الله تعالى، هو ما يلقي في الروح بطريق الفيض من غير استدلال ولا نظر، مما لا يخالف الشرع أو يأتي فيه بجديد.

وكان اسم امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عاصية، فأسلمت فأتت عمر فقالت: قد كرهت اسمي فسمني فقال: أنت جميلة، فغضبت وقالت: ما وجدت اسماً تسميني به إلا اسم أمة، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! إني كرهت اسمي فقال: «أنت جميلة، فغضبت، وذكرت قول عمر، فقال ﷺ: أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه»⁽²⁾.

نعم إن القلوب الصافية المصقولة تتلقى معارفاً من الله تعالى، وحقائقاً وأنواراً، ولا تقاس بغيرها من القلوب المكدرة المظلمة، وهذا هو المقصود بالتلقي عن الله عز وجل، وهو مؤيد بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: 282)، وقال: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: 29)، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: 108).

(1) متفق عليه.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (ج4 ص254) ترجمة رقم (232) نساء.

وسمع النبي ﷺ رجلا يدعو، اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الخنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حي يا قيوم) فقال ﷺ: «لقد سأل الله باسمه الأعظم»^(١)، ويلاحظ كل من يستطيع الملاحظة، ويفهم كل من رزق حتى شبه الفهم أن الرسول ﷺ لم يقل للرجل إنك في غنى عن الشريعة، لأن الله تعالى قذف في قلبك ما قذف، وما إليه من شاذ الأقوال وسقيمها، بل أقره على فعله، وليس بعد رسول الله ﷺ مشرع.

4- أنا الحق، وصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون.

الحلاج لعنه الله

الحسين بن منصور الحلاج

ذكر هذه العبارة صاحب كتاب «مصراع التصوف» المشار إليه سابقاً في صفحة (29) ونقلها المصنف - هداة الله حرفياً، وأصلها في كتاب أخرجه طيب الذكر مشكوراً نيكلسون أسماه «الطواسي» في صفحة (134) على أنه كتاب الإمام الحلاج الذي يحمل الاسم نفسه، وأدخل هذا النيكلسون في كتابه هذا كل ما نسب للإمام من أقوال، ودس عليه من افتراءات على أنها من أصل الكتاب.

ثم وكنتيجة منطقية حتمية للدعاية المركزة المشبوهة، التي روج لها البعض داخل أروقة الجامعات الإسلامية والمعاهد العلمية لهؤلاء المستشرقين بحجة العلم وحرية الفكر، حتى إن بعضهم إذا ذكر هؤلاء المشركين والكفرة ترحم عليهم كأنه يذكر صالح المؤمنين^(٢) وأئمة الإسلام، بل ولا يترحم على هؤلاء إلا مضطراً، وعلى أولئك مفتخراً، أقول نتيجة لكل هذا، ولما هو أكثر منه مما لا يخفى، اعتمدت أقوال نيكلسون أخزاه الله، أصبحت طواسينه قرآناً منزلاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

(١) انظر تعليق أبو العلا عفيفي على الفصوص لابن عربي (ج ١ ص ١٢، ٢٠).

من خلفه، ولا يتحدث باحث معاصر في التصوف إلا إذا ألم بها، فنسأل الله أن يمن علينا بالصبر.

ولأننا لا نريد أن نخرج عما نحن بصدد، نذكر بأن اعتناق الأفكار القائمة على تخطئة أعلام الإسلام هو مؤامرة يجب التيقظ لها، ونتيجة للجهل المركب كان للحلاج رضي الله عنه فيها النصيب الأكبر، جهلاً بأسباب قتله التي كانت سياسية بحتة، غلفت برداء ديني لمآرب منفعية ظالمة، وهو بالتحديد ما يريده أعداء الإسلام وقادتهم الروحيون من أهل الاستشراق، ويكفي أن نعرف أن هؤلاء يجمعون على مشاركة المصنف المدرس بالجامعة الإسلامية والواعظ بالمسجد النبوي الشريف رأيه، فإن شيخ الإسلام «ريسه» يرى أن الحلاج كان كافراً، ويراه المسلم الصادق «براون» دساسة خطيراً، ناهيك عن آراء الرجال الصالحين من أمثال «مولر» و«هوبلر» و«ثولك» و«كرانسكي»⁽¹⁾.

وقد علم هؤلاء أن التصوف هو روح الإسلام وقلبه، فحاربوه وسلطوا جل هجماتهم عليه، فأعلنوا أن التصوف ليس من الإسلام في شيء، لأن المشالية والصفاء والتسامح والتجافي عن دار الدنيا هي في كل شريعة إلا الشريعة الإسلامية، وإن تعجب فعجب أن يرمي «جولد تسيهر» اليهودي رجال التصوف بالكفر، ويصدق في كذبه وكبده.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: 30).

وهؤلاء المستشرقون الحاقدون على الإسلام الكائدون لأبنائه لا زالوا يجدون للأسف كما قلنا آذانا صاغية مطيعة ممن يدعي العلم، ولهم أغراض وأهداف يتسللون إليها بدهاء وخبث، فانظر مثلاً إلى صاحبهم نيكلسون وهو شيطانهم الأكبر، وهبلهم الذي يقتسمون أزماتهم عنده حيث يقول: (وإننا لنرجح أن النبي العربي كان شمولياً يعتقد بوحدة الكون أينما تولوا فثم وجه الله)⁽²⁾، وإننا لنجلك

(1) في التصوف الإسلامي - نيكلسون ص (126).

أيها القارئ عن أن تغمض عليك أقواله، فإنه يعني أولاً أن القرآن الكريم من وضع النبي ﷺ ثم يرميه - رماه الله في جهنم رمية لا قرار لها - بالقول بالوجود الواحد، ومع هذا لا زلنا نجد من يتشبه به، ويعتقد أقواله، ويبتها باسم الإسلام، نسأل الله القادر على كل شيء المغفرة والهداية لنا ولهم.

5- إن العارفين من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء، وهذا هو معنى وحدة الوجود والحلول والاتحاد.
صاحب هذا الكفر محيي الدين بن عربي

الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي

للشيخ الأكبر ما يقارب من خمسمائة كتاب يعلم منهم الآن مائتي كتاب، والباقي لم يعثر عليه بعد فيما نعلم، ومن أشهر كتبه «فصوص الحكم»، و«الفتوحات المكية»، وهما من أعظم كتب المكتبة الإسلامية على الإطلاق، وإن كانا لا يخلوان من الدس بشهادة المحققين.

وقد سئل الإمام الحصفكي: (من قال عن فصوص الحكم للشيخ محيي الدين بن عربي إنه خارج عن الشريعة، وقد صنفه للإضلال، ومن طالع ملحد، ماذا يلزمه؟) أجاب: نعم فيه كلمات تبين الشريعة، فتكلف بعض المتصنفين إرجاعها إلى الشرع، ولكن الذي تيقنته أن بعض اليهود افترأها على الشيخ قدس الله سره)، وقد صنف الحافظ السيوطي كتاباً أسماه «تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي» بين فيه حقيقة منهج الشيخ الأكبر الذي ليس إلا الكتاب والسنة، وقال الشيخ البلقيني: (كذب والله وافترى من نسبه - يقصد الشيخ الأكبر - إلى القول بالحلول والاتحاد)، ولدينا عدة وثائق تثبت أن كتاب الفتوحات تعرض للدس والتزوير، فيقول الشعراني في اختصاره للفتوحات:

(وقد توقفت حال الاختصار في مواضع كثيرة منه لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة فحذفتها من هذا المختصر، وربما سهوت فتنبت ما في الكتاب كما وقع للبيضاوي مع الزمخشري، ثم لم أزل كذلك أظن المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محيي الدين حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين أبو الطيب المدني المتوفي سنة (955هـ) فذاكرته في ذلك فأخرج إلى نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محيي الدين نفسه بقونية، فلم أرق فيها شيئا مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسوا فيها على الشيخ⁽¹⁾.

ولدينا وثيقة أخرى تثبت أن الشيخ الأكبر لاحظ أن كتابه داخله التحريف والتغيير، فأعاد كتابته وترك نسخة أصلية عليها خط يده كمرجع، فقد ذكر المقرئ وهو المعروف بدقته وثبته (أن الشيخ الأكبر أرسل يستأذن الشيخ ابن الفارض في شرح تائيته فقال ابن الفارض رحمه الله: كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها⁽²⁾.

وإذا علمت أن ابن الفارض توفي في (632هـ)، والنسخة التي بخط الشيخ الأكبر كانت في أواخر حياته إذ فرغ منها في (635هـ) ذلك هذا على أن الشيخ لاحظ التحريف الذي طرأ على كتابه فأراد أن يجعل له حداً بأن يجعل من نسخته مرجعاً، ولا يبعد أن تكون النسخ الموجودة فيما بعد ذلك التاريخ خليط مما كتب الشيخ وغيره، وقد ذكرنا ذلك ليكون قارئ كتب الشيخ الأكبر على حذر.

والراجح عندي أن هذه الإضافات هي محاولات من البعض لشرح مغاليق كتب الشيخ وإشكالاتها، فأضاعوا المعنى من حيث لا يشعرون، ويظهر هذا واضحا في تغير الأسلوب فجأة من أسلوب الشيخ المشهود له بالتقدم والروعة، إذ هو أحد

(1) البواقيت والجواهر - عبد الوهاب الشعراني (ج 1 ص 9).

(2) نفح الطيب (ج 1 ص 570).

خمسة كُتّاب شهد لهم علماء الإسلام بالتقدم على سواهم من سابقين ولأحقين⁽¹⁾ إلى أسلوب تقرير عادي خصوصاً في الفتوحات.

ولنرجع إلى العبارة التي ذكرها المصنف وهي «العارف من يرى الحق في كل شيء بل يراه عين كل شيء»، وخوفاً من أن يتبادر إلى ذهن سامعها ما تبادر إلى ذهن المصنف، نجد أن الشيخ كرر في كتبه قوله: (إن العالم ما هو عين الحق، ولا حل فيه الحق، إذ لو كان عين الحق أو حل فيه لما كان تعالى قديماً ولا بديعاً)⁽²⁾. أو قوله: (أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه البعض أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها وإنما كان القمر محلاً لها، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه)⁽³⁾.

فالشيخ رحمه الله يبين بوضوح وصراحة أن الحلول والاتحاد لا يصح اعتقادها، إذ إن ذلك سيؤدي بداهة إلى سلب الصفات الواجبة لله وحده، مما يؤدي بدوره إلى لزوم فسادها.

فالعارف من أمسقط السوى بالكلية، فلا يرى في المخلوق إلا قدرة وإرادة الله تعالى، إذ ذهب المجاز وبقيت الحقيقة، حقيقة ما ثم إلا الله ظاهراً وباطناً أولاً وآخراً. وقد قلنا سابقاً: إن لكل طائفة اصطلاحات وألفاظاً تعارفت عليها لا يقف على مضمونها إلا هم، وإلى هذا أشار الجلال السيوطي رضي الله عنه بقوله: (واعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد، فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد، والتوحيد معرفة الواحد الأحد، فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشاراتهم، فحملوه على غير محله)⁽⁴⁾.

(1) جاء هذا في إذاعة المملكة العربية السعودية في برنامج مسائل ومشكلات بتاريخ 1985/2/20 في حديث لفضيلة الشيخ علي طنطاوي، والخمسة هم: محيي الدين بن عربي، وأبو حيان التوحيدي، وابن خلدون، وحجة الإسلام الإمام الغزالي، والجاحظ.

(2) الفتوحات المكية ابن عربي باب (559).

(3) الحاوي للفتاوي - جلال الدين السيوطي (ج 2 ص 134).

(4) الحاوي للفتاوي - جلال الدين السيوطي (ج 2 ص 134).

وأيضاً فإن الاصطلاحات والألفاظ لا تشرح، بل تفهم، ومن أراد فهمها وإدراكها فليكن في مستوى قائلها، قال شيخ الأزهر عبد الحليم محمود: (فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى أو يقارب المستوى، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه: رضي الله عن سيدنا محيي الدين بن عربي)⁽¹⁾.

والخلاصة: أن الذي يجب علمه يقينا أن الشيخ الأكبر كان إمام التحقيق حالاً ومقالاً، والشارح لعلوم العارفين فعلاً واسماً، لا ينطق بغير الله، ولا يسير على غير كتابه تعالى وسنة نبيه ﷺ، وكان شعاره دائماً (كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك)⁽²⁾.

6- قيل للتلمساني: هذا - إشارة إلى جثة كلب أجرب ميت أيضاً - هو ذات الله؟ فقال: وهل ثم شيء خارج عنها؟ فلينظر كيف جعل التلمساني وهو أحد أئمة الصوفية كل شيء في ذات الله تعالى حتى الكلب الأجرب الميت، أعوذ بالله من هذا الكفر العفن.

العفيف التلمساني

هو سليمان بن علي بن عبد الله، ويشتهر باسم عفيف الدين التلمساني المتوفي سنة (680هـ)، وله من المؤلفات كتاب « شرح أسماء الله الحسنى »، وكتاب « شرح منازل السائرين »، و « شرح مواقف النفري »، و « شرح فصوص الحكم »، وكلها لا تزال مخطوطة لم تطبع بعد فيما نعلم، وأيضاً كان له ديوان شعر متداول في عصره وُصف بالجودة، لدينا منه الآن اثنتا عشرة قصيدة تحتوي على مائة وأربعة وعشرين بيتاً.

(1) قضية التصوف المنقذ من الضلال - شيخ الأزهر عبد الحليم محمود ص (163).

(2) البواقيت والجواهر - عبد الوهاب الشعراني (ج 1 ص 7).

ولا توجد عنه معلومات ذات قيمة إلا في: البداية والنهاية لابن كثير، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، وشذرات الذهب للعماد الحنبلي، وغير هذه المصادر المطبوعة هناك مراجع مخطوطة تكلمت عنه، فقد ذكره المناوي في الكواكب الدرية وهو أفضل وأدق من تحدث عنه، وكتاب المنهل الصافي لابن تغري بردي، والوافي بالوفيات للصفدي، وتاريخ الإسلام للذهبي، وعيون التواريخ لابن شاكر، وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات، وكل هذه المخطوطات توجد الآن بدار الكتب المصرية.

والمراد بالعبارة التي ذكرها المصنف، أن الأشياء بالله إيجاداً وإمداداً، فالحي في ذلك والحيفة القذرة سواء، إذ لو وكل الله تعالى شيئاً لنفسه طرفة عين أو أقل من ذلك أو أكثر لتلاشى، وما كان له ماض أو حاضر أو مستقبل، ولا حتى شغل حيزاً من الفراغ أصلاً، ولا يقصد أن الجثة الميتة هي الله جل اسمه وتقدس ذاته وصفاته، وإلا لكان التلمساني رضي الله عنه حملها معه إلى البيت ولم يتركها محلها عند دار الطعام، بل على أنها مظهر من المظاهر السارية فيها قيومية الحي القيوم.

ويقع في خاطري أن الرواية لا صحة لها، وأول من ذكرها هو الشيخ ابن تيمية بلفظ: (مر شيخان منهم التلمساني والشيرازي على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعام، فقال الشيرازي للتلمساني: هذا - يشير إلى جثة الكلب الميت الأجرب - أيضاً هو ذات الله؟ فقال: وهل ثم شيء خارج عنها، نعم الجميع ذاته^(١)). وربما كان الشيخ ابن تيمية سمعها ورواها عن غيره بدون تثبت، إذ لم يلتق ابن تيمية والتلمساني رغم تعاصرهما.

نعم هي رواية صحيحة المعنى من حيث ما يعنيه أهل الإشارة بهذه الألفاظ، لا من حيث ما يفهمها عبدة القشور، ولكن في متنها افتعال ووضع واضح، إذ حشر فيها اثنان من السادة الصوفية، والجثة ليست جثة عادية لأي إنسان أو

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (ج ١ ص ١٤٥)، والرسائل والمسائل لابن تيمية ص (١٥٥).

حيوان، بل جثة متعفنة لكلب يتجس ما يبلغ فيه حال حياته، فما بالك به بعد موته، وبالإضافة إلى هذا هو أجرب يثير التفرز، فالافتعال في الرواية لا يكاد يخفى.

7- اللهم انشطني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أجد ولا أحس إلا بها.

من أوراد الشاذلية

إن معنى هذه الجملة من الكفر، أن صاحبها لا يرضى بلا إله إلا الله، ويرضى بأن يكون جزءاً من الله، تعالى الله أن يحل في مخلوقاته، أو يتحد به أو يتوحد معه علواً كبيراً.

الصلاة المشيشية

هذه العبارة مأخوذة من الصلاة المشيشية للشيخ عبد السلام بن مشيش وتتمها: وزج بي في بحار الأحذية، وانشطني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، وهي من أوراد السادة الشاذلية، حيث أخذها الإمام الشاذلي عن الشيخ عبد السلام بن مشيش، ويبدو أن المصنف لا يعلم أن الشيخ ابن تيمية رحمه الله قد انتقد هذه العبارة بالذات، وأن معظم من عاصره من العلماء خطفوه، وأسقطوا حجته، لأنه حمل الكلمات فوق ما تحتل، وقد بين الإمام ابن عطاء الله السكندري فساد ادعاءات ابن تيمية في حينه. والمراد بالإنقاذ من أوحال التوحيد، هو النجاة من الإيمان بالوحدانية القائم على الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، لأنه اعتقاد غير راسخ، وعرضة للتزعزع والارتياب، أما التوحيد المعني بعين بحر الوحدة فهو تلك العقيدة الفطرية المستقرة في أعماق الروح، والتي ليست بنتاجة عن النظر أو الاستدلال، وإنما هي وليدة الإحساس القلبي والفهم الوجداني.

وعلم التوحيد عند غير السادة الصوفية علم منطقي بحث، كما هو معروف، وقد ذهب بعضهم إلى إثبات وجود الله ووحديته بالنقل، كان يقول: قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أو ما شابهها من الآيات القرآنية الكريمة ليدلل بها، ولكن العقل مقدم على النقل في هذا الأمر، إذ لو كان المتحدث إليه مؤمناً بالقرآن لوحد الله بالضرورة، وعليه فهم يشبهون وجود الله أولاً عن طريق مصنوعات بقولهم: وجوده تعالى له دليل قاطع، حاجة كل محدث للمصانع، ثم يوجبون للمصانع ما يستوجب من صفات، كقدمه عن مصنوعات، وقدرته عليها، واستحالة وجود الشريك، وما إليها قياساً على المقدمة.

أما عين بحر الوحدة، فهو ذلك الإيمان الصرف اليقيني غير القابل للترغيع، ولم يدرس الصحابة رضوان الله عليهم علوم التوحيد وما يجب لله تعالى وما يستحيل وما يجوز، ومع هذا أين توحيدهم من التوحيد القائم على أحوال الحجج العقلية والأدلة المنطقية، بل في علم التوحيد أسماء وصفات لم يسم الله بها نفسه، كالقديم، وواحد الذات والوصف والفعال، وما إليها، وجاء أن عجوزاً سألت أبا بكر الباقلاني عن الكتب التي يحملها على ناقته فيما تبحث؟ فقال: في إثبات الله، فقالت: أفي الله شك؟ فقالوا: إنه أحرق كل ما كان بحوزته من كتب وأسفار ثم قال الكلمة المشهورة: «اللهم إني أسألك إيماناً كإيمان العجائز».

وإنني كنت ولا زلت دائماً أتسائل: أرايت صاحب الإيمان القائم على الحجج والبراهين والأدلة إذا جاءه من هو أقوى منه برهاناً، وأبلغ حجة وأجمل بياناً، هل يترك ما عنده إلى إيمان آخر؟ وهل يسمى هذا التوحيد توحيداً إلا مجازاً.

8- القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا

التلمساني

هذه العبارة لا توجد في كتب العفيف التلمساني رضي الله عنه، وأول من انفرد بها، ثم رويت عنه هو الشيخ ابن تيمية، إذ نسبها للعفيف في الرسائل والمسائل (ج 1 ص 77، ص 181)، ولم يذكر الشيخ ابن تيمية لها سنداً، وقد علمت أن ابن تيمية لم يلتق بالعفيف رغم معاصرتهم له، مما يجعل أمانة النقل غائبة في هكذا حالة، ومعظم هذه الروايات عند تتبعها نجد رواياتها المباشرين محلاً للجرح والظعن لأسباب كثيرة يخرجنا ذكرها عما نحن بصدد، ويظهر الاضطراب فيها بوضوح.

والدارس الفطن لكتب هذا العلم الجليل يجده من صفوة الصفوة علماً وعملاً، وذوقاً وورعاً وصدقاً، وهذه العبارة وأمثالها مما ابتلي به الكثير من السادة الصوفية، وقمة الخبل تكمن في أن هؤلاء الحاقدين يتركون كتب ومصادر السادة الصوفية قطعية الصدور، ويثبون وينسبون إليهم ما شاءوا، وقد نبه المناوي إلى هذه الحقيقة في ترجمته للتلمساني فقال:

(إن الكثير من الأقوال مذكوس عليه، وهو منها برىء، ولا يصح نسبة شيء منها إليه) (1)، وقال برهان الدين الكتبي: (دخلت عليه - يقصد التلمساني - يوم مات فقلت له كيف حالك؟ قال: بخير، من عرف الله كيف يخاف (2)، رحم الله هؤلاء السادة العارفين، وغفر لكل من قدح فيهم أو طعن بدون علم وتريث إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

9- وأما واضح هذا العلم «التصوف» فهو النبي ﷺ علمه الله بالوحي والإلهام، فنزل جبريل أولاً بالشرعية، فلما تقررت نزل ثانياً بالحقيقة، فخص بها بعضاً دون بعض، وأول من تكلم فيه وأظهره سيدنا على كرم الله وجهه.

ابن عجيبة

(1) الكواكب الدرية للمناوي ورقة رقم (332) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (260) قسم التاريخ.
(2) شذرات الذهب ابن العماد الحنبلي (ج 5 ص 417).

انظر كيف برر دجله بالكذب على الله ورسوله وجبريل وصالح المؤمنين، وبذلك قرر فرية أن الحقيقة تقابل الشريعة وأن كلا منهما مما شرع الله تعالى، سبحانه هذا بهتان عظيم.

لا ريب أن هناك من لا يرى الفرق بين التمر والبصل الأحمر .

أفي مثل ابن عجيبة تقال هذه الأوصاف من دخل وكذب وهو ابن عجيبة، نعم جاءت هذه العبارة في كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم للشيخ أحمد بن محمد الحسني الشهير بابن عجيبة ص (5)، وليس فيها ما يخرج عما هو معلوم بالضرورة، فلفظ الحقيقة لم يرد على أنه مقابل للشريعة، بل على أنه مكمل لها، وهو ما يتضح وضوح قمر الهم في فصل الربيع . فإنه يقول إنه بعد أن نزلت الشريعة بما فيها من أحكام العبادات والمعاملات الظاهرة نزل سيدنا جبريل بالحقيقة وهي الإخلاص وصدق التوجه أثناء تأدية هذه العبادات .

وقد سئل الحافظ عبد الله الصديق الغماري عن أول من أسس التصوف، وهل هو بوحى سماوي فأجاب :

(أما أول من أسس الطريقة، فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعدما بينها واحدا واحدا دينا بقوله : هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم، وهو الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك⁽¹⁾ .

فالأمر كما رأيت معروف عند العلماء من محدثين وغيرهم، وها هو خاتمة الحافظ الشيخ الغماري يشرحه ويقرره، وليس المقصود به أكثر من الإشارة إلى مقام الإحسان الذي هو أعلى الدرجات الثلاث .

(1) حقائق عن التصوف - الشيخ عبد القادر عيسى ص (22).

التجاني

ولازم قول التجاني هذا أن أقطاب الصوفية، وهو على رأسهم أعلم بالله وأعرف بشرائعه المتضمنة محابه ومساخطه من الأنبياء، أليس هذا هو الكفر يا عباد الله.

أولاً: هذه العبارة ليست للتجاني، بل قيلت قبله بمئات السنين، وتنسب للعديد من رجال التصوف، وأقدم من نسبت له هو أبو يزيد البسطامي رحمه الله، وما أصدقها من كلمة.

ثانياً: إن المراد بها أن الأنبياء بما حازوه من مقام عال منيف وهبوه بدون اكتساب، إذ النبوة صفة ملازمة للنبي كما قلنا، كانت معارفهم وعلومهم وحقائق إيمانهم يقينية، إذ لو حاولت أن تزعم عقيدة أحدهم أو تشككه أو تجعله يكفر أو يشرك لما استطعت إلى ذلك سبيلاً، بينما الأولياء ممن ليسوا بأنبياء ليست لهم العصمة ولا أوتوا ما أوتي الأنبياء، فأبو يزيد رحمه الله أراد أن يشكو بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء الذين وقفوا على الجانب الآخر من ساحل الغرق، يدعون الخلق إلى الخوض، فلو كان كاملاً لوقف حيث هم.

II- مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

معنى هذا البيت الصوفي - خربه الله - أن الولي أفضل من النبي، ومن يعتقد هذا كيف لا يكفر.

لقد قلنا سابقاً: إن المنطق الصحيح يقضي بأن لا يفتي الاقتصادي في أبحاث الجغرافي، ولا المهندس في أعمال الصيدلاني، فالعدالة تحتّم بأن لا يتحدث

في كلام القوم إلاهم، وكل محاولة لتفسير كلامهم وإشارتهم من قبل غيرهم هي محاولة فاشلة وإن سلمت النية وصلحت الطوية، فما بالك وصلاح النية أمر مفقود عند المتحدث، وإسناد الأمر إلى أهله أمر بديهي لا جدال فيه، ولو قلنا لغير المختص أن يشرح لنا قول المعري مثلاً:

وحرف كتون تحت راء ولم يكن بدال يؤم الرسم غيره النقسط

لما استطاع أن ينطق بحرف، فإذا حدث أهل الاختصاص أجابوك: بأن الشاعر شبه الناقه في هزالها وضمورها بحرف التون تحت راء رجل يضرب رثيتها اسم فاعل من رأيته، إذا أصبت رثته لم يكن بدال، أي رقيقاً بها اسم فاعل من دلا ركابه إذا سار سيرا رقيقاً، والرسم رسم دار الحبيب والمراد بالنقسط نقط المطر.

وبناء عليه فلننظر شرح البيت الذي نقله المصنف عن الشيخ عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه، فإنه من أهل الاختصاص فيقول: «ولا ولاية أعظم من ولايته - يقصد الرسول ﷺ - لما اتفق عليه الجمهور أن كل نبي ولي وكل رسول نبي ولا عكس، فما كل نبي رسول ولا كل ولي نبي، واعلم أن كل نبي أو رسول فإن ولايته على قدر نبوته، ولهذا قال المحققون: إن الولاية أفضل من النبوة يريدون بذلك في الرجل الواحد، يعني أن ولاية النبي أفضل من نبوته، ومن هنا قال بعضهم:

مقام النبوة في برزخ فدون الولي وفوق الرسول

فالولاية عبارة عن الوجه الإلهي للنبي، والرسالة عبارة عن الوجه الذي بين النبي وبين الخلق^(١)، ولا أظن أن الأمر يحتاج لشرح أو إيضاح أكثر.

(١) الكمالات الإلهية - الشيخ عبد الكريم الجيلي.

12- أنا سيد الأولياء كما أن النبي سيد الأنبياء، ولا يشرب ولي ولا يسقى إلا من بحرنا من نشأة العالم إلى النفخ في الصور، وإذا جمع الله تعالى خلقه في الموقف ينادي منادي بأعلى صوته حتى يسمعه كل من في الموقف: يا أهل الخشر هذا إمامكم الذي كان مددكم منه.

أناشدك الله تعالى أيها القارئ أن تقول ما إذا كان هذا الكلام كذبا على الله ورسوله وعلى المؤمنين ولا أخالك إلا قائلا: اللهم إن هذا كذب بحت عليك وعلى رسولك وعلى المؤمنين، إن هذه الدعوى أخي المسلم لم يدعها نبي ولا رسول، فكيف يدعيها أحمد التجاني وتقبل منه يا للعجب؟

13- أخبرني سيد الوجود ﷺ بأني أنا القطب المكتوم منه إلى مشافهة يقظة لا مناما، وقد سئل عن معنى المكتوم فقال: هو الذي كتّمه الله تعالى عن جميع خلقه حتى الملائكة والنبين إلا سيد الوجود ﷺ فإنه أعلم به وبحاله، وهو الذي حاز كل ما عند الأولياء من الكمالات الإلهية، واحتوى على جميعها، فانظر كيف ادعى التجاني أن النبي ﷺ قد أخبره يقظة لا مناما، ومشافهة لا واسطة بأنه القطب المكتوم.

اللهم هذا كذب على رسول الله وعلى عبادك، فالعن اللهم من كذب عليك وعلى رسولك وعلى عبادك المؤمنين.

14- إن الفيوض التي تفيض من ذات سيد الوجود تتلقاها ذوات الأنبياء، وكل ما فاض وبرز من ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتي، ومني يتفرق على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ في الصور، وخصصت بعلوم بيني وبينه مشافهة لا يعلمها إلا الله عز وجل بلا واسطة.

وقوله - لا رضي الله عنه - وهو يشير بأصبعه السبابة والوسطى، روحي وروحه ﷺ هكذا تمد الرسل والأنبياء وروحي تمد الأقطاب والأولياء من الأزل إلى الأبد.

التجاني

عودة إلى كتاب جواهر المعاني

أولاً: نختصر القول بذكر عبارة جامعة مانعة للشيخ التجاني رضي الله عنه لا يكاد يخلو منها مصدر من المصادر التي تحدثت ونقلت عنه وهي: «ولنا قاعدة واحدة عليها تبنى جميع الأصول: أنه لا حكم إلا لله ورسوله، ولا عبرة في الحكم إلا بقول الله وقول رسوله ﷺ وكل قول لعالم ولا مستند له من القرآن ولا من قول رسول الله ﷺ فهو باطل، وكل قولة لعالم جاءت مخالفة لصريح القرآن المحكم ولصريح قول رسول الله ﷺ فحرام الفتوى بها».

ثانياً: نبسط القول أكثر فنقول: ما لم نك نود الخوض فيه لأسباب لا نحسبها تخفى على ذوي البصائر وهو: أن هناك خصومات وأحقاد ومنازعات قديمة بين عائلة الشيخ أحمد التجاني وعائلة من الجنكيين في المغرب، وكل كتب الكثير من الشعر والنثر في الآخر، وكانت الخصومة أحياناً شريفة وأحياناً تنزل إلى مستويات أخرى بين كلا الطرفين، وكان من المنطقي أن يتناول هؤلاء الشيخ التجاني وطريقته بمؤلفاتهم وألسنتهم، بل بلغ من كيدهم له أن وضعوا كتاباً أسموه (يعسوب السر الرباني في كرامات الشيخ التجاني)، يوهم عنوانه وبعض فصوله بموالة الشيخ، ونثروا خلاله الكثير من الأباطيل والترهات والأكاذيب ففطن له أبناء الشيخ وأحرقوا نسخته وأعلنوا براءتهم منه^(١).

وكتاب جواهر المعاني الذي ينقل عنه المصنف هو كتاب لأحد أتباع الطريقة التجانية واسمه علي حرازم، وبه كثير من الدس والاضطراب والتناقض ومشائخ الطريقة التجانية يعلمون هذا وينبهون عليه في كل محفل وانفراد.

(١) انظر هذا في كتاب طرق المنفعة، وكتاب جناية المنتسب المعاني فيما نسب بالكذب للشيخ التجاني - للقاضي أحمد أحمد العياشي.

يقول فضيلة الشيخ إبراهيم صالح بن يونس وقوله العمدة : « قد كان لطبع كتب السادة الصوفية من قبل بعض دور النشر بدون عرض لما فيها على علماء تلك الطرق لمراجعتها وتصحيح نسخها الخطية دخل كبير في إشاعة ما لا صحة له من الآراء التي لا يقول بها أئمة تلك الطرق، وكما أصاب هذا البلاء بعض كتب التصوف، فقد منيت به بعض كتب الحديث أيضاً، وكان حظ كتب الطريقة التجانية وبالأخص جواهر المعاني من هذا البلاء أكثر وأكبر، الأمر الذي دفع بكثير من المنتقدين على شن هجوم مرير على السادة التجانية، بعضهم بحسن نية والبعض الآخر يقصد التشويه والاتجار باسم الدين لتحقيق أغراض كانت في نفوسهم» (1).

فترى أن فضيلته بين المرض وحدده وهو النشر بدون عرض لهذه الكتب على أهل الشأن والاختصاص، ووضح أيضاً سبيل العلاج وهو عدم طبع هذه الكتب إلا بعد مراجعتهم ليتحملوا مسئولية ما بها.

والخلاصة: أن الجراءة والافتراء بلغ ببني الإنسان تحريف الكتب السماوية وكتابتها بأيديهم فما بالك بما سواها، وأن الأغراض الدنيوية الحفيرة تدفع بالذين في قلوبهم مرض إلى كل مسلك، وقد كانت هناك الكثير من الدسائس والمؤامرات ضد الشيخ التجاني قاده أعداؤه الحاقدون مثل (ابن مايابا الجنكبي) و (ادبيج) و (البكائي الكنتي) وأمثالهم، ولكم نتمنى أن لا يقرأ أحد كتاب جواهر المعاني أو كتاب الرماح أو غيرها مما ألف عن الطريقة التجانية، حتى يرجع إلى المصادر التي تتحدث عن تلك الحقبة، كالجواب المسكت للكنسوسي، ومؤلفات أبي إسحاق الرياحي التونسي، وأخيراً مؤلفات العالم المعاصر فضيلة الشيخ محمد المصليحي حسين أحد علماء الأزهر الشريف، أو يرجع إلى المصادر التي تتحدث بوضوح ونقاء عن الطريقة التجانية كمؤلفات فضيلة الشيخ العدل الثقة إبراهيم بن صالح.

(1) كتاب التكفير أخطر بدعة تواجه الإسلام - للشيخ إبراهيم بن صالح ص (87).

15- لا يبلغ الرجل منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام ويأوي إلى منازل الكلاب .

الشعراني

والسؤال هل فعل هذا أبو بكر الصديق حتى أصبح صديقاً؟ هل فعل هذا عمر بن الخطاب؟ هل فعل ذلك مالك بن أنس؟ اللهم لا لا، كيف إذا يدعي الشعراني هذه الحقيقة؟ اعلم أخي أن عامة أئمة التصوف في ضلال وسعر، إنه لا يستغرب من الشعراني هذا الادعاء الباطل والضلال وهو صاحب طبقات الأولياء .

قدح في أحد كبار التابعين

لولا أننا نعد كلامنا من عملنا لقلنا: إن الذي في الضلال والسعر والباطل والضلال المموم هو الذي يسوق الكلام جزافاً بدون أقل درجات الأمانة العلمية والتثبت، فينسب كلام عمرو لزيد وفعل عطاء لعبيد، ولكن مذهبنا ألا نزيد على الدعاء بالهداية والمغفرة .

فهذه العبارة - أيها المصنف هداك الله - ليس للشعراني فيها إلا النقل الصرف، وقد ذكرها في الطبقات جزء 1 ص 40، وذكر أن قائلها هو رباح بن عمرو القيسي من تابع التابعين ومن أئمة المسلمين من القرن الثاني الهجري، أي بينه وبين الشعراني رحمه الله ما يقرب من ثمانمائة عام، وإن كان كتاب الطبقات بين يديك فراجع، وإن كنت تسوق القول جزافاً حسب العادة فقد بينا سخافة هذا المسلك فيما سبق .

وقد رواه رباح بن عمرو عن مالك بن دينار^(١) وهو من سادة التابعين، روى عن الصحابي أنس بن مالك وعن كبار التابعين كالحسن، وابن سيرين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وله أحاديث مخرجة في كتب الأحاديث والسنن في مقدمتها الجامع الصحيح للبخاري، وهو من أهل القرون التي شهد لها الصادق المصدق ﷺ بقوله: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(٢)، فخير المؤمنين بعد الصحابة من شافه أصحاب رسول الله ﷺ وحفظ عنهم الدين والسنن، وهو أدرى منك - أيها المصنف - ومن غيرك بما يقال وما لا يقال، فما عرفنا القرآن والسنن إلا بمالك بن دينار وأمثاله، واعتراضك غير ضائرنا ولا نهتم به قدر خردة بعد أن بشر القرآن الكريم مالكا وأمثاله برضوان الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وللعلم فإن مالك بن دينار لم تكن له زوجة حتى يتركها كأنها أرملة، ولم يولد له غير ابنة من سرية ماتت صغيرة، وعبارته المذكورة يدق فهمها ويحل إلا على الأبرار الذين يسجنون اللسان ويكثرون الاستغفار، ومن أراد فهمها فليكن كمالك بن دينار الذي شبهه الصحابي أنس بن مالك بأصحاب محمد ﷺ، وكان يحبه أكثر من عدة أولاده ويدعو له في الأسحار.

حدثت سيار قال: حدثنا جعفر قال: حدثنا مالك قال: أتينا أنس بن مالك -صفو كل قبيلة - أنا وثابت البناني ويزيد الرقاشي وزيادة النميري وأشباهنا فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ ثم قال: رؤوسكم ولحاكم ثم قال:

(١) انظر هذا في حلية الأولياء للأصبهاني (ج ٦ ص ١٩٦)، ترجمة رقم (٣٦١) ونفس المصدر (ج ٢ ص ٣٥٩).

(٢) متفق عليه.

والله لأنتم أحب إلي من عدة ولدي إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، وإني لأدعو لكم بالأسحار^(١).

والذي كان يعدّه أهل العلم في الحديث وغيره بأنه في الطبقة الأولى من الرواة ضبطاً وعدالة، ويعدّه أهل الصلاح والتقوى من أئمتهم، هذا بالطبع إن لم يصور الغرور للمرء أنه خير إيماناً وعلماً وأعلى درجة من مالك بن دينار.

وإليك طائفة من أولياء الشعراني في طبقات أوليائه:

1- محمد الحضري الذي صعد المنبر يوم الجمعة فخطب فقال: أشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام، ثم نزل فسل السيف فهرب جميع المسلمين من المسجد، وزعم الشعراني أن هذا الولي قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في ثلاثين مسجداً من مساجد القطر المصري.

2- الرجل الذي يسكن في ماخور المومسات (بيت الدعارة) يشفع لكل من يأتيه - عند الله - ويمسكه إلى أن يكشف بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له.

3- أبو خوذة - كان رضي الله عنه كما يقول الشعراني إذا رأى امرأة أو شاباً أمرداً راوده عن نفسه، وحس على مقعدته سواء كان أميراً أو وزيراً ولو كان بحضرة والده.

4- علي وحيش كان كما يقول الشعراني: إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمار ويقول له: أمسك رأسها حتى أفعل فيها، فإن أبي شيخ البلدة تسمر في الأرض لا يستطيع أن يمشي خطوة.

أخي المسلم وقائي الله وإياك شر هذه الفتن، أرأيت كيف يفقد الهوى أصحاب العقول عقولهم، ويذهب بأبصارهم وبصائرهم؟ وصدق رسول الله ﷺ إذ روى عنه «حبك للشيء يعمي ويصم»، فانظر كيف تجرد هؤلاء بأهوائهم من عقولهم وغضوا عن رؤية الحق أبصارهم فعميت بصائرهم وأصبحوا يرون أفسق الخلق وأكفرهم وشرهم وأفسدهم أولياء الله تعالى، إذا ذكروهم ترضوا عنهم وترحموا عليهم كأنهم أصحاب الرسول أو تابعوهم.

(١) حلية الأولياء (ج 2 ص 381) ترجمة رقم (200).

الطبقات الكبرى للإمام الشعراني

تحدثنا في بحثنا عن الدس على الكتب الإسلامية، وحظ كتب التصوف منه وعما قاساه الإمام عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه حتى حال حياته من الدس والتزوير.

ونحن نعرف معرفة قطعية مبنية على البحث والتدقيق أن كتاب الطبقات الكبرى المذكورة به هذه العبارة التي لم ينقلها المصنف عن مصدرها مباشرة، بل حرفياً عن أحد كتب التفسير المعروفة - تعرض للدس خصوصاً في الجزء الثاني منه.

ونحن لا نلوم المصنف على عدم معرفته للغث من السمين والصحيح من السقيم، فمثل هذه الأمور لا يلام عليها إلا المحققون الذين يشبعون المادة بحثاً وتحصيلاً قبل النطق بحرف واحد عنها ذماً أو قدحاً، وإن كنا لا نزال نلومه على التحديث فيما لا يعلم، ولكننا نجد أنفسنا مضطرين لإظهار بعض المدسوسات في كتاب الطبقات حتى لا يتسرع القارئ غير المختص بتصديق كل ما به خصوصاً في الجزء الثاني منه.

فأقول - على سبيل المثال - : إن الإمام الشعراني رضي الله عنه فرغ من كتاب الطبقات حسب ما ذكر بخط يده في آخر الكتاب في 15 رجب 952هـ، بينما نجد أنه في صفحة 167 من الجزء الثاني ذكرت ترجمة أحمد الكعكي، وذكر في نفس الترجمة أنه توفي في 15 رجب 952هـ، فلزم أن يكون قد كتبت ترجمته في يوم الانتهاء من كتابة الطبقات، وإذا علمت أنه ذكرت بعده إحدى عشرة ترجمة لأحد عشر مترجم له، كلهم بدون استثناء ماتوا قبله حسب ما هو مذكور في تراجمهم، تيقنت أن هذه الترجمة قد دست بين التراجم كذباً وتلفيقاً، وفي صفحة 153 من الجزء الثاني جاءت ترجمة علي البحيري، الذي ذكر في ترجمته أنه توفي في شوال 953هـ، أي بعد الانتهاء من الكتاب بسنة وثلاثة أشهر.

أما في صفحة 163 من الجزء الثاني، فإنك ستجد ترجمة علي الكازروني الذي ذكر في ترجمته أنه توفي في 960هـ، أي بعد الانتهاء من الكتاب وانتشاره بين الناس وتناولهم له بالنسخ والنشر بثمانين سنين.

ويلاحظ أن مسئولية الدس لا تقع على هؤلاء المذكورين، بل على من حشر أسمائهم وأسماء غيرهم بين السطور، وعلى كل حال فإن هذه المدسوسات لا تخفى على أهل الشأن، إذ لديهم ميزان دقيق يزن الشعرة وأقل، وهو الاستقامة

على الكتاب والسنة وما خالفهما لا يصح نسبة شيء منه للسادة الصوفية، وما ذكره المصنف عن كتاب الطبقات من مدسوسات ومحاولات الغمز والهمز والتقاط الترهات التي لا يجهل وضعها والتشهير بها، لا تؤدي إلا إلى صدور أحكام من قبل المصنف قد تكون غير سارة ولا مرضية له.

إلى هنا يقف بنا المضمار، وبهذه السطور نلقي عصا التسيار، إذ لم يذكر المصنف - تجاوز الله عن سيئاته - بعد هذا سوى بضعة أسطر عن الشيخ أحمد التجاني، نقلها عن كتاب جواهر المعاني ثم الحقها بفصل بعنوان «الإسلام نعم البديل»، ذكر فيه العديد من الماثورات والأذكار الواردة عن النبي ﷺ، فشكر الله له صنيعه ونرجو أن يوفق الله تعالى من عنده نسخة من كتاب المصنف إلى العمل بها والمواظبة عليها، وإلا فباستطاعته معرفتها من كتب الماثورات والسنن.

ويا حبذا المسلم المواظب على ما أمره الله ورسوله، ويا فوز من جاء يوم الحساب وفي صحيفته ذكر الله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ.

فالهج أخى المسلم بذكر ربك لا تغفل عنه ساعة من ليل أو نهار، فذكرك لسيدك مدعاة لذكره لك فى ملا نوراني كريم، ناصحاً لك - فالدين النصيحة - بالابتعاد عن التشنج والسوداوية ومعاداة أبناء دينك، ولعنهم وكراهيتهم، والدعاء عليهم والكيد لهم لاختلافهم معك في الفكر والاجتهاد، فما أدراك ربما كانوا على صواب وأنت على خطأ، إلا إذا أوحى إليك أنك على الصراط المستقيم وحدك، وهو ما انقطع بموت المعصوم ﷺ.

واعمل جاهداً أن تكون محباً ومحبباً لبني دينك، فحبك لهم حب الله تعالى، وحبهم لك حب من الله، فلا يشكر الله من لا يشكر الناس، وستجد أنك وإخوانك المسلمين جميعاً في عرصات الجنة إن شاء الله تعالى بعد أن ينزع الله ما في صدرك من غل في الدنيا أو في الآخرة إخواناً على سرر متقابلين، في سدر مخضود وطلع منضود، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وأبكار عرباً أتراباً، يذهبون لزيارة بارئهم فيتحفهم برؤية وجهه الكريم، السنن والشيعي والإمامي والمعتزلي والزبيدي والمالكي والحنفي والحنبلي والشافعي والإباضي وكل الأمة المحمدية بدون فرق وموحد في الشرائع الغابرة والأمم المندثرة وفضل الله لا حد له. واعلم

- أنار الله قلبك - أن رجلاً دخل الجنة في كلب أرواه من عطش - أ رأيت من جاءه موحدا مصليا صائما مذكيا حاجا، كرم الكريم يضيق عليه .

فأبشر ثم أبشر، فما اختارك الله تعالى لتكون من هذه الأمة المرحومة عظيمة القدرة إلا لعناية سبقت منه إليك، فكن في المستوى ولا تكن كالذي أعطي دينارا فأنهار عليه مقبلا وأعرض عن معطيه، واستعد للقدوم على رب كريم رحيم، ونعيم مقيم، وتجهز للملاقات واجتهد ألا يجدك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك فتسقط من عينه، وانظر إلى نفسك وقد التحقت بأسلافك الطيبين الطاهرين المتحلين بعز الطاعة، فكن على حذر ألا يكون معك شيء من ذل المعصية فيحال بينك وبينهم .

فمن مثلك وأنت ترفل في نعيم مقيم في قصور الجنة متوسدا أرائكها وزرابيها الميشوثة، شارباً من خمر لذة للشاربين، عندك ما يلذ العين وتحب القلوب من جنات وحور وولدان، وما أرخص الثمن المبدول، تعب يسير لو تأملت له وجدته راحة، ونصب قليل لو تذوقته وجدته لذة منك، وما من الله تعالى دعه له يتفضل به عليك كما وكيفاً من حكم كونه الله، فكل جائزة على قدر معطيتها .

وعزمت عليك بالله العظيم ألا تحرمني بركة دعائك بالمغفرة والعفو والتجاوز عن السيئات، فإن ذنوبي كبيرة والله أكبر وتقصيري عظيم والله أعظم، وأطمع في الرؤوف الرحيم أن لا يخيبني يوم القدوم عليه، ولا أظنك مخيباً حسن ظني فيك، فإني أكتب لك هذه السطور وأنا مسرف على نفسي لا أستطيع حملها على المكروه في طاعته سبحانه، إن أردت ركوبها ركبتني أو تأديبها غلبتني، وقد بلوت هذه الأمانة بالسوء فلم أجد لها في الرخاء شكراً ولا في البلاء صبراً، ولا موافقة على طاعة ولا هي زاهدة ولا خاشعة ولا مطواعة، فإني وهي في أمر عظيم وخطب جسيم إلا أن يقدرني القادر عليها .

وأتبعه مشكوراً ماجوراً إن شاء الله بالدعاء لكافة المسلمين أحياء وأمواتاً وما أخالك مقصراً، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين .

أحمد سالم كريم

القطفاني

درفه - الجماهيرية العربية الليبية

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	5
موضوع الكتاب.....	18
الفصل الأول	
علماء الإسلام والتصوف.....	22
نبذة عن قيام الحضارات.....	32
جهاد الصوفية.....	35
جهاد السيد أحمد البدوي.....	35
جهاد الشيخ أبي الحسن الشاذلي.....	36
جهاد الأمير عبد القادر الجزائري.....	38
جهاد الشيخ المقراني والشيخ حداد.....	39
جهاد شيخ المجاهدين عمر المختار.....	39
جهاد أبي بكر البوال السعدي.....	43
الرباط.....	44
عودة للإدعاءات الباطلة.....	46
الصحابة والتصوف.....	48
اعتراض عجيب.....	50
كتب التصوف.....	51
المدائح النبوية.....	54
الدس على كتب الإسلام.....	59
دور الزاوية في النهضة العلمية الإسلامية.....	64
تحديد معنى السلفية.....	68
الشيخ أحمد بن تيمية.....	69
الشيخ محمد بن عبد الوهاب.....	71
موقف الصوفية من الانحراف والمنحرفين.....	75
الفتن والاضطرابات في التاريخ الإسلامي.....	77
العلمو نورون.....	79
التصوف هو التطبيق العملي للكتاب والسنة.....	81
اضطراب وتناقض.....	83
الفصل الثاني	
تعريف التصوف.....	86

89	التصوف لفظاً وحالاً
93	البدعة
98	مصدر كلمة تصوف
101	مصادر التصوف المزعومة
103	الشيخ عبد القادر عيسى
105	نشأة التصوف
106	بعض من صوفية القرون الخيرية الأولى
106	عودة إلى لفظ التصوف
108	حقائق من التاريخ
112	أصول التصوف
113	المريد
114	الإمام الشاذلي ودوره الإصلاحية
119	التعريف الصحيح للطريقة
121	التصوف وأدعياءه
128	المقدرة بالله
135	الشفاعة
138	وجوب الانقياد للشيخ في طاعة الله
140	التيجانية وزيارة الأولياء
142	ضرورة أخذ التصوف عن شيخ
145	علم مشائخ الطرق
146	تعريف الإذن
147	في المسلسل والسند
149	التدليس
150	الأخذ عن النبي ﷺ
152	حقيقة الحب في الله
153	عودة للشيخ عبد القادر عيسى
155	اختصاص بعض الصحابة بعلوم دون غيرهم
158	باب مدينة العلم علي بن أبي طالب
164	السادة الصوفية ودورهم الإرشادي
166	الطرق الصوفية كروافد لتصور الفكر الإسلامي
170	الأنبياء وصفات الكمال
172	انتقال الحال من الشيخ إلى المريد

175 سوء الفهم يوقع في هوة سحيقة.
178 البيعة أو العهد.
182 جريمة التحدث في الدين بدون علم.
185 عودة إلى التحدث في الدين بدون علم.
186 حقيقة العهد أو المبايعة.
187 فضل الإنفاق في سبيل الله.
190 التلقين.
193 الالتزام بالعهد.
195 التيجانية وجوهرة الكمال.
195 شرط الطهارة في الذكر.
197 دلائل الخيرات.
204 أحزاب السادة الصوفية.
206 التوسل.
211 الأذكار.
212 الذكر بالاسم المضمّر «هو».
216 الذكر المطلق والذكر المقيد.
217 الذكر جهرا في حلق الذكر.
219 التشريع الزائد.
220 الحركة في الذكر.
222 السماع.
230 رؤية الرسول ﷺ حال اليقظة.
234 تعريف الخلوة.
234 ضرورة إشراف الشيخ على المختلي.
235 مكان الخلوة.
238 المراد من دخول الخلوة.
240 عودة للمقدرة بالله.
240 رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة.
241 رؤية الله تبارك وتعالى في دار الدنيا.
243 القول الصائب في انتفاع المريّد بالشيخ الغائب.
245 عودة إلى العلم نورون.
247 العزلة.
258 القلب وسيلة المعرفة المثلى.

262 وحدة الوجود
264 السيدة رابعة العدوية
267 الشيخ عبد القادر الجيلاني
269 السكر والشطح
273 تعريف الفناء
273 مخالفة ابن القيم للمصنف السلفي في الفناء
278 عودة إلى الشيخ الجيلاني رضي الله عنه
281 اتصال المجوسية العالمية بأحد الصحابة
282 علم الظاهر وعلم الباطن
284 الشريعة والطريقة والحقيقة
287 الإمام مالك والتصوف
293 الخضر عليه السلام
297 ارتجاج الفكر يؤدي إلى اضطراب الحديث
300 المقصود بلفظ القطب
303 بعض مما جاء في القطب والأبدال
307 الاسم الأعظم
310 صفة ولي الله تعالى
310 ولاية الله للعبد وولاية العبد لله
313 معرفة الولي
315 عقوبة مدعي الولاية
	الفصل الثالث
324 أبو طالب المكي
326 عودة إلى العلم الوهبي
327 الحسين بن منصور الحلاج
329 الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي
332 العفيف التلمساني
334 الصلاة المشيشية
341 عودة إلى كتاب جواهر المعاني
343 قدح في أحد كبار التابعين
346 الطبقات الكبرى للإمام الشعراني